رواية



الراقصة والعجوز

عبد الجواد خفاجي

رواية

الراقصة والعجوز

عبد الجواد خفاجى

إهداء

إلى من نصبتُ لها الشوقَ شَركاً فكنت لها صيدا

ووهبتُ لها العمر يوما ، فكسرتُ هى القيد

إليها حيث التقينا منذ ملايين السنين ،

ولم نلتقِ فى بضع السنين .

عبد الجواد خفاجى

لا أحب الرقص – تترامى بي الذكريات إلى الوراء ، عندما كنت فى عصر الزهور ، وكأني لست أنا ، أو لكأنى مسخ آخر، يعيش حياه تختلف تماماً عن تلك التـي بـدأتها صغيرة .. ففي دروب مدينتي يمسخ الإنسان ألف مرة فـى العمر الواحد .

لست أدرى من أنا .. حتى أدرى من أنا .. فأعـاود الحيرة من جديد لأقف عند السؤال ذاته.

إنني عندما أنظر أحيانًا فى ماضى حياتى وأفكر فيما ملأها وفيما جعل منها كنزا من الذكريات العاطفية على ممر الفصول الحزينة والسنوات القاتمة ، وفيما كـان يمكـن أن يكون منها ، بل فيما بدا أن يكون فعلاً،حين أفكر فى كل هذا أحاول أن أوقظ ضميرى وأن أحكم على نفسي بشـدة وأنـا أقول لنفسي : " إننى على كل حال لا حق لى فى أن أُمتـع بالسعادة ،فلقد سرقت سعادتي من المجتمع ومن القانون ومن الواجب ولم أكن قط امرأة أمينة فها قد مضى على خمسـة وأربعون عاماً وأنا أخون الجميع وقبل كل شئ فأنـا أخـون نفسي " .

ولقد حاولت بكل إخلاص أن أجد فى نفسي شـعوراً بالاشمئزاز من نفسي ، ويخَيل إلى أننى لـو كنـت عرفـت وخزات الضمير فى وقت مبكر من حياتي لما كنت مجرمـة إلى هذا الحد . وتارة أخرى أقف من نفسـي وقفـة إشـفاق فاكتفى بلقاء قصير مع ا أعبر له فيه عن نـدمى ، وهـاك على وجه التقريب ما كنت أقوله : رباه .. إن الماثلة أمامـك امرأة مقهورة ، تنتسب إلى الوسط الذي يمرحون فيـه ، أى روح لا أهمية لها دسّت فى جسم تنازلت فخلقته مغرياً إلـى حد ما .. اسمح لي أن ألاحظ بكل احترام أن شخصا مـا – من والدي إلى بقية من أوجدتنى بينهم – لم يلق بـالاً لهـذا الروح فى حين أن المظروف الفاني الذي دس فيـه الـروح كان موضع عناية فائقة وكانت توجـه إليـه جميـع أنـواع التحيات والاحترامات .

وا أسفاه ربى .. لأنك لم تشأ أن أُربى تربية حسنة ، ولأنك قذفت بي إلى عالم حزين شارد !! ولو أنك شـئت أن أولد بمكان آخر لا تقع عيني فيه على أمثلة فاسدة ، وكل ما تحض عليه لا يقْبِل عليه أفراد ذلك الوسط ، بل لـو شـئت ربى لأوجدتنى فى مجتمع يسلبني حريـة العبـث ويعلمنـي

احترام الفضيلة يضع فى معصمي كل قيود الالتزام والواجب والشرف المقدس .. لو شئت ربى لكنت نعم القديسة الطاهرة ولكنك ربى لم تشأ ... فماذا يـراد منـى وأنـا المقهـورة والمحكوم عليها بذلك الواقع منذ الـولادة .. فهـل ألام ، أم اللوم لأولئك الذين قلبوا الدنيا فوق رأسي وجردوني الهويـة .. بل ماذا يراد منى وأنا أضعف الجميع ؟.

* * * * * * *

كانت البداية فى العاشرة تقريبا، عندما كنت أجلـس فوق حِجر رجل كبير فى الخامسة والأربعـين مـن عمـره تقريبا ، عندما يقَبِلُني كانت شواربه الخشنة تشيكنى ، وما أن أترك حِجره حتى أتمنى أشواكه من جديد .

كان صديقاً لوالدي ، لذلك كنت استسلم له فى سكينة واستئناس ، لكنى لم أكن أدرى أن ما يفعله هذا يـنم عـن رغبة ما دفينة فيه ، ولم أكن أعرف سـببا يجعلـه يقبلنـي خلسة عندما يخرج والدي من الحجرة تاركنى وحيـدة مـع أشواك ذلك الرجل . وعندما كنت أذهب إلى فراشـى كنـت أفكر كثيرا فى ذلك الرجل وأتحسس وجهي مليـا ، لأتـذكر

شواربه الخشنة ، وملابسه الكشميرية الفضفاضة ويأخـذني الليل إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير .

كنت أفكر فى شىء أعمق مـن القـبلات ، شـىء يختلف تماما ، ولكننى كنت أجهل ذلك الشىء، وأجهل حقيقة شعورى ذاك ، ولم أكن أعرف له معنى علـى الإطـلاق ، ولكننى كنت أتراجع لأقف عند حِجر ذلك الرجل ، وأتمنـى أن يجلِسنى عليه بقية عمرى .

ذات مرة همس فى أذنى :

- - إنى أحبك .

كنت وقتها لا أدرك الكلمة جيدا، لكننى فهمت فهمـا سطحيا أن الرجل يحبنى ، وبقيت الكلمة مبهمة بلا معنـى ، وتوقف هو عند تلك الكلمة دون أن يقدم لى التفسـير الـذى أجهله ، وهكذا ظلت علاقته بى دون أن يزيـد فيهـا حتـى أتممت دراستى الابتدائية .

* * * * * * *

فى إحدى ليالى الصيف الحارة من ذلك العام الـذى أتممت فيه دراستى الابتدائية زار عزرائيل أسرتنا الصـغيرة

، ومات أبى إثر مرض عضال لازمه منذ طفولته ، وودعنا إلى مثواه الأخير – رحمه ا – فقد كان لا يقوم من نـوم حتى ينام ، وكان دائم الشكوى من آلام الرأس والأطراف .

لقد مات أبى ولم يترك لنا سوى معاشه المتواضع ، وصداقة ذلك الرجل الذى بقى على علاقته بنا كما كانت قبل وفاته ، ولم ينقطع عن زيارتنا ، ولم يكف عن السؤال عـن حالنا .

لم يكن لى إخوة آخرون ، لذلك كان حضوره إلـى منزلنا هو حضور فى نفسى أنا التى تتمناه كثيـرا ؛ لـيملأ فراغ والدى الذى رحل .. كانت كلماته الرقيقة تترامى إلـى أسماعى وكأنها قصائد شعر رقيق ، ولكن والدتى كانت تعلق كلماته الرقيقة على شماعتها الحزينـة .. كانـت تـدرك أن كلماته من قبيل المجاملة لأرملة صديقه ، أحيانًا أخرى كانت تصغى إلى كلماته بإطراق وهى تحدق إليه فى دهشـة مـن كلمات الغزل والمديح على جمالها ، وحسن أخلاقها، ووفائها لزوجها الذى رحل . ورغم ذلك كان ينتهز فرصة خروجها خارج الحجرة لينظر إلى نظرات لا يفهمها سواى ، وكأنـه يذكرنى بكلمته التى همس بها فى أذنى يوما مـا، أو لكأنـه

يذكرنى بما كان يحدث بينى وبينه من غرام باهت عندما كان يجلِسنى على حِجره منذ أربع سنوات مضـت ، وتتملكنـى الرغبة المجهولة عندما ينفرد بى ، وأفكر بعمق : ماذا أفعل لو حاول هذا الرجل أن يجلسنى على حجره من جديـد ؟ . لكنه ـ لحسن حظى ـ لم يحاول أن يعاود فعلته التى أدمنتها ، وأخشاها منه الآن .

كانت هداياه إلينا كثيرة ، ولكننى لم أكن أعرف سر علاقته بوالدتى التى آلت إليها بالميراث عـن والـدى ، وإن كنت بحكم أنوثتى فهمت أن والدتى تحب الجلوس إليه . بيـد أنى لا أستطيع أن أجزم أنها كانت على علاقة غرامية معـه فى ذلك الوقت بالذات ، وكنت أتساءل كثيرا مع نفسى : لماذا يأتى هذا الرجل كثيرا إلى بيتنا ؟ .

مرة دخلت والدتى إلى حجرتى .. كنت أجلس إلـى كتبى عندما مسحت بيديها فوق شعرى وقالت بحنان : إنـكِ كبرتِ يا ابنتى . وقبلتنى بحنان ثم جلسـت إلـى جـوارى وتأملتنى مليا وقالت : – إنك جميلة جـداً .... إنهـا المـرة الأولى التى يقول لى أحد مثل هذه الكلمة.. شعرت بـالزهو والارتياح .. لكنى أيضا شعرت بالخجل ، واستغربت منهـا

هذا الإطراء ، لأنها لم تعودنى على مثل هذه الكلمات الرقيقة .. نكست بصرى إلى الأرض ولم أتكلم . بعدها سـألتنى :- هل تعرفين أنك جميلة ..؟ أجبت بسذاجة :- وكيف أعـرف إذا كنت جميلة أم لا ؟

إن هذا الحكم لابـد أن يصـدر مـن الآخـرين .. فقاطعتنى – لا .. لا يا حبيبتى ، إنك جميلة جداً بدرجه كبيرة .. وعليك الاهتمام بنفسك وأناقتك ، لقد أصبحت اليـوم فـى سن الزواج .. قالت هذه الكلمة الأخيرة وكأنها فجرت فـى نفسى قنبلة بلا إنذار . إنها المرة الأولى التى أسمع فيها هذه الكلمة التى لم أفكر فيها من قبل ، لكنى كنت أعـرف أنهـا تعنى الكثير .

للآن ورغم كل السنين التى مرت لم أفهم لماذا قالت لى والدتى تلك الكلمات .. ولكنى فهمت وقتها أن هذا الرجل كان وراء ما قالته والدتى من كلمات رقيقه ؛ وتخيلت وقتهـا أن هذا الرجل قد يطلبنى للزواج لكنى تحيرت كثيرا ؛ فهـو رجل متزوج وله ابن فى مثل سنى .. ترى ماذا يكون السر ؟.. ولم أفهم هذا السر ولكنى أمضيت شهوراً عديـدة أحلـم بالزواج ، وأحلم بذلك الفارس الذى يمد إلى يديه لأرتمـى

بينهما ، بيد أنى لم أرسم له صورة فى خيالى ... ولكنى فقط خلته رجلاً كأي رجل . وتمضى الأيام بـلا أحـداث حتـى أتممت دراستى الإعدادية ، وتوقفت عن التعليم لأن متطلباتى كانت أكثر من أن توفرها لى والدتى الفقيرة .. وانقطع هـذا الرجل عن زيارتنا ليتركنا بلا هدايا وبلا اهتمام ومن دون أن نعرف لهذا الانقطاع سبباً .. وانقطعت أخباره عنا ، ولم أعد أفكر فيه ولم تعد والدتى تذكره أمامى حتى نسيته تمامـاً .. وبقيت وراء جدران البيت لا أعرف عن الحياة خارجها شيئا لكنى كنت أحس بتمرد شديد على هذا القيد المفروض علـى بلا سبب ، سوى القدر الذى رسم لى هذه الحياة المملة . وكم تمنيت أن أكسر كل الحواجز؛ لأخرج إلى عالم آخر ، بالطبع لم يكن هدفى الخروج خارج البيت ، لأني كنت أخرج أحياناً مع والدتى إلى السوق ، وأحياناً إلى السينما ، وأحيانًا لزيارة الجيران . تمنياتى كانت متركزة فى الخروج خارج نفسـى لأصنع إنساناً آخر .. كانت هناك أمان مجهولة تجيش فـى نفسى .. وكنت دائما عندما أخلد إلى النوم أفكر كثيـرا فـى حياه أخرى ، وهاتف ما داخل نفسى يقول لى أن هناك حياة أخرى تنتظرنى . وكانت والدتى تلك السيدة الرقيقة المشاعر

والأحاسيس أقرب ما تكون إلى نفسى ومشاعرى فـى تلـك الفترة ، ولعل جلوسنا إلى بعض أكثر الوقت جعل علاقتنـا أقرب إلى الصداقة ، فكنا نتحدث بصراحة وبلا حرج عـن مشاعر كل منا وعن همومنا بلا حرج .. ولعل والـدتى قـد شعرت بوحدتى الرهيبة ، فكان شغلها الشاغل أن تنشلنى من وحدتى القاتلة فى محاولة لشغل فراغى القاتـل بالأحاديـث والثرثرة فيما يجدى ولا يجدى ، ولكنها كانت عـاجزة عـن انتشالى من هواجسى المسيطرة ؛ لأنها لم تكن تفهم بالضبط ماذا أريد أنا ، فى الوقت الذى لم أكن أعرف أنا ماذا أريـد بالضبط .

* * * * * * *

ومرة أخرى كنت فى الخامسة عشر عندما جلسـت أراقب ابن الجيران من خلف زجاج النافذة .. أعجبت بـه ، لكننى لم أكن أعرف ما الذى أعجبنى فيـه ، وتمنيـت لـو أتحدث إليه عن نفسى .. كنت فى حاجة لأن أتعرف على أي شخص فى مثل ؛ سنى لأتحدث إليه عن آمالى المشـبوبة .. وكم تمنيت أن أنظر إليه من بعيد ، أو أبقى إلى جواره بقيـة عمرى ، ولكننى ما لبثت أن قطعت علـى نفسـى لهفتهـا

وصبوتها إليه من بعيد ، فلوحت له بذراعى بعد أن فتحـت النافذة الزجاجية ، وابتسمت له برضا وإعجاب ، ولدهشـته لم يجب ولم يبتسم ، ولم يمض يوم بعد ذلك حتى قذف إلى بورقة صغيرة من النافذة ، كتب فيها كلمات ما زالت عالقـة فى ذاكرتى حتى الآن ؛ لأنها أول كلمات من شاب يصـف فيها جمالى وأنوثتى بهذا الوصف ، وهممت إلى فرد الورقة بسرعة ولهفة لكن لسوء حظى كانت والـدتى تقـف خلفـى تراقب ما يحدث ، فبعد أن قرأت الورقة جيـدا لـم تـدعنى أتذوق طعمها فى ذهنى ، بل فاجأتنى بيدها تخطـف منـى الورقة، توقعت يومها أن والدتى سوف تقذف بى من النافـذة .. تركتُ والدتى لتقرأ الورقة ، وذهبتُ مسرعة إلى داخـل حجرتى وأوصدت الباب دونها .

مضت بعد هذه الحادثة أربعة أيام لم أذق فيها طعـم النوم ؛ ذلك لأن والدتى لم تكلمنى ولو كلمة واحدة عن هذا الموضوع ، وكأنها لفرط غضبها انحبست الكلمات فى فمها ، لم تعاتبنى أو تغضبنى ، لكنها كانت ترمقنى بنظرات كلهـا قسوة ولوم ، فكرت كثيرا ... لماذا تعاملنى والـدتى بهـذه القسوة ...ألا تعرف أننى كفتاة من حقها أن تتعـرف علـى

الناس ، أم أن التعرف على الشباب فى مثل سنى جريمـة لا تغتفر فى حق الشرائع واللوائح التى تـؤمن بـها ؟ ... إن أشد ما يؤرقنى سؤال كان يلح على بلا إذن : كيف يعـرف الناس أن خلف هذه الجدران فتاة فى مثل سنى تؤرقها الوحدة ويفزعها المستقبل المجهول ؟ استغربت كثيرا فلسفة والـدتى فى الحياة وطريقة تربيتها لى ، لكنى كنت أعود فألتمس لهـا العذر فهى امرأة وبالطبع تعرف عن طباع الأنثى فى مثـل سنى الكثير، غير أنها مغلوبة على أمرها أيضـا ؛ لأنهـا لا تعرف ماذا تفعل بخصوص حياتنا نحن الاثنين .

وأخيراً حدثت المعجزة وتكلمت والدتى فى مسـاء يوم أحست فيه بمشقة الخصام ؛ فهفت إلى التصالح معى بعد أن عز عليها أن تعذبنى أكثر من ذلك ؛ فأنا وحيدتها ولـيس لها غيرى فى هذه الدنيا وقدرت موقفى ، والتمسـتْ فـى نفسها الأعذار لى ، فابتسمت بحنـان وقبلتنـى ، وقالـت بصوت كله رقة وسخرية : ـ لقد كبرت لدرجة أن الشباب يغازلونك من خلف زجاج النوافذ . وأضافت بإعجاب وهـى تنظر إلى : ـ إنهم معذورون ؛ فأنت جميلـة ، ولكـن ألا تعرفين أن ما فعلتيه هذا لـيس فـى صـالح سـمعتك ؟ أو

تضمنين أن ذلك الشاب حريص عليك بالقدر الـذى يجعلـه يحافظ على سمعتك .؟

انشرح صدرى لكلماتها الأخيرة هـذه ، وكأنهـا لا تمانع من علاقتى معه بشرط أن يكون حريصاً على سمعتى ، إذن لقد انفتح باب أمل جديد ، ولا بد أن هناك تغيـرا مـا سيحدث قريبا فى مجرى حياتى العاطفية .

لا أتذكر كيف أجبت على والدتى يومهـا ولا أذكـر كيف انقضى الموقف ، كل ما أذكر ه أننى لم أكرر مثل هذا التصرف مع هذا الشاب ، لكنى عشت على أمل واحد هو أن ألتقى بشاب يحبنى كثيرا ، كنت أحتاج أى شاب يقـول لـى كلمات الحب ويبادلنى العواطف الجياشة التى كانت تجـيش فى صدرى وقتها ، ولم يخطر ببالى أننى أحتاج إلى أكثر من العواطف .

ولكثرة هفوتى إلى قصة حب مع أي شاب ، رحـت أصنع لنفسى نموذجا خاصا بى عن الرجل .. وعشت أفكـر كثيرا فى فتى أحلامى ، وكيف السبيل إليه ، كيـف أخـتلط بالناس وكيف ينظرون إلى عن كثب لأظْهـر لهـم جمـالى ومفاتنى التى تحولت إلى معالم خربة خلف جدران مقفلـة ..

خطر لى مرة أن أخرج لوحدى كل يـوم خـارج المنـزل لأقضى فترة من الوقت فى أى حديقة أو مكتبة عامة علنـى أتعرف على شخص ما ، ولكنى كنت أخشى أن تعلم والدتى بأمرى فيكون الخصام بيننا مرة أخرى .

بعد يأس من تحقيق إحدى رغباتى ، آثرت الجلـوس فى البيت لأقرأ الكتب والمجلات ، ورحت أعب منها بنهم ، حتى لا يكون هناك وقت للأفكار والأوهام التى تدفعنى لعمل أشياء قد لا ترضى والدتى ، ومن كل مجلة أقرأهـا كنـت أجمع صور الممثلين والمطربين ، أدسـها تحـت وسـادتى لأتطلع إليها كل يوم قبل النوم ، دون أن أعرف سر تصرفى هذا ولكنى كنت أشعر بنشوة رهيبة وأنا أنظـر إلـى تلـك الصور ، أما بالنسبة للقصص فلـم أكـن أحـب القصـص البوليسية أبداً ، بل كنت أميل إلى قراءة القصص العاطفيـة خصوصا تلك التى تحوى موضوعاً عاطفيا قويا بـين فتـاة عاطفية وشاب مشبوب بالعواطف ، يصارع الدنيا من أجلها. لم تمضِ فترة طويلة حتى شعرت بأنني أريد أن أقول شـيئًا .. لقد احتدمت كل تلك القصص العاطفية بداخلى حتى لأننى وجدت نفسى أقلـد الكاتـب أحيانًـا ، لأصـف أحاسيسـى

ومشاعرى على الورق ، ومرة تلو الأخرى اتخذت كتابـاتي طابعاً خاصا بها ، وكثيرا ما كنت الجأ إلى القلـم والورقـة عندما يضيق صدرى فوق قدرة تحملى ، وكلما اشـتقت أن أقول شيئًا ما . وجدتنى أتخيل لنفسى حبيباً ليس له وجـود ، صنعته أنا بأوهامى ورغباتى المشبوبة ، وصرت أصبو إليه كثيرا كما لو كان حقيقة ، ورحت أكتب إليه علـى الـورق لأصف له عواطفى حتى كتبت رسائل كثيرة مليئة بالأشواق الحارة والهفوة إلى اللقاء ، وتزاحمت الأوراق تحت سريرى . أضحك كثيرا الآن عندما أتذكر تلك الوراق التـى لا أدرى فى يد من وقعت أخيرا ... لاشـك أن أى شـخص يقرأهـا سوف يتهمنى بأننى ذات علاقات غرامية عديدة مع أشخاص كثيرين ، وبالطبع فسوف يفسرها تفسيرا بعيدا كل البعد عن الحقيقة ، فكم كنت ساذجة وقتها ، وكم أنا الآن مشفقة على نفسى التى نبتت فى ذلك الحرمان الرهيب من كل شىء يلزم الإنسان فى مثل هذه الفترة الحرجة من حياته .. إن الـدموع تنهمر من عينى الآن وأنا أنقل إليكم هذا الماضـى البعيـد ؛ فلقد كان مزيدا من المعاناة خلف الجدران .

* * * * * * *

كنت قد كبرت عندما حضر إلى منزلنا صديق والدى مرة أخرى كنت قد نسيته ونسيت ماضية وطويـت عليـة ستارا . ولم أعد أفكر أن أجلس على حِجـره مـن جديـد ، ولكنى أعترف أن عودته مرة أخرى أعطتنى أملاً جديـداً . إنه رجل أرمل الآن ، فقد ماتت زوجته ، ولابد إنه يفكر فى الزواج من والدتى ؟.

إنه باب جديد فى حياتى قد فُتِح على عجـل ، لقـد تزوجها بالفعل وتم كل شىء فى هدوء ، وعلى عجل ، لـم تمانع والدتى ولم تتردد وكأنها تنتظره منذ زمن . لست أدرى كيف تصرفت فى هذا الأمر الهام بهذه السرعة ، ولكن أغلب ظنى أنها كانت تعانى من شظف العيش أكثر من معاناتها من الغربة عن أحضان رجل يحنو عليهـا ويقاسـمها حياتهـا ، فأرادت بذلك أن تضمن لنا السلامة من فاقة طاغية قد تهـدد حياتنا فى المستقبل القريب بعد أن ارتفعت أسعار كل شىء ، وأصبح معاش والدى لا يكفى لشراء اللحمـة فقـط . لقـد تزوجت والدتى الرجل وباعت بيتنا وباعت الأثاث أيضـا ، ولم نعد نمتلك شيئًا بعد ذلك سوى مبلغ من المال السـائل ،

وانتقلنا إلى بيت هذا الرجل ؛ لنعيش معه فى منزله أنا وهو ووالدتى .

للآن ورغم كل الأحداث المتباينة التى مرت بى لـم أفهم بعد هل أُحِب هذا الرجل والدتى فتزوجها ، أم أحبنى أنا فتزوج والدتى ؟ ! .. كان يلاحقنى بنظراته دوما حتى لأنى كنت فى أشد الخجل والحياء من تلـك النظـرات ، ولكنـى أعترف أننى كنت أحتاج فى تلك الفترة إلى الحب بكل معانيه ، ولكن ليس بالدرجة التى تجعلنى آخذه من رجل قد تراخت أطرافه فى كهولة واضمحلال ، لكن كل تصرفاته كانت تقول إن الرجل يعاود مراهقته من جديد ، فلم يمضِ كثيـر علـى زواجه من والدتى حتى راح يهملها بوضوح ، صحيح أنهما كانا يجتمعان فى غرفة واحدة ، ويأكلان على مائدة واحدة .. ويخرجان معا للتسوق ، ولكنهما كانا مفترقـان فـى أشـياء كثيرة ، حتى عندما كنا نجتمع ثلاثتنا كانت أحاديثه متجهـة إلى أنا ، وكان متباعدا عنها بعقله وقلبه معا ، ولعل والـدتى لم تكلف نفسها عناء البحث عن السبب ؛ ربما لقناعتها بـأن هذا الرجل لا يحتاج منها أكثر مما تعطيه لـه مـن إعـداد الطعام ، وتنظيف ملابسه والاهتمام بتلميع أحذيتـه ، وقـد

كانت توفر له كل ذلك ، لكن الرجل غير ذلك تماما .. فقـد كان رجلاً فى الخمسين يحمل قلب طفل ، وكأن كـل تلـك السنين الماضية من عمره لم تكن كافية لأن تمحق طفولته ، وبالطبع كنت أنا بالنسبة له أفهم لمشاعره من والـدتى التـى اضمحلت عواطفها مع الزمن ، وأصبحت الحياة بالنسبة لهـا مجرد روتين معين يجب أن تمر به حتى تصل إلى النهايـة المحتومة ، لم تعد تفكر فى شىء جديد وكأنها وصلت إلـى آخر عتبات الزمن ، ولم تعد تتصور يوما آخر يختلف عـن يومها الذى تعيشه . لقد وجد الرجل ضالته المفقودة فى ، فأنا فتاة شابة مفعمة بالأنوثة والحياة ، ولو أعطيته قلبى وحنانى لمات الرجل من فرط سعادته ، بالطبع أنا لا أفترى على هذا الرجل ولكنى استبقت الأحداث قليلاً .

كانت الساعة منتصف الليل عندما حضر من خارج المنزل متسللاً فى ظلمة المكان حتـى وصـل إلـى بـاب حجرتى ، بالطبع لم أكن قد نمت بعد لأنى كنت معتادة على قضاء الليل مع جهاز " الراديو " لأعيش مع العالم بأسـره ، وأنا أستمع إلى مختلف الإذاعات .. كانت حركته نحو بـاب حجرتى المفتوح قليلاً خفيفة لدرجة أننى لم ألق لهـا بـالاً ،

واعتقدت أن تكون والدتى قد أتت لتطمئن على ، صـحيح أنها تنام مبكرا ، لكن ربما تكون قد استيقظت لسـبب مـا ، لذلك بقيت كما أنا بلا حراك حتى انسل إلى داخل الحجرة ، ووقف مبهورا أمام جسدى الذى لم أكن أعبأ بتغطيتـه فـى الفراش .. انتظرت أن يصدر منه صوتًا يحثنى على الحركة ، لكنه لم يتكلم ، حتى التفت إليه لأخاطبه على أنه أمى ، وما أن رأيته حتى دهشت كثيرا ، وانتصبت واقفة وأنـا ألملـم أطراف ثيابى ، لقد كان الضوء خافتًا لدرجة أننى لم أستطع أن أميز إن كان هو أم رجل آخر ذلك الذى يقف فى وسـط الحجرة ، فهم هو بإشعال الضوء وأقفل الباب من الـداخل ، وجلس على حافة السرير .. لم أكن خائفة منه للدرجة التـى تجعلنى أصرخ وأستغيث ، كما أننى لم أكن أعرف ماذا يريد .. الحقيقة التى أذكرها الآن أن الرجل كان لطيفًا معى ولـم يحاول أن يفعل شيئًا مخلاً بى ، لكنه اتفق معى على أشـياء كثيرة أذكر منها أنه وعدنى بأن يعطينى نصـف ثروتـه ، بشرط أن أكسر كل الحواجز بينى وبينه ، لأعتبره صديقًا ، وقال وهو يشد على يدى : ـ صحيح أننـى رجـل مسـن ولكننى أعرف كيف أتفهم فتاة صغيرة مثلك جيدا . وخـرج

بعد أن وعدته بأن هذه الزيارة القصيرة إلى مخدعى سـوف تظل سرا بعيدا عن والدتى .. أذكر أنه طبع قبلة ساخنة على وجنتى جعلتنى مستيقظة حتى الصباح .. إنها المرة الأولـى فى حياتى التى أحس فيها بشفاه رجل فوق وجنتـى ، إنهـا المرة الأولى التى أحس فيها بخشونة شواربه وحرارة شفتيه منذ أن ودعت عهد الطفولة ، وتيقظتْ أحاسيس الأنوثة فى .

استلقيت على فراشى فى سكرة مسيطرة لأسـترجع شريط حياتى ، وتذكرت كم كنت أتمنى أن يحدث شىء مـا أعمق وأكبر من القبلات ، وأنا صغيرة لم أنضج بعـد ، إلا أننى أعرف جيدا ماذا أريد الآن ، وأعرف جيدا ماذا يريـد هذا الرجل منى .. ولكن كيف .. ؟ هل يمكن لفتاة أن تخون أمها مع زوجها ، بعد أن تضحى بعرضها .. كيف سـتكون الصدمة على والدتى عندما تعلم ؟ عنـدما تكتشـف خيانـة زوجها وابنتها معا ، لابد أنها ستكون نهايتها .. بالطبع لـم أكن أتمنى أن يحدث هذا ، لكننى لم أخبرها بما تم بينى وبين زوجها ، أو بالأحرى لم أستطع أن أقول لها ذلك ، وأقنعـت نفسى أن ما حدث شىء لا يسـتحق منـى هـذا الاهتمـام خصوصا وأن الرجل بعدها ظل أسبوعا كاملاً لم يكرر فعلته

ثانية حتى تناسيت ما حدث تماما ، لكنى كنت أعرف تمامـا فى قرارة نفسى أن الرجل سوف يحاول أن يختلى بى مـرة أخرى ، وكنت دائمة التفكير : كيف سأتصرف لو حاول أن يمس عذريتى ؟ .

فى كل يوم كان الرجل يحضر إلـى المنـزل كـان يأتينى معه بهدية ، ويعطينى إياها أمام والدتى قائلاً : خذى هذه ، فأنت مثل ابنتى التى لم أرزق بها .

لقد حضر الرجل مرة أخرى إلى مخدعى ، كانـت ليلة هادئة ، قال لى فيها كلمات حب كثيرة نظرت فى عينيه فرأيت علامات التعجب تملؤها ، وهيامه بى قـد زاد عـن احتماله ، لقد أثار شفقتى عليه بقدر ما أثار غرورى ، فهـل أنا حقا كما قال ..؟ هل أنا حقـا أطـيش بـأروع العقـول بروعتى وجمالى ودلالى ؟ هل أنا حقا بهذا الحسن ، وأننـى مثيرة وشهية فعلاً ؟ .. كل كلمات الرجل جعلتنى أعيد النظر إلى نفسى من جديد ، أذكر يومها أنه بعد أن تركنى ألقيـت كل ملابسى بعيدا عن جسدى ، ووقفت أمام المـرآة عاريـة تماما أفتش جسدى ، وأتفحصه لأرى كم أنا جميلة ، أذكـر أنه فى تلك الليلة أجلسنى أمامه وظل ينظر فى عينى طويلاً

، وكأنه يقرأ فيهما رسالة من عالم الغيب ، لكنى لم أتحرك ، وتركته ينظر فيهما كما يشاء .. أدركت أن الرجـل مفتـون بعينى جدا ، أخيرا احتضننى بشدة ، وتشابكت أيادينـا فـى عناق طويل ، لكنه لم يفعل أكثر من ذلك ، لقد كانـت تلـك الليلة هى نقطة تحول واضحة فى حياتى ، لقد أقفلت علـى ضميرى أبوابا كثيرة ، وأيقظت فى نفسى كوامن نزواتهـا ، ولم أعد أجهد نفسى فى خلق المبررات ؛ فقد أصبح كل شىء بالنسبة لى هينًا ، فالرجل لا يحتاج منى أكثر من أحضـانى الدافئة ، ولحظات صافية ليقضيها معى وهو ينظر فى عينى ، فى الوقت الذى أشعر فيه أنا بأننى أحتاج منه كل شـىء ، ولقد عوضنى عن أشياء كثيرة كنت أفتقدها ، لقد أشـعرنى بأنوثتى وجمالى ، لقد فتح لى كلتا ذراعيه ، واسـتقبلته أنـا بذراعين مفتوحتين أيضا .

صحيح أنه زوج أمى ولكنى أحتاج إليه أكثر منها ، بالطبع لم أكن أحتاجه هو بعينه ، ولكنى أحتاج إلى أى رجل ، لقد سئمت الحياة خلف جدران مصمتة ، لقد سئمت الخيال والأوهام ، أكاد أنسى أن خلف هذه الجدران عالمـا آخـر، عالما يئن بعلاقاته المتشابكة .. لعلنى لم أكن ظالمـة ، ولـم

أكن جانية ، فأنا حتى تلك اللحظة لم أكن قد تكلمت مع شاب واحد حتى لمجرد التعارف ، إنها مأساتى ، التى لم أجد لهـا مخرجا سوى دقات قلب هذا الرجل العجوز الذى يحمل قلبـا كأنه قلب عصفور صغير .

لا أنكر أننى تعودت علـى لقائـه حتـى إن تـأخر انتظرته على قلق ، وإن حضر هممـت إلـى لقائـه ، لقـد أعطانى الرجل كل شىء ، وأعطيته أنا الحنان والاهتمـام ، كأن كل شىء حلمت به قد تحقق ، فقد أعطانى الرجل نصف ثروته أموالاً سائلة وضعها باسمى فى البنك ، ولعله لم يكـن أحمقًا فى تصرفه هذا ؛ فما أعطيه له ليس بالهين إذا وضعنا فى الاعتبار أننى ما زلت عذراء تعبث بشـرفها ، وتخـون أمها ونفسها ، غير أنى لم أكن أنظر إلى هذا المقابل المادى فى بداية الأمر لولا أنه هو الذى فتح شهيتى على أموالـه .. هكذا بين يوم وليلة أصبحت صاحبة رصيد كبير فى البنك ، ودفتر للشيكات فى جيبى . خطر فى ذهنى يوما أن أتحـدث إلى والدتى التى لا تدرى شيئًا عما يدور بينى وبين زوجهـا ولا تدرى شيئًا عن هذه الأموال التى وضعت باسـمى فـى البنك .

خطر فى ذهنى أن أطلب منها ثمن بيتنا الذى بعنـاه فى السابق ، واختمرت الفكرة فى ذهنى؛ لقد تملكنـى حـب الثراء .. فاتحتها فى هذا الأمر فلم تمانع .. وافقت بلا تردد بعد أن أكدت لها أننى سوف أحتفظ بكل تلك الأمـوال فـى البنك باسمى ؛ حتى أؤمن لنفسى حياة بعيدة عن عتبات الفقر اللعين .

فى اليوم التالى ذهبت إلى البنك وأضـفت رصـيدا جديدا إلى رصيدى .. لقد تحقق حلم من أحلامى وأصبحت ثرية دون أن تكلفنى الأيام عناء أو مشقة . وحلمت برجـل يهتم بى وقد تحقق أيضا لكننى كنت أشعر بهواجس مخيفـة تؤرق مضجعى حول تلك العلاقة الشـائكة التـى لا تجلـب السعادة إلا مصحوبة بالألم ووخز الضمير ؛ لهذا كنت أحتاج فى تلك الفترة إلى رجل يتصرف معى كزوجـة لا كدميـة جميلة يلهو بها .. كنت أحتاج إلى رجل أى رجل ، لم أكـن أحلم برجلٍ معين له مواصفات خاصة ، كل ما كنت أطلبـه ارتباط برجل يتصرف معى بشرعية كزوجة .. لقـد كـان الرجل حريصا على عذريتى ، ولم يتصرف معى بحماقة أبدا .. كان فى كل مرة يأتى فيها إلى مخدعى يكتفى بأن أكشف

له عن جسدى ليمطره بالقبلات ، ومرات كثيرة كان يرتمـى بجوارى بعد أن يطوقنى بذراعيه ؛ ليتأمل فى عينى كثيرا .. لم أدفعه أنا لأن يفعل أكثر من هذا وقد كنت حريصة علـى عذريتى ، لكنى عانيت كثيرا من رغباتى المشبوبة فـى أن أتخطى جدار عذريتى .

ذات ليلة وقع المحظور ، فبعد أن هيأتُ نفسى للقائه حضر كعادته فى منتصف الليل ، لم يكن مجهـدا كعادتـه ، لكنه كان فى حالة غير عادية قرأت فى عينيه رغبة غريبة ، غير عادية .. لم يتكلم كعادته ، ولم يهمس أيضا ، فقط أمسك بذراعى بقوة مرتعشة وطوقنى بذراعيه ، كل تصرفاته كانت تقول إنه ينوى فعل شىء غير عادى .. لأول مرة منـذ أن تعودت على لقائه فى حجرتى أشعر بالخوف ؛ فدفعته بعيـدا عنى وهممت إلى ارتداء ملابسى ، لكنه تركنى .. لم يقـاوم نفورى .. خرج من الغرفة بعد أن همس فى أذنى : سـأعود إليك بعد قليل لكى أعطيك بعضا من الوقت تعودين فيه إلـى هدوئك .

فى الحقيقة كنت أريد منـه أن يعـاملنى كـامرأة ناضجة ، ولكنى كنت أخشى الكثير .. كل مشاعرى متجهـة

نحو الخوف لكنى لا أستطيع أن أسبح ضد التيار .. تركنـى الرجل لكى أهدأ ، فهدأت بالفعل .. أقنعت نفسى بأن الدنيا لن تنقلب لو عاشرنى كامرأة ، ولابد أن ألقى الحياء بعيدا ن ولا بد أن أودع عذريتى والقبل المقطوعة بالخوف والحرمان .. وعندما حضر كنت على شوق كبير لآن أجرب حياة ما بعد العذرية .. لكنى كنت متأكدة أن الرجل يسلبنى شيأ عزيزاً ، وكنت أعرف أيضاً أننى فريسته ، وأنني ضحيته أيضاً ومع ذلك لم أدع نفسى تسترسل فى رفضها الجاحد ، واستسـلمت له برقه وانصياع ، حتى تملكتنى الرغبة لكى أنطلـق مـع نفسى لما تريد ، ولم أدرى بشىء سوى أننى أضغط وأضغط بشده ، حتى انطلقت منى صيحة مدوية ، اسـتيقظت علـى أثرها والدتى من نومها العميق وهرعت إلى غرفتـى علـى عجل لتجدنى لا أزال متورطة معه فى فعلتى المشؤومة .

صرخت أمى لِما رأته من مشهد لم تكن تتصور أبداً أن تراه ، إنها تثق فى نزاهة أخلاقى ثقة عمياء .. وتعـرف مدى حرصى على عرضا وسمعتى .. لسـت أدرى حتـى الآن .. هل أنا حقاً أم مخطئة ؟ أم أن ما حدث كـان نتيجـة حتمية لكل ظروف حياتى التى حدثتكم عنها ؟. لم أستطع بعد

هذه الحادثة أن أواجه أمى ، أو أنظرفى وجهها . ولم تمضى ساعات معدودة بعد أن رأتنى فى هذا المنظر حتى تسـللت إلى خارج المنزل وتركتها غارقة فى دموعها .. لقد خرجت من المنزل دون أن يرانى أحد .. وإن كان أهون عنـدى أن أشغل النار فى جسدى لاحترق أو ألقى بنفسى مـن النافـذة حتى أموت .. للآن ورغم تقدم هذه الحادثة إلا إننى نادمة ، وكم تمنيت أن تعود بى الأيام مرة أخرى حتى أنتحر بالفعل بدلاً من أن أترك والدتى فى بحـر دموعهـا وحسـرتها ، لأضيف إلى همومها هما أخر .. لست أدرى كيف عاشـت بعد أن تركتها وكيف عاش معها زوجها ؟ يقينى أنها ماتـت من الحسرة بعد أن أعماها البكاء .

خرجت من المنزل حافية القدمين أرتـدى قميصـاً بطول جسدى ، كان يلتصق بجلدى لكثرة العرق المتصبب ، لا أعرف لى وجهةً ولا أدرى إلى أى طريق أتجه ، وكلـى خوف من المجهول القادم .

إنها المرة الأولى أجد نفسى خارج المنزل بلا أدنـى دافع للعودة مرة أخرى ، شىء واحد كنت أحتضـنه بشـدة وكلما لفنى الظلام وتعثرت قدماى .. كانت أوراق البنك فـى

قبضتى ، متحيرة أين أدسها ، إلا أن وضعتها فى صدرى ، واتجهت إلى حيث لا أدرى الاتجاه .

* * * * * * *

كم أود أن اختصر الأحداث ، فجروح الماضي أعمق من جروح الحاضر لكأنى ولدت لكي أتعذب ؟! أو كأن الحياة هى العزاب نفسه ؟! وجدت نفسى بين يوم وليلة أعيش فـى ذلك الفندق الكبير . بملهاه السـاحر ، وزهـوره الناعمـة ، بأضوائه الخافتة ، مع نجـوم الفـن ، وذوات المخمليـات ، ورجال الأعمال .

كانت الليلة الأولى عندما رأيت الجميـع يتحركـون حولى فى هرج .. انتظرت قليلاً حتـى هـدأت حـركتهم ، ورحت أتجول فى هدوء ، حتى رآنى أحد العاملين بالفنـدق فأشار إلى أن أتبعه ، وهناك فى آخر الممر الواسع أشار إلى صالة العرض ..

الأضواء خافتة .. حمراء وصفراء وخضـراء .. جو مصطنع لكن مثير .. الجميع حالمون رغـم يقظـتهم .. غنج النساء ، صيحاتهم ، وضحكاتهم السـاهية ، أجسـادهم

العارية .. الكل متجردون ، ما أحلى التجرد خلف جـدران مقفلة .. نسيت حقيقتى ، ورحت أتجول بين الحضور وهناك خلف الجميع جلست لأحلم .. كم تمنيـت أن أعـيش بقيـة عمرى فى هذا الجو العابث الحالم ، دون آن يوقظنى الواقع الأليم .

الراقصة ترتعش بجسدها فـى خلاعـة .. المغنـى يغازلها بكلمات عارية .. تضحك هى .. تتمايل .. يأتى أحد السكارى فيصعد نحوها ، يضع على صدرها عقداً من أوراق البنكنوت .. تتمايل وترتعش ، ثم تتوارى خلـف السـتائر ، فجأة تتغير الأضواء ، ثم تخفت وتنطلق الموسيقى الحالمة .. الجميع على عجل يتأبطون بعضهم الـبعض ، يتراقصـون بميوعة ، وتنساب العشيقة الغانية بين أحضان عشيقها لتحكى له أنشودة الجسد المستعر .

كل شىء فى هذا المكان يستهوينى .. يسلبنى إرادتى ، يأخذ عقلى .. الجميع هنا يعيشـون كمـا يحلـو لهـم .. الضمائر موصدة ، والعقول سكرى .. القانون هنا هو : " لا تنم وأغتنم ملذة يوم ، إن تحت التراب نومـا طـويلاً " ، لا تسمع كلمات تقرع الضمير ، ولا تسمع عن كلمات الشـرف

والعفة والطهارة .. الحياة هنا التجرد .. من كل شىء .. من الحياء أولاً ، والحياة فى النهاية .. الهـدف والغايـة همـا الارتعاشات المجنونة والسكرة المثملة ، والرقصة الحالمة .. لا أحد يفكر فى المكسب أو الخسارة .. الغفلة والتجرد همـا الوسيلة ولا أحد يفكر فى الضريبة ، لا يهتم أحد بسـمعته .. فهو فى مأمن من السمع والإدراك .. الطهارة عندهم شـىء دنس ، والعفة عندهم التزام مميت ، الشرف كلمة نسبية بـلا معنى واضح .

فى الحقيقة كنت أحتاج يومها لمثل هـذا الطقـس ، وهذه النوعية من الحياة لأخرج من دائرة الكبت المميـت ، والحيرة الموغلة فى نفسى منذ أن خرجت من المنزل وكلى أسف وندم واحتقار ومهانة .

تساءلت : ـ لماذا لا أتجرد مثلهم ؟ .. ما أحلـى التجرد !! .. لماذا لا أخلع ثوب الضمير لأرتاح من تقريعه ، لماذا لا أسكر ؟ .. لابد أن أزيح ذلك الكابوس عن نفسى .. كلما تذكرت أمى أحسست أن شيئاً ما يختفـى ويجسـم فـوق صدرى .. وأخيراً قررت أن أعب من الخمور ، رغم إننـى لا أعرف تأثيرها ، ولم أجربها من قبل ، لكنى أعرف أنهـا

تغيب العقل ، وتوقف التفكير .. تمنيت أن أرحل مع الخمور نحو غيبوبة تامة بعيداً عن الواقع المفزع الذى يطـل علـى كلما تذكرت أن خلف هذا الجدران شارع يمن بحياة أخـرى .ز حياة صلبة، مفزعة ، مليئة بالأشواك والصراع والمعاناة مع الشرف والأخلاق والسمعة والطهارة وكل شـىء خلـف هذه الجدران يؤرقنى ، ويذكرنى أنى مخطئـة وأن والـدتى تتعذب ، وأننى عابثة مذنبة.

ما أحلى لأن أنسى هذا الواقع المفزع .. ما أحلى أن أعيش هنا بلا نهار ولا نوم .. أعيش كما أنا أعيش الآن مع الهمس والحلم والموسيقى والتجرد والزجاجة .. امتدت يدى نحو الكأس وكان ما كان .. لم أدر ما حدث ، لكننى أتـذكر جيدا أننى انتقلت فجأة من ليل صاخب إلى نهار صامت بـلا حس . عندما فتحت عينى وجدت نفسى فوق الفـراش فـى حجرتى وبنفس الملابس .. ماذا حدث .. لا أدرى .. ؟ لابد أننى غبت عن الوعى ليلة أمس .

كل شىء كان خدعة .. وكأن الحقيقة تكمـن فـى جدران الكهف الذى يتوارى فيه الإنسان عنها .. كل شـىء يختلف هنا .. الخدم ينتشرون فى كل الأرجاء رهن الإشارة

.. الهواء المكيف .. الزهور .. نباتات الظل .. الابتسـامات المرتسمة على الوجوه .. الهدوء الحالم .. كم تمنيت أن آتى إلى هنا وأنا على غير حالتى هذه .. إننى أتيـت إلـى هنـا هاربة .. أتيت لكى أتوارى عن أعين أمى .. عن الجـدران التى تذكرنى بالخطيئة .. عندما أخلد إلى نفسى لأهدأ قلـيلا أهمس مع نفسى : ـ ـ أنا لست مخطئة .. إننى راضية عما فعلت ، وكنت أتمناه .. وأتمنى أن يدوم .. إن حياتى لم يكن لها معنى غير أن يحدث ما حدث ، بيد أنى كنت أتمنـى أن يظل سرا ، لقد كانت حياتى قلقة ، أعـيش علـى أمـل ألا ينفضح أمرى .. حياة ليس فيها سوى التمنى ، وذلـك سـر قسوتها .. لا شك أن الحياة هنا خلف جدران هـذا الفنـدق تختلف كثيرا .. الحياة هنا مفضـوحة بطبيعتهـا .. سـرية العلاقات مبعث للشكوك ، التخفى والتستر مبعث للقلق وقتل للحرية ، لكن الحياة هنا ليست للهاربين مثلى ، الـذين أتـوا ومعهم الضمير المتهيج ، والخوف من المجهـول .. إننـى أختلف عن الجميع ، ربما لأننى لم آتى إلى هنا هاربة فقط ، بل أتيت مرغمة ، ولم أكن أضع فى ذهنى سـوى التخفـى والهروب ؛ لذلك كانت حياتى فى الفندق مزيدا من المعاناة ،

لقد فشلت الخمور فى انتشالى من الهموم ، وشىء ما يخنقنى كلما تذكرت والدتى والمنزل وزوج أمى وحياتى كلها التى لا أعرف لها بداية من نهاية ، لم أكن أفكر فى المسـتقبل ولـم أستطع أن أوقف التفكير فيما لا أعـرف... ومـاذا بعـد أن أوقفه ؟ لابد أننى سأحتاج إلية يوماً وازدادت عندى نوبـات الاختناق ، وكان لابد من طبيب ... الأوامر هنـا مجابـه ، والخدمة سريعة ... الجميع رهن الإشارة ، طالما أن هنـاك شيكات توقع . كل النمط الحياتى هنا يختلف ، ويفرض نفسه أيضا .. لابد من الوجاهة ، والبرستيج والتحرر .. لابد مـن الانسياب مع النظام فى أوقات معينة .. والتجرد مـن كـل التقاليد وكل الأنظمة فى أوقات أخرى .. لابـد أن يحسـب الإنسان ألف حساب لكل حركة وإشارة وكل كلمة أو همسـة حتى لا ينتقده الآخرون أو يتهمونه بما لا يحلو لهم من أنواع الاتهام المشين ، أننى أحس هنا أننى افتقدت كل هذا .. فلـم أتعود على مثل هذه الحياة التى تفـرض علـى أن أتتنـاول طعامي فى حذر ، وأن أتناوله بقدر ، ةأن أتجنـب صـليل الملاعق والأشواك .. حياة مخطية لكنها تثير القلق .. يقتلنى التعقيد المميت أحيانا ، وأحيانا يقتلنى التحرر والتجرد الزائد

، ويشعرنى أننى لست آدمية تعيش حياة غير حياة البشـر . أرفض هذا وذاك عندما أكون على موعـد مـع الـذكريات القاتمة للماضى الثقيل الذى يزيد من ثقله تفاهة الحاضـر ، وتخفى المستقبل .

الصداع لايفارقنى ، والاختناق يزداد ، والقلب يخفق بشـدة حتـى وجهـي أصـبح شـاحبا مصـفرا والنوم ودعنى بلا إذن ، وفى المساء أحضروا لى الطبيب ، سألني : - هل أنت حامل ...؟

- .... (لم أجبه) سؤال مفاجئ لم أتوقعه من قبل ، ولم أجرب الحمل من قبل ... أنها كارثة أخرى تهددنى .
- لا بأس تبدو أعراض الحمل واضحة ، ولكن ....

لم أدع الطبيب يكمل .. صـرخت فـى اسـتغاثة ، وامتلأت عيناى بالدموع .. لا أحد يعرف لماذا أصيح .. أنا فقط التى تدرك بأن طفل الخطيئة فى الطريق إلى الوجـود ، ولم أعطِ الطبيب فرصة للحديث معى ؛ فاتجـه نحـو أحـد الواقفين ليسأله :

– مما تشكو هذه المرأة ؟

آه .. لقد أصبحت امرأة ، والجميع يعرفون ذلك الآن .. أنا الوحيدة التى لا تستطيع أن تستسلم لهـذه الكلمـة ذات الوقع المفزع .

أجابه : ـ الاختناق .. التقيؤ .. الأرق الدائم .. حتى الطعام ترفضه .

اتجه الطبيب إلى يهدئ من ثورتى .. وضع السماعة فوق صدرى وأكمل الكشف .. وأخيـرا كتـب الوصـفة : أقراص مهدئة ، ونصحنى بالخلود إلـى الراحـة والسـكينة والكف عن التفكير العميق .. بالطبع لم تكن هذه آخر مـرة يأتى فيها الطبيب بل كانت الأولى ، تكرر بعـدها حضـوره لنحو ثلاثة أشهر أخرى ، حتى يئست من الشفاء وحال بينى وبينه ذلك الخوف الذى يطل على مع دقات الساعة .

الطبيب يئس هو الآخر من عدم استجابتى للعـلاج ، وقرر إحالتى إلى مستشفى الطب النفسـى، وكتـب ورقـة صغيرة يصف فيها الحالة ويوصى بالجنين .

* * * * * * *

يتومج ضوء المصباح فى عينى .. رغبة ملحة فـى الدخول فى غيبوبة تامة .. وفى محاولة للهروب من الحيـاة توقظنى صيحات المجنونات والمجذوبات حولى .. صرخات تدوى أحيانًا وأحيانًا يتراقص الجميع فى غبطة ، إنها الحقـن تتحكم فى أمزجة هؤلاء .. بالطبع لم أكن مجنونة ، لكننـى كنت أحتاج العلاج .. هواجسى المسيطرة ومزاجى المتهيج ، وأعصابى المتوترة .. كل ذلك دفع بى إلى هذا المكان .

لابأس لابد أن أتجنن ، ولابد أن أستمر فى البقاء هنا .. أنا مجنونة .. هكذا خطر لى : لابد أن أتخلص من الطفل .. بالطبع سوف يودعونه فى الملجأ ؛ لأن أمـه مجنونـة ، وأبوه مجهول .. تماديت فى جنونى الكاذب ، وبـين الحـين والآخر أتحين الفرصة لأطلق صرخاتى المدوية كما تفعـل الباقيات ، حتى الممرضات وفى أياديهن الإبـر المهدئـة ، وينام الجميع وفى الصباح تنطلق الصيحات من جديد ومن ثم تعود الإبر من جديد لتنغرس فى أجسـادهن . مـا أروع أن أعيش فى جنون .. المجانين هم السعداء ، ما أقسى الأطبـاء عندما يحاولون إعادتهم إلى الواقع الصـلب مـن جديـد ، ليوقفوهم على عتبات الإدراك من جديد .. أتمنـى أن أفقـد

عقلى ؛ ليهدأ تفكيرى ، ويرتاح ضميرى ويكف عن التقريع ، ولكن ليس بإرادتى ، ولابد أن أعيش بين اليأس والرجاء بين المعقول واللا معقول ... المهم أن أستمر ..

نظر إلى الطبيب بتفحص ثم سألنى :

- ما أسمك .. ؟
- ...... (لم أجبه)
- هل أنت خجلة من أسمك ؟
- .... (لم أجبه) ونظرت إليه بعينين مبهورتين ، وكأنما لا أدرى السؤال أو الإجابة ، لكنه تابع تساؤله :
- ما هذا الذى فى بطنك (ووضع إصبعه فوق بطنى) .
- إنه ولد .
- وكيف عرفت إنه ولد .
- لأنى رأيت شواربه بالأمس ..
- هل تكلم معك ؟
- نعم.
- ماذا قال..

لم أستطع أن أكمل التمثيلية لأنه كان يلح فى طلـب الإجابة وكأنه يبحث خلف كلماتى عن معان خفيه ، وأخيـراً ابتسم لى ابتسامة لم أفهمها ، لكنها تنم عن سر ما ..

فى صباح اليوم التالى دخلت اثنتان من الممرضـات واقتادتانى إلى غرفة التحليل .. الحجرة شبه مظلمة .. هدوء تام وفراش وثير ، وإبرة فى الفخذ ، واستلقيت على ظهـرى وتركتانى وحيده ، وأوصدتا الباب دونى .. خفت من الظلام وتملكنى الفزع ؛ فصحت بأعلى صوتى : ـ إنى خائفة .

فُتِح الباب ، دخل الطبيب .. هدأنى بكلمات ناعمـة وأمرنى أن أنام على السرير فى استرخاء تام ووضع شيئًا ما بجوار رأسى كأنه جهاز تسجيل ، وضغط على أزرار فـى الحائط المقابل ، لم أكن أفهم ما يدور حولى ، شعرت بـأننى بأمان تام ، وكانت لحظة أشبه بالإغفاءة . كنت أتكلـم فـى يقظة تامة لكن بلا إرادة لأعترف بكل شىء ،، لقد سـردت حياتى كاملة بلا كذب أو تضليل، بعدها أغمضت عينى فـى ثبات عميق . وعندما استيقظت اصطحبتنى الممرضة إلـى عيادة الكشف الباطنى هناك حيث الكشف الدقيق على جميـع أجزاء الجسد .. تكلمت بصـراحة عـن كـل أوجـاعى ..

وأخبرت الطبيب بكل شىء . وفى صباح اليوم التالى عرفت أنهم قرروا بقائى ثلاثة شهور فى المستشفى .

* * * * * * * *

- هل أنت مجنونة يا ..؟
- لا لست مجنونة .
- أنا أعرف ذلك .. ولكن لماذا ادعيت ذلك ؟
- أنا لم أدع .. بل كنت فعلاً كذلك .
- متى ..؟
- يوم دخولى إلى المستشفى .
- على العكس لقد كنت يومها أحسن حالاً ، كنت أعرف أنك تمثلين دور الجنون .
- ولماذا أمثل ؟

عندما قال الطبيب ذلك لم يكن أمامى سوى الاعتراف بكل شىء ، ولماذا أتمادى فى إدعائى وقد تخلصت من الطفل الآن ؟

- لا بأس ... فلنعتبرك صادقه بشرط أن تقولى لماذا ادعيت الجنون ؟ .

- دعنى أسألك أولا لماذا أتيتم بى إلى هنا طالما أننى لست مجنونة ؟
- لأنك كنت متوترة ... وتحتاجين إلى العلاج .
- ولماذا أبقيتمونى كل هذه الفترة الطويلة ؟
- لأنك كنت حامل .. ولابد أن تبقى تحت الملاحظة حتى الولادة .

لا أدرى كيف أتخلص من النقاش المحـرج لكنـى اقتنعت أخيرا بأن الطبيب دائما فى صالح المريض ، ولابـد من الاعتراف . فقلت بهدوء : ـ دعنى أعترف بكل شىء . وكانت المفاجأة عندما قال لى الطبيب : ـ إن طفلك يا مدام موجود عندنا .

صعقت ، وكدت أجن بالفعل .. كيف .. ؟ كـل مـا فعلته من تضليل وخداع وتمثيل حتى يلقوا بـه بعيـدا عـن وجهى أنا .. المجنونة .. والآن أفاجأ به مـا زال موجـودا بالمستشفى ، تساءلت :

كيف .. ؟

أجاب : ـ لأنه لا بد أن يبقـى بالمستشـفى لحـين خروجك من هنا .

– إذن طالما أنه موجود هنا دعنى أراه ، وأرضعه .
– لا ...لا يا مدام .. حالتك الصحية لا تسمح ، ثم .. إنه ليس هنا بالضبط ، إنه فى مستشفى خاص بالأطفال .
– إذن لماذا كل هذا الحوار يا دكتور .
– لأنى لا بد أن أعرف الحقيقة .
حقيقة ماذا ؟
– حقيقة الطفل .
– والآن بعد أن عرفتها ماذا تنوى ؟
– سنخطر والد الطفل

وتذكرت والد الطفل ، وتذكرت أمى والجيران والليلة المشئومة .. تذكرت كل هذا .. لابد أن هناك فضيحة .. لـم أدر ما جرى ، وقد دخلت فى إغماءة طويلة .

كانت لحظة هروب طويلة استمرت ثـلاث سـنوات متتالية ، لا أتذكر منها شيئًا ، وكأننى كنت فى سبات طويـل .. فترة عشتها بلا إدراك أو تذكر أو إحساس بالمأسـاة .. آه

ما أقسى العقل ! .. لقد قتلنى الأطباء مـرة أخـرى عنـدما أعادونى من جديد لأقف عند عتبات العقل والتذكر .

* * * * * * *

كل شىء تغير .. لست أدرى هل هى الأشياء تغيرت ، أم أنا التى تغيرت ؟ أربع سنوات منذ أن تركت الحى بـلا عودة .. أطفال ولدوا لا أعرفهم .. شبان يافعون وجـوههم غريبة عنى ، لقد كانوا أطفالاً يوم أن تركت الحى .. كانـت هناك وجوه شاحبة تتسكع تحت الجدران ، أتذكر بعضـها والبعض الأخر يبدو غريبا .

منزلنا نفسه يبدو قذرا .. كل شىء يذكرنى بـالمقبرة ، مسكينة أمى كيف تعيش هنا ..

خطوات قليلة نحو الباب .. كيف سألتقيك يا أمـى بعد كل ذلك الغياب ..

تردد رهيب يدفعنى إلى الرجوع ، لكن الشوق إلى رؤية وجهها يحطم كل الدوافع ..

قتلت الخوف .. وهمت نحو الباب ، لمحت أطفـالاً صغارا بالداخل .

- ماذا هناك .. هل أمى عندها أطفال .. من يا ترى ؟.. لابد من التريث قليلاً .

نظرات حثيثة نحو الداخل .. فتاة يافعة ، طفل يتمرد .. آخر يصيح .. الأم تجلس فى صحن الدار ، يبـدو أننـى أخطأت .. تراجعت دون أن يرانى أحد .

هناك على ناصية الطريق بقال ، كنت متخفية تحت ملائتى السوداء ؛ ومنديل صغير فوق رأسى كـأنى غريبـة تائهة فى الزحام .

سألته :- هل تعرف أصحاب هذا المنزل ..؟

- نعم إنه الأستاذ "سعيد " وكيل محامى ، حضر إلى هنا منذ عام تقريبا .
- لماذا تسألنى .. ؟
- لأنى أبحث عن شخص ما .. لكنى يبدو أننى أخطأت العنوان .
- من تكونين أنت ؟
- " فوزية " (كان لابد أن أختار أى أسم).
- أية فوزية ؟ .

- قريبة الأستاذ البرنس..
- الأستاذ البرنس . ؟
- نـ ـ ـ ـ ـعم
- ا يرحمه .
- مـ ـ ـ ـ ـ ـات ؟.
- نـ ـ ـ ـعم .
- كيف ...؟
- أنها قصه طويلة .
- لكننى حضرت لتوى من البلد وأريد أن أعرف .
- أية بـ ـ ـ ـ ـ ـلاد ؟.
- بلاد الأستاذ البرنس .. هل تعرفها ؟
- لا (حمدت ا أنه لا يعرفها)
- قتلته زوجته
- كـ ـ ـ ـ ـ ـ ـيف ..؟
- بالسم .
- وزوجته أين هى الآن ..؟
- فى السجن

ولم أستطع أن أتحمل المز يد .. أريـد أن أُطْلِـقَ صيحات الفزع .. أن أرحل حالاً .. وفى الطريـق أنفجـر بركان الدموع .. لقد قتلت أمى زوجها ، وتعـيش الآن فـى السجن .

– لماذا يا أمى .. ؟ ولكن ...

إنها ضحية هى الأخرى .. ضحية ظروف رسـمتها يد الأقدار بدقة منذ ميلادنا جميعا .. ولكن .. لا بد أن أبحث عنها .. هكذا قررت .. لا أستطيع أن أهنأ بعيش وهى خلف قضبان السجن .

ذهبت إلى مصلحة السجون .. أعطيتهم الاسـم .. بحثوا كثيرا فى دفاترهم ، فلم يعثروا على أثر لها .. لا بـد أنها خرجت .. بحثوا فى أسماء الذين خرجـوا منـذ أربـع سنوات وحتى تاريخ ذلك اليوم وهى الفترة التى غبتها بعيـدا عن أمى . وأخيرا جاء الرد .. لقد ماتت أمى .. ماتت أمـى .. ولكن كيف ..؟

الإجابة فى يد المستشفى .. لا بـد أن اذهـب إلـى وزارة الصحة ، البحث فى الدفاتر شىء مضـنٍ .. وجـوه

الموظفين لا تعرف اللهفة والحيرة .. الكل مرتسمون فـوق المقاعد .. لا يتحركون إلا ببطء وأنا الصراعات تقتلنـى .. وآلاف الأسئلة تبحث عن جواب.

وكان لابد أن أهدأ قليلاً لأعاود البحث من جديد ، لقد ماتت أمى وانتهت .. كيف .. أين .. أين قبرهـا ومثواهـا الأخير ..؟؟ لابد أن أحتضن القبر .. وأحتضن التراب الذى يحوى جسدها ، وأقبله ، ولا بد أن أبكى ملء جفونى حتـى الاحتقان .. وكل شىء حولى يدعونى إلى البكـاء .. لكنـى أحتاج إلى غرفتى فى الفندق الكبير ؛ لأبكى خاف جدرانه .. شىء مضحك أن يخجل الإنسان من بكائه ولا يخجـل مـن عبثه وجنونه !! . إنه نفس الفندق الذى سكرت فيه ورقصت فيه وجننت فيه .. يجب أن أعود لأبكى فيه .

* * * * * * *

لقد ماتت أمى المسكينة .. ماتت بالسكتة .. توقـف قلبها فى لحظة احتجاج وتمرد .. عبـث الحيـاة لا تتحملـه المشاعر .. لقد قتلها اندفاعها وتهورها .. لا .. لا .. أنا التى قتلتها .. صرخت فى عمق الفـلاة .. لا أحـد يسـمعنى .. القبور المتناثرة فى صمت تحكى عن الإنسان الذى كـان ..

احتضنت القبر .. تذكرت أحضان أمى الدافئة التـى كنـت أتمرغ عليها فى صباى ، وسـرى فـى جسـدى دفؤهـا ، وتمرغت فى التراب فى محاولة للانـدثار بـين الثـرى .. إحساس بالانتهاء ينتابنى .. أتمنى المـوت الآن فـى هـذه اللحظة .. لكن الدموع المنهمرة من عينى تؤكد أننى سـوف أعيش .. الإنسان لا يبكى من الموت .. يبكى فقط من الحياة التى تقسو عليه .. رجعت إلى الفندق بعد أن احمرت عيناى من شدة البكاء .. تحسست رسالة أمـى تحـت الوسـادة .. ورحت أقرأها من جديد . " ابنتى الجبيبة : انتظرت كثيـرا عودتك لكى أقتلك كما قتلت زوجى .. ليس عقابا لكِ ، بـل لأنك لا تستحقين الحياة التى فهمتينها خطأ منذ البداية .. قـد أسامحك الآن ؛ لأنى راحلة عن دنيا غلظت على نفسى حتى مجتها ، ولا داعٍ لأن أبخل عليك بالتسامح فى لحظات الفراق الأبدية " . الرسالة تهزنى كلما قرأتها، والأحـزان ثقيلـة ، وأنا وحيدة فى هذه الدنيا .. الاستسلام قد يدمرنى .. أنـا لا أخشى الموت ، ولكنى أخشى الأحزان التى تسـتحيل معهـا الحياة .

وجدت نفسى مرة أخرى أقرر العلاج بـالخمور .. حتى وإن كانت الضريبة قرحة المعـدة .. واتجهـت نحـو اليسار .. الخمر داء وليس دواء ، ولكنه داء أخف من الدواء الذى أفتقده ، ولا بد أننى سأجده يوما ما .. أعيش الآن على هذا الأمل .. المهم أن أعيش .. ولماذا لا أعيش ..؟ قائمـة الطعام تُلصق كل صباح على الجدران .. بـرامج التسـلية أيضا ملصقة .. البار ملىء بالخمور ، فى المسـاء ترانـى راقصة تائهة ، مندثرة بين ضـجيج الحفـلات الحمـراء ، والموسيقى الصاخبة .. ترى ماذا ينقصنى .. أرانى أؤمن أن الحياة أن أعيش ، ولكن أجهل الناس يقول ذلـك .. الحيـاة شىء يختلف تماما ، فلو كانت المسألة أن أعيش لهان الأمر ؛ ولما شعرت أن هناك شيئًا ينقصنى .

أعرف ما ينقصنى ، أعرف أن العلاقات الاجتماعية والصداقة هما الحل ، ولكن كيف يكون شكل تلك العلاقـات فى هذا الفندق ؟

جارتى امرأة جميلة ، لكنها تخفى كل شـىء عـن نفسها كما تخفى عينيها تحت نظارتها الغامقة.. امـرأة فـى

الأربعين ، لا تبدى اهتماما لأحد .. تعيش مع زوجها .. هل هو زوجها

حقا ، أم .. ؟؟ .

فى المساء بينما كانت الموسيقى الحالمة تنبعث مـن حيث لأدرى ولا أدرى غمزت له بعينى، ابتسم هو وتبادلنـا النظرات ، كل شىء لا بد أن يكون سـريعا ، لا بـد مـن الرقص بين أحضان هذا الرجل .. ولماذا أقاوم ضد رغبتى ؟.. إن التجرد هوالعلاج الوحيد ، ولا بد أن أخلـع حيـاتى الماضية ، لا بد أن أتغير وأتشكل ؛ لأنسى كل شىء وأبـدأ من جديد ، فهل أنجح ؟ .

أضحك كثيرا الآن ، وأنا أسـمع كلمـة " أصـول الرقص " فهل للرقص أصول ؟ ! .. لقد كانت المرة الأولـى لى مع الرقص .. توقعت أن الرقص أمر صعب ، غير أنى تركت جسدى ينساب بين يديه ، وعشت مع الموسيقى بكـل جوا رحى ، إلا أنه التصق بى .. فكانت اهتزازات جسـدينا الملتصقين أشبه باهتزازات الفراش عندما يتمرغ عليه الجسد ، ومال هو نحو وجنتى ؛ ليقبلنى ، فكانـت حـرارة شـفتيه

تبعثان القشعريرة فى جسدى ، فهمست فى أذنه لماذا لا نلتقى فى فراش ؟ .

* * * * * * *

المرأة لا تعبأ كثيراً بتجاوز العلاقات الجسدية عندما تكون مجرد عشيقة ، فالعلاقة بينها وبين عشـيقها علاقـة اقتسام اللذة وليست اقتسام الحياة .. فهى تعرف منذ البدايـة أنها مجرد كأس يعب عشيقها منه الخمـر والعسـل ، وقـد يكسره فى النهاية ، عندما يشبع ولقد كنـت صـنفًا جديـدا بالنسبة له ، عليه أن يتذوق طعمه .. كـان يمـلأ غرفتـه بزجاجات العطور ، وعينـات العطـارة ، وبعـض أدوات "المكياج " استعدادا للسفر .

إنه رجل أعمال أنيق .. يحمل أكياس المـال كأنهـا أكياس تبغ ومحار .. العالم عنده مدينة صغيرة ، مطـارات العالم كلها لا يفصله عنها سوى عامل الـزمن فقـط .. لـم يتزوج بعد وكأنه لا يحب شريعة العلاقات ، الحيـاة عنـده صفقات ، صفقة هنا ، وصـفقة هنـاك ، احتمـال الـربح والخسارة أمر وارد فى العلاقات التجارية ، وعنده أيضا فى العلاقات النسائية ، فالمرأة بالنسبة له صفقة جسد ، قد يكسبها

اليوم ، وقد يخسرها غدا ، وعندما يأتى الغد يأتى بعلاقاته ، وصفقاته وما يخسره اليوم قد يكسبه فى الغد ، كنت أعـرف أن علاقتنا لن تدوم ، لكنى كنت أحتاج إليه كثيرا فـى ذلـك الوقت .. ولماذا لا أنتفع برجولته وثرائـه معـاً ..؟ وإنهـا الفرصة لأرى فيها العالم يترنح تحت قدمى .

وكأن عشيقته السابقة لم تتعرف عليه بعد ، نظـرت إليه وهو يطوقنى بذراعية نحو الداخل نظرة عتـاب لكنهـا تصنعت الكبرياء واللامبـالاة وكتمـت أنفـاس شـيطانها ، ولملمت بقايا ثيابها واتجهت صوب غرفتها التى تفتح علـى صالة مشتركة مع غرفته ، وأغلقت البـاب دونهـا ، وفـى الصباح كانت قصاصة صغيرة ملقاة فوق الطاولة الصغيرة ، كُتِب فيها : - " لكأنى كنت عبقرية .. لقد توقعت ذلك يـوم عرفتك ، لكن عزائى الوحيد أنها سوف تترك نفس الكلمـات فوق قصاصة مثل هذه يوما ما، ولكن يجب أن تعرف أننـى لم أخسر كثيرا بفقدك ؛ فأنت مجرد رجل يحمل قلبـه فـوق شفتيه ؛ ليلقيه فوق أجساد النساء طالما يقبلهن ، وعندما يكف عن التقبيل يحمل قلبه راحلاً نحو أرض جديدة " قرأها ونكس

رأسه ، ثم ما لبث أن مط شفتيه باستغراب وكأنـه يريـد أن يقول لماذا تلومنى هذه الوقحة ؟!

نظرت إليه والنوم ما يزال بعينى وسألته :

كيف التقيتما ؟

فأجاب ببساطة متناهية:

فى شط العراة بمدينة " كان " بفرنسا .

فتابعت التساؤل :

وكم قضيتما معا ؟

شهرين ...

هنا أحسست بالخطر الذى يهددنى ؛ فإذا مـا كنـت كسابقتى سوف أغادر أحضانه بعد شهرين فلن أجنـى مـن ثروته شيئًا لهذا كان لابد أن أجد لنفسى الحيلـة ، حتـى لا يكسر كأسى سريعا

.. الفقر شىء مدمر ، وإذا بقيت هكذا بلا كسب فلا شك أننى ملاقيته يوما ما ٠٠ وإن كنت امتلـك الآن بعـض المال ؛ فهى أموال بلا حركة ومصيرها إلى زوال ٠٠ وقتها

لن أجد سوى أحضان الطرقـات ونظـرات المتسـكعين ، أحسست بالخطر مرة أخرى ، فوضعت يدى سـريعاً فـوق وجهه أتتحسس خشونته ، وألتمس من عينيه الرضا .

مضى اليوم سريعا ، حيث قضيته نائمة اسـتعدادا لسهرة جديدة قد يعتصر فيها جسدى ، وقد تتعثر فيها خطاى من الثمالة .

وكانت ليلتى الأولى معه .. لم يتحسس جسدى كمـا يفعل بقية الرجال ، ولم ينظر فى عينى .. كأنى لست أنثـى أو لكأنه ليس رجلاً ، لست أدرى لماذا تركنى وآثر الخلـود إلى نوم عميق. أسلوب لادراية لى به ، يذكرنى بالماضى .. بزوج أمى الذى لم يكن يعاملنى كامرأة ، واكتفى أن يلهو بى كدمية جميله ناعمة . ورغم ذلك أحس بالرهبـة ، وأخشـى اللقاء الجسدى معه بقدر لهفتى إليه ، وكأنى عروس فى ليلة الزفاف .. شبح الماضى يطاردنى ، وخطاب أمـى مـازال عالقًا بذهنى ، ولكن الانتقال من الاستقامة إلى الانحـراف شىء ، والانتقال من الانحراف إلى انحراف أشد شىء آخر.

لقد فقدت عذريتى وفقدت معها كل شـىء .. ولأول مرة يومها أدرك أن أولئك الذين يربطون شرف الفتـاة فـى

غشاء بكارتها على حق .. وأن امرأة مثلى امرأة لا تُحاسب ؛ ربما لأنها تسير فى طريق لا يعرف الحساب .

وإذا كان للتجرد بداية فإنى أذكر ليلتى الثانية معـه .. يومها خلعت كل براقع الحياء والضمير وتبرقعت بالنشوة والسكرة، ونسيت العالم. أتذكر أنه همس فى أذنى يومها وهو يداعبها بأطراف أصابعه :

ـ إنك شهية كالعسل ، ورائعة كزهرة الفل ودافئـة كشرنقة الحرير .

كلمات هادئة حالمة من رجل يجيد الكلام .. ويجيـد الغزل ، كل شىء فيه يدعونى لأن أقـول لـه صـراحة .. وهبت لك نفسى ، لكننى اكتفيت بأن ألتصقَ به حتى الصباح ، أنها ليلة دافئة قضيتها بين أحضانه.

وكان اليوم الرابع على لقائى معـه عنـدما تلقـى " مكالمة " من باريس تدعوه للحضور بأسرع ما يمكـن ، لأن الصفقة على وشك أن تتم.

انتظرت أن يحدثنى عن خطواته المقبلة لكنه لم يذكر شيئًا ، وكأنه لم يتلق تلـك المكالمـة . فتملكتنـى الهمـوم

والوساوس حتى أتى الصباح الجديد فاتصل بـإدارة الفنـدق لحجز تذاكر الطيران . وكانت فرحتى لا تُحد عندما أمرنـى بأن أعد حقائبى استعدادا للسفر ، وكانـت قبلـة طويلـة ، احتضن فيها شفتى بشفتيه كأنها قطعة مـن الشـيكولاتة .. كانت المرة الأولى التى أرى فيها المطار .. عندما ركبـت الطائرة أحسست أن العمر يبدأ فعلاً لحظـة الصـعود إلـى الطائرة ، وعندما وصلنا إلى باريس تساءلت عن الجنة التى نتحدث عنها كثيرا ، وهل ستكون أجمل من باريس ؟

شاطئ الريفيرا فى فرنسا ، شىء رائع ، خـلاب ، يجذب العقول ، إلا أن أشد ما يفسد تلك الجنة هى الأجسـاد العارية التى تتمرغ فى سكرة على الشطء . علـى الشـاطئ الجميع ملتحفون بأغطيتهم ، يعدون النجوم فى وجوم وسكون ، الفنادق مكدسة بالسياح والشط هو المأوى ، فهـذا شـاب يداعب نهد طائش ، وآخر يضاجع عشـيقته أمـام أنظـار الآخرين ، وذاك رجل بوليس يفتش فى أوراق رجل آخر .. على الشط جلست بجواره ، أطالع الدنيا الجديدة.

كل شىء جميل ، عابث ، وحالم فى الوقت نفسـه ، غير أن الأحلام كثيرا ما تتحول إلى كوابيس خانقة لا أعرف منها فكاكًا .

عشنا فى باريس حياة كلها متعة .. معارفه كثيـرة ، وأصدقاؤه بالمئات ، كان يقدمنى إليهم على إننى سـكرتيرته الخاصة .. إلا أننى كنت لا أجد نفسى أهلا لهذه المهنة التى تتطلب أول ما تتطلب معرفة لغة البلد الذى نقيم فيها .

ولم أكن أعرف شيئاً منها ، وهذا ما جعلنى أحتـاج إليه كاحتياجي إلى الهواء الذى أتنسمه . ولأنه رجل تـاجر فقد كان يقدر الحياة على أنها أخذ وعطاء مادى ومادى فقـط فكان يدرك أننى أعيش معه ليس لأجله ولكن لأجل أمواله ، لهذا جعل إقامتى معه بأجر ، وخلاعتى ومجـونى وعبثـى بأجر، ومن ثم أغدق على بأمواله .. أجر شـهرى كبيـر ، هدايا من كل ركن فى بـاريس ، إقـامتى علـى حسـابه ، ومصاريف خاصة كثيرة كان يدفعها عنى ، وفـى المقابـل كنت أوصد أنا ألف باب نحو ما يهتف فى نفسى من نـوازع العفة ، والحصانة ، والطهارة . لكن الأقدار كانت تترصدنى

فى كل خطواتى .. فلم تستمر إقامتى فى باريس أكثـر مـن ثلاثة شهور حتى كانت حادثة وفاته .

ذات يوم كان اجتماع للهيئـات الحزبيـة اللبنانيـة المتصارعة فى نفس الفندق الذى نقيم فيه ، حـدث انفجـار رهيب فى مبنى الفندق يبدو أن توقيت الانفجار لم يكن دقيقاً كما أراد مريدوه ، فقبل حضور المجتمعين بنصـف سـاعة انهار جناح كامل من الفنـدق تحـت تـأثير الانفجـار راح ضحيته عدد من المقيمين بالفندق كان من بينهم ذلك الرجـل الذى كنت أعيش معه.

حضر إلى مكان الانفجار جمع من رجال الصـحافة ومصوريها ، وبينما أنا أصرخ من شدة الهلع وأبحـث عـن جثته بين الأنقاض ، كان أحد المصورين يوجه نحوى عدسته .. لكن المنظر الذى كنت أراه كان يأخذ كل انتباهى ، كانت الجثة المهشمة التى وجدتها تأخذنى نحو عالم آخـر رهيـب مروع .

وفى صباح اليوم الجديد كانت صورتى علـى كـل الجرائد ، ويدى فوق جثة ذلك الرجل . وفى اليـوم التـالى حضر رجال البوليس ، واقتاد ونى إلى مخـافرهم وهنـاك

فتحوا محاضرهم ، وفى التحقيق قلت الحقيقة منذ أن تعرفت عليه وحتى مصرعه ، وبينما كانت الأحـداث تسـير فـى طريقها نحو السكينة كان يقف على مقربة من الحدث رجـل غامض ، يعيش معنا فى نفس الفندق ، يبدو أنه يعرف عنى الكثير ، يعرف عنى من أنا ولماذا أتيت إلى باريس ، ولماذا أغادرها الآن ، ظننت لأول وهلة أنه من معاونى البوليس ، أو أنه من الباحثين فى حادثة الانفجار فحاولت تجنبه ، ولـم يحظ منى بنظرات الاهتمام ، إلا أننى كنت أرتاب فى أمـره كثيرا ، أراه أكثر غموضا ، وأكثر قربا منى .

عندما ذهبت إلى حجرتى لأحزم حقـائبى اسـتعدادا لمغادرة باريس حضر هذا الرجل إلـى ، وسـألنى بعـض الأسئلة ، ولم أكن مستعدة للتعرف على أى شخص آخر قبل مغادرة باريس ، لكن هذا الرجل الغامض كان يسأل ليجيب ، ولم يكن يريد منى إجابة بقدر ما كان يريد أن يفْهمنـى أنـه يعرف عنى الكثير ، وأخيرا وضع فى يدى رقعة صغيرة من الورق كتب فيها رقم هاتفه الخاص ، وقال لـى وهـو يهـم بالانصراف : ـ قد تحتاجين لشخص مـا يسـاعدك علـى مغادرة باريس ، وانصرف بعد أن أخذ كل انتباهى .

قد يكون صديقًا لعشيقى الراحل ، قد يكون طرقًا فيما حدث من تفجير بالفندق ، قد يكون رئيسا لعصـابة تجنيـد النساء لأغراض خليعة ، أو ربما يكون عضوا فـى وحـدة مكافحة الإرهاب الدولية .. ربما ، وربما يكون رجلى فـى أيامى القادمة .. كل تلك الصراعات كانت تدور فى خَلَـدِى وأنا فى طريقى إلى المطار .

عندما وصلت إلى المطار كان فى انتظارى رجل آخر تصاحبه فتاة شقراء فى مقتبل عمرها، اقتربـت منـى وانفرجت أساريرها بابتسامة عريضة ، وقالت بصوت كلـه عذوبة : ـ مساء الخير .. يا بيرجيت .

قلت لها : ـ أنا لست بيرجيت .. أنا اسمى ....

ضحكتْ بصوت خفيض يكاد يكتم ضحكتها وقالت :
ـ ولكنك تشبهين بيرجيت إلى حد كبير. وأضافت تقول : ـ بيرجيت باردو .. لاشك أنك تعرفينهـا ، إنهـا أروع مـا صدرته فرنسا للعالم ، امرأة يحلم بها الرجال والنساء علـى السواء .. يحلم الرجال أن يروها ليمتعوا أنظارهم بحسنها ، ويحلم النساء أن يبلغن جمالها .. إنك تشبهينها إلى حد كبيـر .. نفس الوجنتين العسليتين ونفس الشفاه الممتلئـة بـالحمرة

والإثارة ، إنها أجمل ما فى وجهك ، ومدت يدها إلى إحـدى شفتى ، وتحسستها بأناملها كأنها تتحسس طراوتها واكتظاظها .. بالطبع كانت تريد من وراء كل ذلك إثـارتى .. أوعلـى الأقل كسر حدة صمتى وعزوفى عن الكلام ، ولكنى كنـت فى موقف لا أحسد نفسى عليه بقدر ما أشفقت عليها ، فلـم أكن أدرى ماذا تريد هذه الفاتنة الشقراء ، ولم أكن أعـرف سر وقوف ذلك الفحل الآدمى بجوارهـا متحفـزا للحركـة والانقضاض ، نظراته المتقلبة ، وجسده العنفوانى ، ووقفتـه غير الثابتة كانوا يدعوننى للخوف ، أحس أنه سيمسـك بـى ويشدنى من عنقى إذا ما تحركت بعيدا عن موضع قـدمى ، وإحساس يقول لى إن شيئًا ما فى الطريق سيحدث .

وبعد أن رفعت يدها من فوق شفتى حركت شـفتيها اللتين تلوكان قطعة صغيرة من اللبان بين أسنانها وابتسـمت وقالت ببرود قاتل :

– إنها فعلا نفس شفاه بيرجيت ..

ومدت يدها إلى حقيبة يدى تحاول خلعها من يدى ؛ فصحت فى وجهها :

– كيف تحاولين سرقتى فى وضح النهار وأمام أنظار الجميع ؟ .. يا لوقاحتك البالغة ! .

كدت أفقد صوابى بعد أن أصابنى برودها بغيظ شديد ، حتى ردت بصوت هامس :

– أنا لست لصة كما تقولين .. إننى مديرة أعمال .

فبادرتها : ـ أية أعمـال .. يبـدو أنهـا أعمـال لصوصية ؟

فأجابت بابتسامة هادئة : ـ لا ....

– إذن ماذا تريدين ؟
– أريدك أنت ...
– لماذا .. ؟
– للعمل .
– وهل أخبرك أحد إننى أريد أى عمل ..؟
– نعم .. أنت أخبرتنى .. أقصد ظروفك الخاصة تقول ذلك .
– آسفة .. إننى على موعد مع الطائرة .
– لا .. إنك لن تسافرى اليوم .

- إذن متى ..؟
- قد يكون غدا أو بعد غد ، وربما لن يكون ..
- ولماذا لا أسافر الآن ؟
- لأنك لن تسافرى قبل توقيع العقد

فصرخت فى وجهها :

- إما أنك ذكية جدا ، وإما أنك غبية جدا .. ماذا تريدين بالضبط ؟
- فقالت ببرودها المعتاد : ـ أريد الجلوس معك قليلاً
- ولكنى على موعد مع الطائرة .
- لتؤجلين سفرك اليوم .

بساطتها المتناهية فى الحـوار، كلماتهـا الهادئـة ، تعبيرات وجهها .. ، كل ذلك يجعلنى خائفة. تعترينى الحيرة ، ويتملكنى الاستغراب ولكنى كنت متشوقة أيضا لأن أكشف عن هذه المرأة، فالتفت إليها التفاتـة الرضـا المزعـوم ، ابتسمت لها ابتسامة مرتسمة بلا حياة فوق شفتى اللتين كانتا تنفرجان بصعوبة وقلت لها :

لك ما تريدين .. ولكن .. ليس قبل أن أخـابر أحـد أصدقائى هنا فى فرنسا لأخبره بتأخرى عن السفر .

ابتسمت ابتسامة الموافقة ، واتجهنا معاً نحو هاتف المطار ، وطلبت الرقم الذى كنت لا أزال أحتفظ به فى جيبى .. إنه رقم هاتف ذلك الرجل الغامض الذى وضعه فى يـدى منذ ساعات .

– ألو ... من ؟

أنا التى ....

وقبل أن أكمل رد بسرعة .

أهلاً .. ماذا بك يا بيرجيت ؟

يا للهول .. أنه يتكلم بنفس طريقة صـاحبتنا ، لقـد اتصلت به لمساعدتى فى الخلاص منها فإذا به رفيقًا لهـا ، وقبل أن أضع سماعة الهاتف قال بلهجة استعطاف : - أرجو ألا تسافرى قبل أن نتقابل .

ولكن لماذا ؟ .

سألت نفسى وأنا أعرف أن الإجابة بعيـدة المنـال عبر الهاتف ، وجائتنى الإجابة كما توقعتها .

ـ سوف تعرفين كل شىء بعد قليل .. نسـيت أن أقول لك لا تكونى متعبة لمعاونتى.

وانتهت المحادثة واتجهت معها إلـى حيـث تقـف سيارتها الفارهة ، وركب بجوارى ذلك الرجل الفحل الـذى يصاحبها وانطلقت السيارة بعد أن أقفل نوافذها إلـى حيـث توقفت عند مبنى فخمٍ تطل منه نوافذ كثيرة يخال لداخله أنـه فقود بلا رجعه ، وأقتادنى ذلك الرجل الفحل إلى مكتب فسيح بالدور الثالث حيث الإدارة الرئيسية ، أما الفاتنة الشقراء فلم أعد أراها ، لقد انطلقت تسابق الـريح بسـيارتها فـور أن وضعت قدمى بعيداً عن سيارتها ، حتى ذلك الرجل الفحل لم أعد أراه فور دخولى إلى المكتب ، فـالجميع منهمكـون .. شباب جرئ يتحرك ، صيحات أنثوية بالداخل .. دقات آلات طابعة ، أصوات مختلطة ، ورنات هواتف .

لست أدرى ، ما تخبئة لى المفاجأة ، ورأسـى لا يكاد يستقر على رأى حتى يرفضه خوفًا واشفاقا .. أخيـرا حدق أحدهم فى وجهى وأنا أقف فى إحـدى زوايـا صـالة متزاحمة الأثاث وأشار إلـى بـالجلوس ومـا أن وضـعت مؤخرتى على أحد مقاعده الوثيرة حتى رن جرس صغير .. فيما فهمت أنه إذن بالدخول .

لقد كان" مسيو سيمون " مدير المكتب .. إنه نفـس ذلك الرجل الغامض الذى كان يقيم معنا

فى نفس الفندق رجل لا يعرف المزاح ، كل إشـارة منه تنم عن ذكاء رهيب غير أنه داهية، لا يضيع وقته كثيرا فى النقاش بقدر ما يعمل على تنفيذ خططه فى صمت .

نظر إلى نظرة تحدٍ وثقة ، ومال قليلاً نحـو عينـى مركزا بصره فى عمق عينى ، وكأنه يخاطبنى من الـداخل مباشرة .

وقال وهو يضع أمامى ورقة مكتوبة :

عليك بقراءة هذا العقد .

لم يكن العقد ينص على شئ سوى السفر إلى بلد ما ؛ لمقابلة شخص ما .. ولما طلبت الإفصاح عن المهمة ابتسـم بخبث وقال بهدوء :

ـ ستسافرين إلى بلد غنى ، كله أموال وبذخ وثراء ، ونعيم وترف .

وأغمض عينيه لبرهة ، وقلب شفتيه ، ولم يـزد .. تدخل أحد الزبانية الجالسين حوله قائلاً :

ـ المطلوب منكِ مقابلة رجل ثرى .. والإقامة معـه فى مبناه الخاص على شاطئ البحر لمدة محددة .

امتد فكرى إلى الوراء ، وتشعب فى كل الاتجاهات ، لأول مرة أدرك أننى كنت مستهدفة منذ البداية ، وأن عشيقى الراحل لم يكن يهوانى بقدر ما كان يضع حولى شِباكًا متينة من الرغبة فى الاستغلال ، الآن فقط أدرك أنه لم يكن كمـا تصورته .. لقد كان فعلاً تاجرا ورجل أعمـال نـاجح فـى اصطياد مثيلاتى من بنات حواء .. لأول مرة أعرف أن ذلك الرجل الخبيث الغامض الذى أجلس الآن أمامه كان من كبير

معاونى عشيقى الراحل . لقد كنت فعلاً ساذجة ومغفلة .. إننى حقا ما زلت صغيرة ، لا أعرف لون الحياة حول شرنقتى الضيقة .

استرحت قليلاً من عناء تفكيرى وقد فهمت سر احتفائهم بى وسر مطاردتهم ومضايقاتهم لى .. لا شك أننى تحت يد شبكة مدعمة بالمحنكين والخبراء ، وفهمت أيضا أننى أضعف من الإفلات من الشَرك.

لقد كان ربع مليون دولار فى انتظارى بعد توقيع العقد .. فقط حركة صغيرة من يدى فوق الأوراق أصبح ربع مليونيرة .. أنا لا أعرف الرجل الذى سوف أقيم معه ، ولا أعرف أين سأقيم .. ليكن إذن أى رجل ، ولتكن أية أرض .

تنهدت قليلاً فى لحظة الشرود ، وعيناى تتفحصان وجه عشيقى الراحل لآخر مرة فى إطاره المعلق على جدران المكتب الفسيح ، ووقعت العقد . . كان يمكننى أن أقاوم ، أو أرفض ، أو أستعين بالبوليس ، أو ما شابه ذلك ، لكننى صرفت تفكيرى عن ذلك .. لم أكن مؤهلة فى ذلك

الوقت لرفض طلائع الملايين التى بدأت تنادينى .. وقعـت العقد وبدأت رحلة جديدة لاكتشاف مجهول آتٍ .

* * * * * * *

كل شىء كان معداً سلفاً بقصد العبث فالمـال عنـد الأراذل نقمة على الناس كالفقر عند الأفاضل .

الفيلا الضخمة مجهزة بكل وسائل الراحة والمتعة ، لقد كان صاحبنا خنزيرا تكنولجيا ، يمتد كرشة إلى الأمام ما يقارب نصف المتر، وكأنه مستودع صغير ملىء بمـا لـذ وطاب من أصناف الطعام ، يذكرنى منظـرة بكـيس مـن القماش ملىء باللحوم البيضاء .

كان الأمر منذ أن أحضرونى من المطار أن أبقـى داخل" الفيلا" كعصفور صغير ، أتى به صـياده مـن فـوق أغصان الشجر ليحبسه فى قفص من الزجاج .. لقـد كـان الأمر أن أبقى عارية ، داخل الفيلا ، فى منامى ويقظتـى ، وفى كل حالاتى ، يجب أن أظل عارية ، وهكذا ِأُمرتُ .

لقد كان شيئاً ليس بالهين أن أظل هكذا كما ولـدتنى أمى ، بلا ثياب ، وحتى بلا ملابس داخلية .. أينما اتجهـت

فثم عدسات صغيرة تلتقط صورة جسدى العارى ... شـىء مخجل أكثر من اللازم لا يضارعه أى لون آخر من ألـوان استغلال الجسد وعبودية المرأة ، ولكنى كنت كمن باع نفسه قبل جسده ، فأنا لست بإنسان ، بقدر ما أنا جسد .. وسـيلة متعة .. سلعة رخيصة تباع وتشترى ، سلعة غريبة ليسـت من هذه البلاد ، بل هى مستورده ، جاءت معلبة من بلادهـا حتى وصلت المطار .. لا يحق لى الاعتراض على أسـلوب الاستغلال ، وهل من حق السلع أن تفرض علـى مشـتريها لوناً معيناً من ألوان الاستغلال ؟ ولم أكن أنا فقـط السـلعة الوحيدة داخل "الفيلا " لقد كانت هناك امرأتان مـن جنسـين مختلفين .. لقد كان الأسلوب ذكياً جداً ... ثـلاث نسـاء لا تجمعهن لغة واحدة داخل " فيلا " فسـيحة أ شـبه بقفـص زجاجى كبير يقبعن داخله عاريات كما ولـدتهن أمهـاتهن ، والكاميرات التلفزيونية مسلطة على أجسـادهن تصـورها . وحارس مفتول العضلات يقبع هو الآخر فى غرفة صـغيرة فى حديقة "الفيلا " مهمته الحراسة .. لا يحق له النظر إلـى داخل " الفيلا " أو الدخول إلى ردهاتها المتشابكة أو التلصص على ممتلكات " العم " صاحب الفيلا أو التجرؤ علـى أدوات

المزاح الخاصة به .. لقد كنت كغيرى أداة .. ولم أكن أكثر من ذلك .

كان النعاس هو أكثر الأشياء التى أحببتها داخل الفيلا .. كل شىء فيها يبعث علـى النعـاس الأسِـرة الـوثيرة ، والطقس الربيعى الممزوج برائحة الزهور المنتشرة داخـل الفيلا ، وأجهزة التكييف التى تبرد الهواء كما تشاء والطنافس المخملية المزركشة .. الأمر الذى لم أفهمه فى البدايـة هـو أمر التجرد من الثياب ، لكنى فهمت بعد ذلـك مـن إحـدى رفيقاتى فى الأسر استطعت أن اسـتجمع بعـض الكلمـات الإنجليزية التى تعلمتها فى الإعدادية ، فهمت منهـا وهـى تحاول أن تفهمنى مستعينة بإشارات يديها ، أن ذلك الخرتيت المنفوخ صاحب الفيلا والتى يسميها" المذرعة" يأتى بغتـه ، دون أن يراه أحد منا ، ليجلس فى حجرته مراقبا التليفزيـون الذى يعرض صور أجسادنا، المتكئة أو النائمة أوالعائمة فى المسبح الكبير .

ظللت أعد الشهور والأيام ٠٠ صباح يأتى ، ومساء يمر ، ليس فى الأمر جديد سوى العب من الخمور، واحتساء القهوة ، وازدراد الطعام ، والعـوم فـى المسـابح الفخمـة

والحمامات الأنيقة المزودة بـأجهزة الراديـو والتليفزيـون والفيديو، وغير ذلك الرقص على موسيقى الديسكو الصاخبة .. لقد كان الرقص هو شغلنا الوحيد ، الأمر لا يحتـاج منـا سوى الضغط على أزرة صغيرة مثبته فـى حـوائط البهـو الفسيح لتنطلق الموسيقى ، وزر آخر لتـأتى خادمـة الفـيلا بالثلج والخمور ٠٠ وننطلق جميعا ٠٠ راقصـات عاريـات سكرانات حبيسات ، وأخيرا نتعب ، وننام ٠

نظام رتيب وممل ولكن تعودنا عليه علـى أمـل أن نجد نظاما غيره يوما ما ٠٠ مرة واحدة فى الخمسة شـهور الأولى يدعونى هذا الخنزير لمجالسته ، كانت المرة الأولـى التى أراه فيها بعد أن رأيته فى أول يوم أصل فيـه عنـدما حضر سائقه الخاص لاستلامى من المطار .

كل ما طلبه منى أن أرقص له ، وجدت نفسى أتلوى بجسدى كخرتيت أحمق أرقص بلا مزاح فـى الـرقص .. عارية أمام شخص أكره منظره ، وطريقته الوقحة فى معاملة النساء ، شخص يراقبنى من غرفة مغلقة ، ويأمرنى أمرا أن أرقص له ، شخص مفضوح أمام نفسه وأمام الآخـرين .. عزائى الوحيد أن مقابل تحملى وصبرى ربع مليون دولار ،

ولا أرانى بذلك إلا كمن يقدم عذرا أقبح من الذنب ، ولكـن ماذا كان بوسعى أن أفعله بعد ما ذكرت كل التفاصيل السابقة منذ ولادتى وحتى تلك اللحظات التى أقف فيها أمـام رجـل يراقبنى فى صمت ، متأملاً مواضع جسدى وهـى تتحـرك قهرا لتصنع له خيوطًا واهية من السعادة واللذة التـى تعبـر عنها يداه المرتعشتان عندما يمدهما بين حـين وآخـر إلـى بعض أجزاء جسدى المتراقص ، وهو جالس بـلا حـراك وكأنه يمد يده إلى جسدى مرغما وبلا رغبة .

لا غرابة أنن أقول إنه كان بمثابة أسـد رابـض ، وإننى كنت بمثابة الغزالة الركضاء التى تتـراقص أمامـه ، الفرق أن الأسد يبقى متحفزاً للانقضاض على فريسته لكـن أن يظل رجل بجوار امرأة عارية ليشـبع نظـره بتـراقص جسدها دون أن يكون وراء ذلك دعوة إلى فراش ، فهذا مـا لم أكن أفهمه وقتئذ ، لكنى فهمت بعد ذلك أن الرجل متزوج من أربع نساء جنسياتهن مختلفة ، يومها أدركت معنى جديداً من معانى العبث ، وأدركت كيف يحـول الإنسـان ينـابيع البترول فى باطن الأرض إلى ينابيع أخرى تختلف تمامـاً ، ينابيع من العبث والاستهتار والتجرد والإباحيـة الملعونـة ،

يومها تذكرت أيضاً ما درسته فى صغرى عن البترول والنظريات التى تحكى عن كيفية تكوينه منذ ملايين السنين ، وتساءلت فى نفسى عن الأقدار وحكمتها ، تلك الأقدار التى رسمت خطى الينابيع فى باطن الأرض ووضعتها تحت سيطرة هذا الخرتيت الأهوج وأمثاله ليحولوها إلى عبث وجنون ، ورفعت يدى إلى السماء ودعوت أن يصبح ذلك البترول غوراً من دنيانا التى لا يصون فيها البشر نعم ا .. ولكن هل تستجيب السماء لامرأة مثلى تقف عارية فى شرفة زجاجية تدعو ا وهى متجردة من الثياب ، ومتجردة من الحياء ؟!

وقبل نهاية تلك السهرة العبثية الراقصة دعى رفيقتى فى الأسر إلى صالة واسعة وأمرنا جميعاً أن ندور حول مائدة مستديرة موضوعة فى وسط الصالة .. وفجأة تناول عصا رفيعة ووقف على مقربة منا وبعد أن تأمل أجسادنا العارية وهى تتحرك بلا هدف حول المائدة المستديرة راح فى شراسة وقسوة يتناولها بعصاه الرفيعة اللاذعة .

إنه نوع آخر من التلذذ بتعذيب الآخرين ، فالسادية مرض معروف فى علم النفس ، ولكن أن يصاب به رجل

مثل هذا يترنح فى البذخ والنعيم منذ نعومة أظافره فهذا هـو المحير فى الأمر .

فكرت كثيرا بعد هذا اللقاء أن أنهى إقامتى وأعود ، ولكنى لم أستطع يومها التغلب على شهوة المال ، وتساءلت : لماذا أترك ربع مليون دولار لمثل هذا الخرتيت بعد كل تلك المعاناة وذلك التعذيب الذى لاقيته على يديه .

ولقد خدمنى الحظ كثيرا ولم أقابله مرة أخرى بعـد هذا اللقاء ، ولم يأتى إلى مخدعه طوال أيامى التى قضـيتها بعد ذلك اللقاء ، يبدو أنه مرض ، أو سـافر ، أو مـات .. لست أدرى ..

وانتهت المهمة ، وغادرت المكان فى طريقى إلـى المطار يصحبنى خادمه الخاص وفى حقيبتى شيكات سياحية مجموع قيمتها ربع مليون دولار .

ابتسمت أخيرا وأنا أضع قدمى على سلم الطـائرة ، غير أن سؤالاً واحدا كنت أبحث عن إجابته وأنا فى طريـق عودتى : كيف كان عشيقى الراحل وراء هذه الصفقة التـى تمت بعد وفاته ؟ ..

* * * * * * *

مرة أخرى أعود إلى نفس الفندق ، وما أشبه اليـوم بالبارحة مرة أخرى أعود للإقامة فى فنـدق كلـه رخـام ، ومرمر ومخمل وزمرد وياقوت ، فالمال معى والحياة أمامى .. الحياة تبدأ هنا لحظة التوقيع على الأوراق ، ولكن أن أظل هكذا أعيش لكى أسرف فلابد أننى سأعلن إفلاسى يوما ما ، والحياة المهددة بالإفلاس حياة قلقه ، لذلك فكرت فى أن أنمى أموالى .. فكرت أن أكون تاجرة ، ولكن هل سـأفلح فـى التجارة ؟ لا أعتقد .. إذن لما لا أبحث عن شريك له دراية؟ ، وأعلنت فى الجريدة عن حاجتى إلى شريك مساهم له دراية بالمشاريع التجارية السياحية .

وفى اليوم التالى للإعلان أتى إلى الفندق شاب فـى مقتبل العمر .. كان يملك رأس المال ولكنه لا يحمـل فـى رأسه مشروعا معينًا .

سألته عن مؤهلاته فأجاب ببساطة :

- أنا مثقف فقط ٠٠ ولكنى لم اكمل تعليمى
- إذن كيف حصلت على الثروة ؟

نظر إلى نظرة استغراب وكأنه يريد أن يسأل : ـ ـ هل أنت من مصلحة الضرائب ، أم أنك من طرف المـدعى العام ، لكنى بادرته بابتسامة بريئة قائلة :

ـ آسفة على سؤالى ، ولكن كل ما أريد أن أعرفـه هل كانت لك مشاريع سابقة حصلت منها على المال ، أم آل إليك من مورث ، فأجاب :

ـ أنا لم أستطع أن أكمـل تعليمـى بسـبب عـدم استساغتى للمواد الدراسية ، ولكنـى اسـتطعت بمجهـودى الفردى أن أحصل على المال عندما سافرت إلـى أوروبـا للعمل فى أحد الفنادق العربية هناك ، بالإضافة إلـى أننـى أجدت اللغة الإنجليزية والفرنسية ، وكل ما أتمناه أن أعمـل فى مشروع سياحى خاص بى هنا فى بلدى .. وقد حصـلت على بقية ثروتى عندما توفى والدى تاركًا لى ميراثًا ضخـما من المبانى والعقارات .

ـ إذن يجب أن تعطينى فرصة من الوقت للتفكيـر حتى أجد مشروعا مناسبا ، وربما قد توافق عليه .

ومضى هذا الشاب بعد أن تواعدنا على اللقاء مـرة أخرى . لقد كان شابا وسيما ، يضع على عينيه نظارة طبية يخفى تحتها عينيه إلا أن ملامحه لم تكن غريبـة عنـى .. وكأنى أعرفه من سنين عديدة ، وبـدلاً مـن التفكيـر فـى المشروع رحت أفكر فيه . إن تجاربى السابقة فـى الحيـاة تدعونى إلى إعادة التفكير فيمن سأتعامل معهم ، حتى لا أقع من جديد فى شِراك العصابات والمحتالين ، وتساءلت كثيـرا مع نفسى : هل يعقل أن يكون هذا الشاب الذى يخفى عينيه ، ويتكلم بصراحة غير معهودة أن يكون طرفًـا جديـدا فـى تجربة مجهولة تنتظرنى ، أم أنه حقا يريد مشـاركتى فـى المشروع المقبل ؟ .. لقد كانت كل أحاسيسى الكامنة تقـول بأنى أعرف هذا الشاب جيدا ، إلا أننى لا أستطيع تـذكره ، ولم أنم يومها وقد تملكتنى حمى التفكير الدائب المتطلع إلـى آفاق جديدة ، وبينما أنا على هذه الحال الخطرة لـى فكـرة جريئة : لماذا لا أفتح ملهى سياحيا ؛ فالملهى لا يرتاده سوى الأغنياء ، وليس كل الأغنياء ، بل المبذرين منهم والبـاحثين عن المرح واللهو والنشوة ، وجميعهم يدفعون بلا تـردد أو ندم أو حساب .. المشروع بسيط لا يحتاج منى سوى المبنى

، أما الفرق الموسيقية والفرق الراقصة فهم لا يأخذون بقـدر ما يعطون ، هم رأس المال ، وهم البضـاعة ، ومـا أكثـر الراقصات ، وما أكثر الفرق الموسيقية ، وما أكثر بنات الليل ، وبائعات الهوى والساقطات واللقيطات ، جميعهن بضـاعة رابحة لذئاب الليل والمبذرين المختالين والعابثين الأغنياء .

واختمرت الفكرة فى رأسى ، فنهضت مـن رقـدتى وأسرعت إلى مكتبى الخاص وسجلت على الأوراق خطوات المشروع ، وارتميت بعدها فوق السرير ، لا أريد سوى ذلك الشاب الذى تركنى على أمل اللقاء .. لا شك أنه لن يرفض المشروع ولابد أنه سيوافق على فكرتى طالما أنه لا يحمـل فى رأسه مشروعا معينًا ، ونهضت مرة أخرى على عجـل وبلا تردد اتصلت به هاتفيا ، وحددت معه موعدا للقـاء ... وعندما حضر فى اليوم التالى قدمت له تفاصـيل المشـروع فوافق على الفور .

* * * * * * *

لم تكن سماء القاهرة أقل روعة من سماء بـاريس ، السماء هى السماء بنجومها المتلألئـة وقمرهـا الفضـى ، المظهر يختلف على الأرض ، ففى باريس الكل حـالمون ،

عاشقون يحبون الحياة ، يخال لرائيهم أنهم شعب عاش لكـى يحب ، أما فى القاهرة الكل منهمكون فى البحث عـن لقمـة العيش الجافة ، وثمة فئة قليلة منهمكة فى ابتزاز الآخـرين ، وعندما يذهب الجميع إلى مضاجعهم تبقى الأضواء المتناثرة فى أحياء القاهرة فى انتظار رواد الملاهى لتنير لهم الطريق ، يتبادر إلى ذهنى قول أحد السياح العرب الذين قابلتهم فـى الفندق عندما رأى ذلك المنظر المتكرر فى شوارع القـاهرة وحدائقها ، قال : إن كل أهل مصر عشاق ، لكن نظرته هذه لم تكن لتصيب الحقيقة ؛ ذلك لأن أولئـك الـذين يتـأبطون محبوباتهم قد هربوا إلى الشوارع والحدائق بحثًا عن الخلوات بعدما تعذر عليهم المسكن.

لقد كان ملهاى يعانق النيل فى إحتضان وتلامـس ، وكانت أضواؤه الملونة المتلألئة تجتذب كثيرا مـن الشـباب والشابات ، بعضهم يتزاحم أمام باب الملهى وكل منهم يتمنى لو يراقص من يحبه تحت أضوائه الخاطفة وعلى موسـيقاه الصاخبة أحيانًا والهادئة أحياناً أخرى .

فكرت كثيرا فى هؤلاء الحـالمين العاشـقين الـذين يقفون بالباب ولايملكون أسعار الدخول ، فكـرت كثيـرا أن

أساعدهم ، ولكن كيف أساعدهم فى هذا الصراع الرهيب مع الإيجارات المرتفعة والضرائب السياحية ، وهذا الزحام الذى تشكله الطبقات المخملية وأصحاب الملايين مـن الفنـانين و المهربين و السياح الأجانب والعرب المترفين .. أخيرا رأيت أن وقوفهم أمام الملهى فى تطلع مشبوب إلى صالات الرقص وزجاجات الشمبانيا المتناثرة فوق الطاولات أفضل بكثير من غلق الأبواب والنوافذ أمام أنظارهم ، ولكنى كنـت حزينـة لأنى لم أستطع أن أساعدهم وأحول القاهرة إلـى بـاريس ، وأقنعت نفسى بأن الشاب الجائع لا يجب أن يفكر كثيرا فـى البحث عن مثل هاتيك المتع ، ورفضت الفكرة الملحة فى أن أساعد هؤلاء المشدوهين أمام أبواب الملاهى والنوادى ودور المسارح ، وعللت ذلك بأن عليهم أن يذهبوا مـع الآخـرين للبحث عن لقمة العيش الضائعة .

لقد كان ملهاى " رد نايت " يعج بزبائنه وضوضـائه وموسيقاه .. منظر لا يختلف كثيرا عن الحانات والخمارات المنتشرة فى الضواحى الشعبية ، فالجميع ضائعون تـائهون هاربون فى زحام الحياة ، يبحثون عن ظلال واهمة يحلمون تحتها ، وينسون فيها عقولهم التى تثقل كاهلهم . أما أنـا –

صاحبة الملهى – فقد كُتب على أن أعيش يوما بلا نهـار ، أجلس خلف مكتبى الصغير أعد الجنيهات و الدولارات التى تتساقط من أيادى السكارى ، ربما لهذا أشعر بالاطمئنـان ، إلا أننى لم أستطع التخلص من شهوة التمنى والطمـع فـى المزيد والمزيد.

لقد كنت يوما ما أحسد إحدى الراقصات التى كانـت ترقص فى حفلات الفندق ، وكم تمنيت لو أصبح يوما مثلها راقصة ، ليس حبا فى الرقص ولكن طمعا فى مدخوله الوفير ، فالناس لا يدفعون لمستور حتى يتعرى ، وقتها سوف يدفع له الناس ثمن افتضاحه وخلاعته ، ولا أقول كل الناس ولكن المريدين منهم لحياة الخلاعة والتجرد والمجون .

إننى لأزهو اليوم فى افتخار عندما تمتد يـدى إلـى راقصات ملهاى ؛ لأعطيهن أجورهن ، لا تختلف إحـداهن كثيرا عن تلك التى كنت أحسدها يوما ما ، إلا أننى ورغـم ذلك أتمنى اليوم أن أصبح راقصة ملهاى . فكـرت بينـى وبين نفسى : لماذا لا أكون أنا راقصة ملهـاى ، ولمـاذا لا أغادر هذا المكتب إلى صالة الرقص والغناء ، إنها فرصتى لمزيد من الكسب .. لماذا لا أوفر أجر الراقصة ، صـحيح

أننى لم أتعلم الرقص من قبل ولكننى أشعر مجـرد شـعور بأننى أستطيع الرقص ، وأن جسدى لايقل روعة وإثارة عن جسد أى من الراقصات الشهيرات ، وعرضت الفكرة علـى شريكى الشاب فوافق على الفور وشجعنى على ذلـك وقـال وهو ينظر إلى جسدى بإعجاب – وهل خُلِـقَ هـذا الجسـد الفارع إلا من أجل الرقص ، وذات ليلة ارتديت بذة الرقص وفاجأت الجميع ، وأعلن مقدم البرامج أن الراقصة الناعمة " هيام " سوف تتحفنا الليلة برقصاتها المثيرة .

وانطلقت إلى صالة الرقص أتهادى مـع إيقاعـات الآلات ، كل ما فعلته أننى تهاديت .. تخيلت نفسى فراشة .. تحركت على أطراف أصابع قدمى ، وارتعشت بوسـطى ، وحركت صدرى، وضربت بذراعى الهواء بـلا اكتـراث ، وفى النهاية سمعت تصفيق الجميع واكتشفت يومهـا أننـى راقصة . واكتشفت أننى أولد من جديد .. حتى أسمى يكْتَـب من جديد ، لقد كان اسمى يوم ولادتى" فتحية " ولكنه تحول بقدرة قادر اليوم إلى" هيام " .

تترامى بى الذكريات الآن إلى بداية قصـتى عنـدما قلت إننى تمنيت يوما أن يرانى أى شاب ليعجب بى ويبادلنى

الحب ، ولكننى اليوم لم أعد أتمنى شيئا سخيفا كهذا .. حياتى الآن تأخذنى إلى حيث مئات الرجال الذين يتصيدون النسـاء أمثالى .. حياتى الآن تأخذنى إلى حيث العواصف الليليـة ، والعربدة الجسدية والغفوة المميتة ، بعيداً عن فيافىء الحـب الظليلة وواحاته الحالمة .

إننى أفكر الآن فى الزواج ليس من أجـل الـزواج نفسه ولكن لأننى أحق بشريكى الغنى من أية امرأة أخرى .

اقتنعت أخيراً أن الحياة مجموعة صـفقات ، وخيـر الصفقات هى التى تأتى إلينا حيث نجلس، إن شابا فى مقتبل العمر مثل شريكى الثرى هو خير قرين لى .. إن زواجنا لن يكون مجرد زواج عادى ، بل هو تزاوج للثروة ، واختمـار للمال ، وتوالد للدولارات . وهكذا تحول تفيكرى كله إلـى محاولة اصطياد هذا الشريك الدسم ، واتجهت إلـى نصـب حبائل الأنوثة حوله ، حتى كانت ليلة عيد ميلاده .

كانت سهرة مجانية لكل المدعوين والقـادمين بـلا دعوة ، وبعد أن أُطْفِئت الشموع تحول الجميع إلى أفواه تلتهم الحلوى والمأكولات ، وتشرب الكحول ، وكانت فرصتى .. التصقت به ، وقلت بصوت هامس :

- كل سنة وأنت طيب .. إن شاء ا   نفرح معك وأنت عريس .

أجاب بابتسامته الساحرة الهادئة :

- وأنتِ طيبة .
- يا ترى من سعيدة الحظ التى سنفرح بها معك ؟
- حبيبة قلبى
- لماذا لم تعرفنى عليها حتى الآن ؟
- لأنى لم أرها بعد .
- إذن لماذا تقول إنها حبيبة قلبك وأنت لم ترها بعد ؟
- لأنها من الطبيعى ستكون حبيبة قلبى يوم أن أفكر فى الاقتران بها .
- هل أنت من أنصار فكرة الحب قبل الزواج ؟
- إن لم يكن ذلك ، فماذا غيره ؟
- بعضهم يقول الحب يأتى بعد الزواج .
- فى الحقيقة المسألة تبدو غير واضحة ، فعندما نقول الحب قبل الزواج ، أم بعده نكون كمن يسأل : ـ الفرخة أولاً ، أم الكتكوت ؟
- إننى غير مؤيدة لك تماما.

- لماذا ..؟
- لأن الزواج شىء والحب شىء آخر مختلف
- كيف؟
- الحب نداء الروح ، والزواج صفقة يتبادل فيها الطرفان المتعة الجسدية .
- وهل نسيتى أن الإنسان جسد وروح .. وهل نسيتى أن الحب ضرورى لاستمرار الزواج .. وهل نسيتى أن الزواج أعظم من مجرد التقاء جسدين ؟

قلت وأنا أناوله كأسا من الشمبانيا :

- هل تغير رأيك الآن فى الحب والزواج ؟.
- كيف ؟
- نعيش على زواج يوما ويوما آخر على حب
- فقال بصوتٍ عنفوانى :
- أنا أفضل أن أعيش اليوم على حب وله وبه .
- وغدا ؟
- غدا نتركه لحينه .
- وماذا عن الحب اليوم ؟

نظر إلى بعينيه الشاردتين ، وتأمل عينى قليلاً ، ثـم قال وهو يضع أنامله على مقربة من جفنى :

- لكم تبدين رائعة الليلة !
- ماذا ؟
- أقول إنك تبدين جميلة الليلة
- الليلة فقط ؟
- قد تبقى اللؤلؤة فى مكمن عن الصياد وهى بين أصابعه

فهمست بدلال :

- لماذا لا تراقصنى ؟

ونهضنا على عجل يحتضن كل منا الآخر .. وكأنى أنساب بين يديه ، كان نهداى يرعيان بين حشـاش صـدره الخشنة .. وتمنيت لو يقبلنى ، فملت نحوه بوجهى ، فكانـت شفتاه أعجل من أمنيتى ، واحتضننى فى سـكرة عارمـة .. أحسست خلالها بحرارة جسده العنفوانى وقلت فى نفسى :

ـ إن أقنعة الحب فعلاً تكمن خلف بـراكين الجسـد المتجمهرة ، ونيرانه المكبوتة ، وتمنيت لو نقضى ليلتنا معـا

؛ فهمست فى أذنه بصوتٍ لاهٍ : ـ لماذا لا نلتقى هذه الليلـة فى فراش واحد ؟ ؛ فتبسم وقال : ـ ليس قبـل أن تتحفينـا برقصاتك المثيرة الممتعة . وخلـع ذراعيـه عـن جسـدى وانطلقتُ على الفور لارتداء ملابس الرقص . وما أن عزفت الموسيقى حتى بدأت الرقص بخفة وطلاقة أحسد عليهمـا ، كنت أرقص لأجله ، وأنحنى نحوه بميوعة وكأننى أدعوه إلى أحضانى ، وفى كل مرة كنت أنعطف نحوه كان يصفق بفرح ويهلل فى نشوة ، إلا أننى كنت أحس أنه يجاملنى إلى حـد بعيد .. قد يكون تصفيقه إعجابا بى ، لكننى أريد تصفيقًا آخر ، تصفيقًا ممزوجا بلعاب سائل لأنوثتى ، تصـفيقًا ممزوجـا بهيام بلا حدود ونظرات مبهورة ن أريد له سهادا لا ينتهى ، وأرقًا يحركه طيفى ، إنه نفس حلمى القديم الذى كنت أحلمه عندما كنت مراهقة بعد ، مع وجود فارق بسيط هـو أننـى أتمنى ذلك الآن ؛ لأرضى غرور أنوثتى بامتلاك قلب رجل ، إن امتلاك قلبه سيجعله رهن إشارة إصبعى ، يومهـا لـن يتوانى عن مساعدتى على الدخول إلى الشهرة والمجد . وأية قلب ذلك الذى أريده ؟! إنه قلب شريك فـى العمـل، غنـى

بأمواله وشبابه ، ملىء بالعنفوان والحيوية ، وهذا ما تتمنـاه كل أنثى من رجلها .

* * * * * * * *

لم يعد ينقصنى سوى تلك الورقة التى نعتمـد فيهـا شرعية علاقتنا ، وقد انتقلت معه إلى حيث يعيش فى سـكنه الفاخر ، وتركت الفندق الذى عشت فيـه أيـامى الماضـية تركت معه كل الأحلام الصبيانية التى كنـت أرتـع فيهـا ، وتركت أيضا كل المآسى الماضية التى بدأت مع بداية إقامتى فيه .

حياتنا الآن مزيد من التفاهم ومزيـد مـن المتعـة المتبادلة حتى أننى أصبحت لا أتخيل حياتى بدونه ، كانـت شخصيته مريحة ، وطبيعته هادئة إلا أنه كان خياليا إلى حد بعيد ، لا يحب الحديث عن العمل أو الثرثرة حول المشاريع ، لا ينظر كثيرا فى حسابات الملهى ، ولا يعبـأ إلا بـدفتر شيكاته فقط ، فلقد ترك لى كل شىء ، ليس عن ثقة فى ولكن بعد أن اطمأن إلى جهاز المحاسبة فى الملهى ، وراح إلـى دنياه الخاصة التى كان يحصرها فى قراءة الكتب واصـطياد المتعة أينما وجدت ، كان يحب الشعر حبا ملك عليه قلبـه ،

وكان يحفظ منه الكثير، وكان يحلم كثيرا بأن يتمكن من كتابة الرواية واكتساب الشهرة من وراء كتابتهـا ، أراه يحـتفظ بقصاصات الورق الصغيرة التى يقصها من الجرائد وكأنهـا قطع نادرة من الماس .. يحب الحياة ويشعر بالرضـا عـن خطواته .. أغلب ما كان يشعرنى بالحيرة فـى أمـره هـو غموضه المتناهى .. يتحدث كأنه فيلسوف مخضرم مع أنـه شاب صغير ويتكلم بصوت هادئ دائما.. تحيرت كثيرا فـى أمره .. لا يعبأ كثيرا بى .. جسدى عنده مادة جمالية يعجب بها كأى جسد أنثوى آخر ، رغم أننـى أريـده عابـدا فـى محراب جسدى .

عندما أحدثه عن الحب يتنهد بعمق ويقول : وا حلماه .. فحبه غير موجود على الأرض .. تتملكه الشفافية الذائـدة لدرجة أنه يعتبر علاقتنا مجرد صفقة جسد ، وأوقاتنا التـى نقضيها معا داخل جدران مقفلة كان يعتبرها مجرد وقت يلهو فيه كل منا بجسد الآخر ، لكننى لا أنكر أنه كـان متفاهمـا معى لدرجة جعلتنى أعتقد أنه لم يعد ينقصـنا سـوى تلـك الورقة التى تعترف بشرعية علاقتنا .

أشعر بالأمان فى وجوده ، وعندما أتسامر معه أجـد متعة كبيرة ؛ لأنه يجيد الإقناع والتأثير.

كل شىء فيه يقول إنه أديب خُلِقَ للأدب والفن ، لولا أنه عربيد كبير ، ورغم كل هذا كنت فى حيرة من ملائكيتة الزائدة .

سألته يوما كيف لى أن أفسر تلك الازدواجيـة بـين ملائكيتك وشيطانيتك الواضحة ؟

رأيته يحدق فى فى دهشة وقال : - لم أفهم بعد ما تقصدين

إنك تعربد ما بدا لك ، وتمارس معى لعبة الجسد بلا شرعية .

قال بصوت كله ثقة :

- إننى أسقيك الحب من كأس تريديه أنت وما أردته أنا .
- إذن فأنت مرغم ؟
- ليس بالضبط ، ولكنك كنت بمثابة الشيطانة الجميلة التى أغوت الملاك على انتهاك المحظور.

– وهل نسيت أن الشيطان لا يستطيع أن يغوى الملائكة ؟

– بل يستطيع ، إذا كانوا ملائكة آدمين أمثالى .. أو هل نسيت أننى إنسان له أن يخطئ ، ولكن تبقى شفافية الضمير تئن تحت وطأة الرذيلة التى أقترفها أحيانا عندما أقابل الشياطين الآدميين أمثالك .

قال هذا وهو يضحك ملء شدقيه فرأيت ذلك مناسباً لأن ألقى فى وجهه برغبتى التى كثيرا ما حرصت عليها :

– إذن لماذا لاتضفى الشرعية على علاقتنا ؟

أجاب بعد تفكير وإطراق :

ـ الحقيقة التى أود أن تعرفيها أننا لا نصلح للزواج .

وأضاف وهو يضحك بخبث شديد :

– وهل تريدين منى أن أتزوج من الشياطين ؟

– إذن ماذا نصلح أن نكون ؟

– يجب أن نبقى على ما نحن عليه .

– وإلى متى ...؟

لم يجِب لأن الإجابة كانت واضحة وتظهـر مـدى ظلمه لى ، فهو يريدنى هكذا إلى أن يتركنى بلا مبرر ، وبلا تساؤلات .. يريد أن يلهو بى كجسد نابض يتلذذ بـه كيفمـا يشاء ، وفى النهاية يتهمنى بأننى شيطانة ذكية توقع به .

بالطبع رفضت هذه النظرة الدنيا ، وأردت أن أُظْهِر له أن الحب وحده هو الذى جمع بيننا حتى وإن لم يبـادلنى هو حبا بحب ، فأنا أحبه فعلاً .

فقلـــت لـــه بصـــوت كلـــه عتـــاب :

ـ ـ ومـاذا أقـول لقلبـى الـذى يهـواك بـلا حـدود ؟

أجاب ببساطة متناهية :

– وماذا أقول أنا لقلبى ..؟

– ولكن يجب أن ننظر قليلاً إلى وجهات النظر التى تبدو متباينة أشد التباين خاف علاقتنا الجسدية التى تضفى على أعيننا الغشاوة

– إنك تريدين أن تتوجى عماك وشهرتك بالحب والزواج ولكنى أرى لنفسى عكس ذلك .. أنا أبحث عن امرأة تحبنى بلا ملحقات .. بلا أموال .. أريد امرأة أحاسبها على خطواتها ، ولا تحاسبنى هى ،

أنا رجل أبحث عن الهدوء الكامن خلف كلمات الشعر، وإيحاءات الكلام، وأنت تبحثين عن السكرة المميتة والارتعاشة المجنونة والشهرة الفاضحة والحب العابث والثراء الفاحش والزوج الخادم .

قال هذا ثم نظر إلى عينى بهدوئه القاتل كأنه يريد أن يمحو آثار تلك المحاضرة المهينة وهو يطبع قبلة ساخنة على وجنتى :

- أ رأيت الآن كيف كنت محقا عندما قلت لكِ دعينا نعيش الآن كما نحن كذلك ؟.

ذهبت إلى فراشى تلك الليلة ولـم أنـم كالعـادة .. رفضت الخمور ، ورفضت كل شىء .. إن الأيام لا تعطـى بقدر ما تأخذ ، فإن أعطت يوما خطوة غير منتظرة أخـذت ألف خطوة منتظرة .. أشعر أن الأقدار تخدمنى أحيانًا كثيرة إلا أننى شعرت هذه الليلة أن الأقدار تتحدانى .. إننـى مـا تمنيت يوما أن أعيش كامرأة محترمة مع رجل يحبها قدر ما تمنيت الآن.

كنت على استعداد لأن أفقد كل ما وهبتنى الأيام بلا حساب من أجل أن أظفر بما أريد ، ولكن يبدو أن الإنسـان يسعى دائما إلى إقرار الواقع لا إلى تغييره ، ولو حاول ذلك جاهدا .

إن حبى الصادق له مهما كان ممزوجـا بنـزوات أخرى إلا أنه فى النهاية لا يختلف عـن أى حـب آخـر ؛ فالصدق فى مكمنه وإن تخفى تحت أقنعة أخـرى تفرضـها ظروف الحياة التى أعيشها .

نمت هذه الليلة ، وفى نفسى قرار صامت : لا بد أن أرحل فى الصباح الباكر ، ولا بد أن أقفل صفحة هذه العلاقة التى تجرحنى فى الأعماق ، ليس لأننى كرهتـه ولكـن لأن الصدق والزيف لا يلتقيان . لقد كنـت صـادقة جـدا فـى مشاعرى ، ولكنه كان مصرا على الاستهانة بها ؛ لهذا كـان لا بد أن أرحل .

* * * * * * * *

ذهبت إلى " سهير " صديقتى التى كانت تسكن فـى شقة واسعة فى شارع " الهرم " .. كانت سهير تحبنى كثيرا

، وكانت صداقتى بها متينة وقوية قوة المصلحة التى تربطنا ، وكانت قد اعتادت على لقاء زبائنها فى ملهاى ، وكثيرا ما كانت تأتى طالبة العمل عندى ، ودائما منـت أركـن إليهـا العمل فى الصالة حيث تحب أن تعمل .

إن أنوثتها طاغيـة ، ودلالهـا أخـاذ ، وضـحكتها موسيقية ،غير أن طبيعتها معربدة ومشيتها متهادية ، وقوامها متناسق ، ولكل هذا كانت سهير حلم الكثيرين ، وكان لهـل مريدوها من العرب الخليجيين المعربدين ، وكانت سهير نعم التاجرة الماهرة التى تجيد تصريف بضاعتها بأغلى الأسعار ! .

إن سهير التى تمتلك شقة واسعة فى شـارع الهـرم تتخذها وكرا لعشاقها ومريديها كانت ذات صـلات واسـعة وارتباطات جسدية متعددة ، غير مـا لهـا مـن علاقـات وصداقات برجال الأمن؛ ومن ثم كانـت تتحـرك بأمـان ، وتعبث كما يحلو لها ، وتصول وتجول وهى فى مأمن مـن رجال الآداب ، وقيل إنها تعمل بوزارة الخارجية فى وظيفة ترفيهية .

نظرتُ إلى سهير التى كانت مـاتزال راقـدة فـوق سريرها الفاخر المكسو بأغطية ذات ألوان زنبقيـة ذاهيـة ، وتساءلت فى حيرة : ـ كيف لى أن أبقى معك فـى مسـكن واحد ؟ .. قد يكون ذلك مزعجا لك يا سهير .

فتحت سهير فمها على آخره متثائبة وقالت بهدوء :

– صباح الخير صباح النور .. أنا أريد أن ...

قاطعتنى بلهجة سريعة :

– تريدين أن تستأجرى شقة خاصة بك .. أعرف ذلك ، ولكن ليس قبل أن أحتفى بك هنا فى بيتى ، إن مسألة تأجير شقة للسكن أمر لا يفيد معه الاستعجال ؛ لأن الشقق فى شارع الهرم فراخًا تبيض ذهبا، والجميع هنا يعشقون تلك الفراخ ويجيدون اقتناءها .

– ومن قال لك إننى أريد السكن فى شارع الهرم ؟

– لأن ملهاك هنا

– أريد مسكنًا بعيدا عن العمل ، فالعمل شىء والمسكن شىء آخر

– وما المانع أن تبقى هنا إلى جوارى بقرب عملك ؟

– ....

إن سهير معذورة عندما تسأل مثل هـذه الأسـئلة ؛ لأنها لن تتخيل أننى لا أريد أن أعيش مثلها

حياة ملؤها العبث والفجور والزنا .. حتى الـرقص أراني أرفضه الآن .. إنه مزيد من التعرى والإثارة والزنـا .. الكل يزنون بأعينهم وهم يلقونها بعيدا عـن محاجرهـا ؛ لترعى فوق جسد الراقصة .. لمـاذا لا أبقـى بعيـداً عـن الفضيحة التى تعيرنى من الداخل .. فى صميمى .. قبـل أن تعرى جسدى – رحمك ا يا أمى - .. كم كنت فاضـلة .. إن الدموع التى أذرفها أحيانًا تكفى لملء زجاجـات الخمـر التى أشربها ، وكـأنى شربتها لكى أذرفها دمعا مع زفرات الآنيين والألم .

– لقد قتلتك يا أمى بطيشى ونزواتى وأحلامى .

تساءلت بينى وبين نفسى – لمـاذا لا أبقـى مـديرة لملهاى فقط .. أركب سيارتى الفاخرة وأضع علـى عينـى نظارتى الملونة وأرتدى أفخر الثياب وأغلاها ؟.. لمـاذا لا أتفرغ إلى الترف والنعيم بعيد عن الرذائل .. لمـاذا لا أدع

الملهى يدار كما يدار ليدر ما يدر فى جيبى من أمـوال دون أن أتعرى ودون أن أرقص ودون أن أصنع من نفسى لقمـة سائغة لكل الأعين الزانية وكل الشهوات الحائرة وكل الأيادى المعربدة ؟ !

مالت سهير نحو أذنى وقالت بصوت أدركتـه كأنـه حلم – لماذا لم تجبى عن سؤالى ، لقد ذهبتِ كثيرا بفكرك ، هل كان السؤال عويصا لهذه الدرجـة أم أنـك لا تعـرفين للإجابة مدخل؟!

– يا سهير يا حبيبتى إنك لن تقدرى بالضبط كم أنا أعانى من الداخل ، إن الصراعات تتزاحم بداخلى والقلق ينتابنى .

اندهشت سهير لِما سمعت ، إنها المرة الأولى التـى ترانى على غير عادتى التى ألفتْ أن ترانى عليهـا والتـى ألفتُ أنا على تمثيلها ، إنها دائما ما ترانى هادئـة الطبـاع أمرح فى نشوة ومزاج معربد .

نهضت سهير من فوق سريرها بتثاؤب واتجهت نحو الثلاجة وتناولت منها زجاجة خمر كبيرة ، لقد ارتأت سهير

أننى عصبية المزاج ذلك الصباح وارتأت أيضا أن تهـدئنى بالخمور ، ولكنى كنت أريد أن أبقى كما أنـا ، بعصـبيتى وثورتى وقلقى ، فأشرت إلى سهير أن تبتعـد عنـى بتلـك الزجاجة ، فوجدتها تندهش .. إنها تستغرب إنكارى للخمور ، فقالت بصوت هادئ :

- هل أحضر لك قرصا مهدئًا ..؟

لم أجبها من شدة الوجوم والإغـراق فـى دوامتـى الخاصة ، حتى خطرت فى خاطرى فكرة مفاجئة وتسـاءلت مع نفسى :

- لماذا لا أذهب إلى سمسار للعقارات .. لماذا لا أستأجر شقة بعيدة عن أنغام شارع الهرم ؟

يجب أن أعيش من جديد كمديرة لا كراقصـة فـى الملاهى الحمراء ، وتناولتُ القرص المهدئ من سهير بعـد أن تزاحمت الأفكار فى رأسى ونمت بعدها نوماً عميقًا .. لقد أدركت سهير أننى لا أحتاج سوى النوم العميق ، وبدلاً مـن أن تعطينى قرصا مهدئ أعطتنى قرصا منوما .

وعندما استيقظت من النوم كان الليـل قـد أزف .. رفعت رأسى من فوق الوسادة قليلاً فالتقطت أذنى أصـواتًا مجلجلة تنبعث من الصالة .

– لابد أن هناك ضيوفًا ؟

لقد كانت سهير تتحدث إلى ضيوفها بصوت رفيـع يصلنى كأنه زقزقة عصافير صغيرة .. لابد أن أنهض مـن فراشى ، لقد حان الوقت للذهاب إلى الملهى وفتحت الباب .

كانت سهير تجلس نصف عارية أمام شاب أسـمر ، رفيع القامة ، ومعهما رجل فى الخمسين يبدو عليه الوقار .. ضحكت سهير وقالت وهى ترمينى بنظراتها الخبيثة وقالت :

– نوم العافية .. لقد نمتى كثيرا اليوم .
– لماذا تركتينى أنام كثيرا هكذا .. ؟
– لقد تعمدت ذلك عندما أعطيتك القرص المنوم .

وجذبتنى من طرف ثوبى فى مرح قائلة :

- تعالى .. لأقدمك لأحبابى .

– ليس هناك متسع من الوقت ، يجب أن أذهب إلى الملهى الآن .

- لا .. لن تذهبى الليلة ، لقد خابرتهم منذ قليل، وعرفتهم بأنك متعبة الليلة ، وعليهم الاعتماد على أنفسهم .
- ولكنى لست متعبة .
- لا .. بل كنتِ فى حالة عصبية شديدة .. يجب أن تستريحى الليلة .

وجذبتنى مرة أخرى من أطراف أصابعى ، وألحـت على أن أجلس ؛ لتقدمنى لضيوفها .

لقد كان الشاب الأسمر من المغتـربين المصـريين بالخارج ، حضر لتوه من بلاد البترول ، يرتدى ثيابا بيضاء وكأنه يعمل مع الملائكة !.. يبدو فى عينيه الهدوء المسـتتر تحت بركان الحمم الشهوانية التى تنتظر الانفجار ، أما رفيقه العجوز فهو مدير بإحدى الهيئات الحكومية، وما أغنى مـن القادمين من بلاد النفط إلا أولئك الـذين يسـتترون خلـف وظائفهم التى تعطيهم فرصة كبيرة للتلاعب بالأرقام وإضافة العمولات إلى جيوبهم .

إننى أكره بلاد النفط ، ولا أحب مـن عاشـوا فيهـا وتشبعوا بثراها ، ولا أحب حتى مجرد ذكرها ، ولكن الأقدار

تعبث أحيانًا بمشاعرنا فتأتى بما لا نحب نحـو مخادعنـا .. لا.. الأقدار ليست لها ذنب .. إنها سهير هـى التـى أرادت ذلك ، وتفرح كثيرا بزبائنها الأثرياء .. زبائن الذهب الأسود .. زبائن الشيطان !.

مالت سهير نحو أذن الرجـل العجـوز وداعبتهـا بأناملها وقالت :

- أين أنت يا أشمونى .. لم نرك منذ فترة طويلة ؟

رد الأشمونى بصوته الذى قضى عليه الدخان

- فى الحقيقة أنا لم أحضر منذ فترة طويلة إلى القاهرة ، ولكن حالما أتيت لن لأستطيع التأخر عن الحضور إليكِ .

قالت سهير باستغراب :

- ياه .. معقول ؟! لم تحضر إلى القاهرة منذ المرة الماضية ، إنها فترة تقرب من العام .
- على ما أذكر حضرت مرة واحدة ، ولكنى كنت بصحبة لجنة المشتريات التى لم أستطع أن أستأذنها .

ضحكت سهير بشدة وقالت :

- ولماذا لم تحضر أنت واللجنة لتسلموا علينا ؟

ضحك الأشمونى وابتسم صاحبه الأسمر، وفى تلـك الأثناء نظرتْ إلى سهير نظرة كلها خبـث ودهـاء وقالـت بابتسامة صفراء :

- إنكِ الآن تحتاجين إلى هذا الشاب الأسمر ، بعد أن هدأت أعصابك ، ونمتى بما فيه الكفاية.

دهشت كثيرا لتصرف سهير وكلامها المكشـوف .. إنها تعيش فى دوامة الجنس والمال ، ولم تستطع أن تتحـرر من قيود تلك الدوامة التى سيطرت على ألفاظها وسـلوكها ، ونظرتها إلى كل البشر .

نظرتُ إلى الشاب نظرة ازدراء وهـو ينظـر إلـى فارجا فاه فى بلاهة ، وتابعتها بنظرة أخرى قاسية إلى سهير التى ظلت شاخصة بعينيها نحو وجهى تقرأ ما يظهر عليـه من تعبيرات فى انتظار الكلمة القادمة منى ، ولكنى التزمـت الصمت ، وتابعت النظرات .

قالت سهير فى محاولة منها للخروج من الصمت :

- آه .. فهمت ، إنك جائعة ، لقد طلبت لحما مشويا من المطعم منذ قليل ، وطلبت معه زجاجات البيرة .

وهنا .. مال الشاب الأسمر بجسده نحوى ، ومد يده إلى صدرى بلا اكتراث ، وبلا أدنـى مبـالاة لمشـاعرى ، وكأنى دمية بلا روح موضوعة بجانبه ؛ ليعبث بهـا وقتمـا يشاء .

تعجبت جدا لوقاحته ، وتمالكنى الغيظ .. إنه شـاب وقح ، لا يفرق بين الجرأة والوقاحة ، وبسرعة مذهلة تناولت يده وبغيظ شديد ضغطت على خنصره نحو الخلف حتى كاد أن ينكسر ، فصاح بشدة :

- آه .. آه .. مجنونة هذه ؟!
- أنا لست مجنونة ، ولكنك وقح جدا ، وكان لابد من إيقاف وقاحتك .
- أنا لست وقحا .. ولكنى معجب ، وبحاجة إليك .
- ولكنى لست سلعة معروضة فى" الفاترينا " حتى تتصرف معها بهذه الطريقة المنفرة
آسف .. آسف لسذاجتى فى معاملة الملكات .
- ولكنى لست ملكة .. وكفاك وقاحة .

- لا .. بل أنت ملكة جمال .. ملكة نساء ، وأنا أحب النساء ولا أستطيع ألا أمد يدى إلى جسدك الجميل ، وأنت تجلسين بجوارى فى استرخاء مثير فى بيت سهير .
- ولكن من أدراك أننى أوافق على ذلك ..؟
- وجودك فى بيت سهير معناه أنك لا تمانعين .
- وأضاف يتساءل بخبث :
- هل تتذكرين اللبوءات .. هل تعرفين لماذا نسمى بعضكن بهذا الاسم ؟
- قبل أن تجاوز حدودك أنا هنا ضيفة فقط ، ولست ممن تتوقع وجودهن فى بيت سهير، ثم أننى لست من اللبوءات .
- صدقتى .. فإن اللبوءة لا ترفض طلبا لأسد .
- لا بأس يجب أن تعيد نظرك فيما ترى قبل التصرف .. ثم لماذا لم تحاول أن تجرب هذا العبث مع سهير ؟
- لأنى أردت التغيير .. لقد سئمت سهير .

قال ذلك ونظر إلى سهير نظرة تفهمها جيدا وأضاف بميوعة :

- سهير " كراميل " ولكنى أحب النعناع .

قال ذلك ومد يده إلى صدرى مرة أخرى ؛ فصفعته صفعة قوية على وجهه ، واتجهت إلى الباب .

إن سهير صنف من النساء لا تعرف العفة حتى وإن نامت على فراش من ذهب ، ولن تتوب عما هى عليه حتـى وإن أرسلت السماء باسمها نبيا .. إنها امرأة فى عصمة كل الرجال الشهوانيين .

* * * * * * * *

مرة أخرى أعود إلى نفس الفندق الكبير ، ولكن هذه المرة ليست كسابقتها ، فأنا الآن أختلف عنمـا كنـت فـى الماضى .. أنا الآن شخصية معروفة .. جميع العاملين هنـا يعرفوننى منذ أن كنت نزيلة عندهم ، واليوم هم يعرفـوننى كراقصة ، ولا شك أنهم يطالعون إعلانات ملهاى " رد نايت " فى الجرائد والمجلات الفنية وتلك التى تضئ فـى سـماء القاهرة .. كذلك النزلاء هنا .. جميعهم يعرفوننى .. عنـدما

أتحرك فى الممرات والردهات يشيرون إلـى بأصـابعهم ، وبعضهم يهم نحوى ؛ لمصافحتى .

إنه لشىء رائع أن يشعر الإنسان بأنـه محبـوب ، ومشهور .. سمعت من يقول : إننى محبوبة الجميع ، ولكنى متأكدة أن لا أحد يعرف غير جسدى ، واسمى ، وخاف هذا الاسم أظل أنا ببريقى اللامع راقصة ومليـونيرة وصـاحبة ملهى كبير ، بيد أنى تائهة تبحث عن ذاتها الحقيقية ، وعـن شعور حقيقى بالرضا عن نفسى .

مضى يومان على إقامتى فى الفندق ، وفـى اليـوم الثالث وبينما كنت أتجول عند مدخل الفندق لمحـت سـهير تدخل مسرعة الفندق : ـ ترى ماذا جاء بك يا سهير ؟

صاحت سهير ما أن رأتنى :

– كنت أعرف أننى سأجدك هنا .. كنت متأكدة أن هذا الفندق هو المكان الوحيد الذى تفضلينه عندما تضيق بك الدنيا .

وقبلتنى سهير كأننا لم نر بعض منذ زمن ، وأشعلت سيجارتها المستوردة وقالت :

– عندى لك خبر بمليون جنيه

– خيرا

– لقد قابلت " أنور شلبى " اليوم واتفقت معه على مقابلتك .

قالت هذا وهى تنظر فى عينى بغبطة وفرح كبيـر ، ولكنى كنت فى حقيقة الأمر مندهشة غاية الدهشـة ؛ لأنـى لاأعرف هذا الـ " الشلبى " ، ولا أعرف لماذا سـيقابلنى ، ولكن سهير لم تدعنى أسترسل فى دهشتى ؛ فقالـت علـى عجل :

– سوف تظهرين فى فيلم سينمائى قريبا ، ستصور بعض مشاهده فى ملهاكِ .

لكم كنت فى الماضى أحلم بشىء كهذا .. كنت أحلم بأن أكون لامعة ، ولكننى اكتشفت اليوم شيئًا آخر جديـد .. اكتشفت أن ليس كل ما يلمع ذهبا ، واكتشفت شيئًا أهم : إن الناس يبهرهم البريق حتى وإن كان من قطعة صفيح .

سألتها :

– من هذا الـ" شلبى " ؟

قالت سهير بصوت متعجب :

- يا خبر أبيض ! .. كيف لا تعرفين أنور شلبى ؟ .. إنه مطرب مشهور .
- إذن فقد تذكرته .. إنه المطرب الناشئ .. ذلك الفتى المغمور الذى يغنى فى الحفلات الشعبية
- نعم .. ولكنه مشهور .
- أنه مطرب رخيص ، وتافه .
- هذا فى نظر الطبقات الأرستقراطية فقط .

فقلت لسهير : ـ دعينا من هذه المناقشـة المملـة وحدثينى عن الفيلم .

- سوف تصور بعض المناظر فى ملهاك وأنت ترقصين ، يكفى أنك ستظهرين فى فيلم سينمائى وستقدمين إلى جماهير السينما فى العالم العربي كله ، وأنا واثقة أنك سوف تجدين آلاف المعجبين والمشجعين ، واللقطة كلها دعاية لك ولملهاك الذى سوف يرتفع اسمه عالياً فى سماء الفن بعد هذا الفيلم .

فقلت لسهير : وهل اتفقتى معه على الأجر أم أننـى سأتفق معه عندما أقابله ؟

فنظرت إلى سهير باستغراب وتساؤل :

– أية أجر .. ؟

– أجرى وأجر الملهى .

– أجرك وأجر الملهى ، وهل يعقل هذا ؟ أنت تريدين أن تأخذى بدلاً من أن تدفعى .

إن وحدة مثلك تحتاج إلى دعاية ..إلى شخص يقدمها للجمهور العريض .. تحتاجين إلى المخـرجين والمنتجـين ورواد الفن ليرفعوك إلى سماء الفن العالية حيث الشـهرة ، أنت لا ينقصك المال ولكن تنقصك الشهرة ، والشهرة والمال لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ألا تعرفين " هالة " الراقصة .. كانت تستلف ثمن خياطة الفستان ، إنها صديقتى منذ بداية عهدها بالراقصة ، لقد قفزت الآن إلى سماء الفـن قفـزات يحسدها عليها بنات حواء .. يكفى أن يـذْكر اسـمها علـى أفيشات الأفلام حتى يحقق أعلى دخل ، ويكفى أن تشترك فى مسرحية حتى تكتظ الصالة بالحضور .

سألت سهير مقاطعة :

– وكم سأدفع لك أنت مقابل وساطتك ؟

– طالما سألتى هذا السؤال فإننى سأصارحك ، سآخذ منك ومنه عند التصوير ، أم حسبتى أننى أخدم بدون مقابل .. الصداقة شىء والعمل شىء آخر .

– أعرف ذلك .. وأعرف أيضا أنك تكسبين من كل جلسة وكل كلمة وعند أية خدمة تقدمينها، وأعرف أنك لا تستغلين سوى الأصدقاء .

ضحكت سهير ضحكة ساهية وقالت :

– لذلك فإننى لا أصادق سوى الأثرياء .

– تقصدين لا تستغلين سوى الأثرياء .

– لا ... لا تستخدمى الألفاظ الغليظة هذه .. أنا لا أستغل بل أخدم ، وفى المقابل أحصل على أجر .

وأضافت متسائلة :

– أتحبين أن أخدمك فى أكثرمن هذا ؟

– كيف .. ؟

– فى المجلات مثلاً .. الصحافة الفنية .. الدعاية المصورة .. ألا تفهمين ؟

فقلت لسهير : ـ دعينى أفكر فى الأمر .

ودعتنى سهير وليتها لو تودعنى ، لقد تركتنى مع صراعاتى ومضت .. الحياة تدعونى لأن أعيشها كما تبـدو لى ، وهتافات الضمير تدعونى لأن أعيش حياة أخرى ؛ فأنا لم انس بعد أننى ولدت فى مدينة صـغيرة متواضـعة ، لا تعرف عبث المدنية ، ولعنة المال ، الفرد فيها وإن سولت له نفسه العبث فليعبث بقدر ، وليتردد ألف مرة قبـل الإقـدام ، وإذا انكشف أمره فإنه سيموت فى ثيابه ، ولعل ذلك الـنمط من الحياة أفضل ألف مرة من أسلوب الحياة التـى أعيشـها الآن .. حياة لا يتحفظ الفرد فيهـا عنـدما يعبـث .. حيـاة يتصارع الجميع فيها ، والحلبة بلا حكم .. يفعل الفرد فيها ما يحلو له باسم الحرية والتحرر .. عالم لا يفقـه شـيئًا عـن التستر ؛ لأنه يعيش بلا ستائر ، عالم مفضوح أمـام نفسـه وذلك مبعث يأسه فى الوصول إلى السـعادة .. وهـذا مـا أعانيه أنا الآن .. الافتضاح الداخلى .. الانتهاكة الذاتية التى أمارسها طواعية ، ولكن .. هل سأستطيع أن أعيش فى هذا

العالم ، وبعد أن قطعت كـل ذلـك المشـوار مـن الحيـاة المتقلبة ؟ .

إحساسى الآن بالسعادة معدوم رغم كل ما يحسدنى عليه الآخرون من مظاهر الثراء والشهرة والترف .

وكان قرارى يومها أن أبحث عن شقة أسكنها وحدى ، ولن أعطى عنوانها لأحد ، ولتكن فى منطقة هادئة .

* * * * * * * * *

كنت قد ذهبت لمقابلة أحـد سماسـرة العقـارات ، وعدت إلى الفندق لتناول طعام الغداء وبمجرد أن دخلت إلى بهو الاستقبال حتى أخبرونى أن شاكر بك فـى انتظـارى ؛ فاتجهت إلى حيث يجلس فى بهو الضيافة .. قَبل وجنتى وهو يشد على يدى مصافحا ، وانفرج فمه بابتسـامة عريضـة ، وقال :

– لم أكن أدرى أنك تغضبين بهذه السرعة .

فقلت والدموع تفيض من عينى :

– قد يحق لك أن تقول هذا ربما لأنك لم تدرك بعد ماذا فعلت بى .

فضحك ببرود كعادته وقال :

- أعرف أنك حساسة ، وأعرف أنك كنت تتوقعين أن تجرى الأمور مثلما تريدين .

فقاطعته قائلة :

- العذاب أنواع .. ولكن أقساه أن تشعر أنك مرفوض .. ومرفوض ممن ..؟ .. من شخص أنت تحبه .!

وصحت فيه بأعلى صوتى :

- ألا يكفيك أنك رفضتنى ، وجئت اليوم لترى أثر ما صنعته بى .. أليس كذلك ؟ .. أم جئت لترفه عن نفسك بتأمل امرأة تنزف من الداخل .. لا شك أنها شهوة الشماتة عندك يا ....

لكنه رفع يده فى وجهى مقاطعا ، ونهـض نحـوى وجلس بجوارى وقبلنى مرة أخرى بحنان وقال :

- إننى لم أرفضك طواعية ، ولكنى رفضتك بكل حب، وبكل ثقة أقول لك إن صداقتنا خير من ألف زواج يخاف وراءه مزيدا من الأنانية ، والألم .

- تقول ألم ..؟!

- نعم ألم ..
- قد يكون مؤلما لك ولكنه لى عكس ذلك تماما.
- لى .. ولك .
- كيف .. ؟
- ياحبيبتى .. أنت لا تعرفين كم أنا حريص على أن أخفى عليك السبب ، ولكم حاولت أن أثنيك عن رغبتك دون أن أشرح لك الأسباب .

وشرد ببصره بعيدا ثم قال متسائلاً :

- هل تعرفين أننى كنت أبحث عنك قبل أن نتقابل لأول مرة فى هذا الفندق ؟ .
- قبل أن نتقابل للمرة الأولى .. كيف .. ؟ !
- لقد كنتِ فى نظرى المتهمة المجرمة ، ولكم كنت أتمنى أن ألاقيك ؛ لأخنق أنفاسك .

قال هذا وكف عن الكلام ، وهو يرتشف القهوة ببطء ، ثم تنهد تنهيدة طويلة وقال :

- يجب أن تعرفى أننى أكتشفت أخيرا أنك امرأة شفافة ، لا تحب العبث بقدر ما أحبها العبث .. أعرف جيدا

أنك تعيشين حياة فُرِضت عليك ، ولم تختاريها أنت ، ولقد عاملتك منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها على أنك فاجرة .. عربيدة .. مومس .. ولكن ..

وأغمض عينيه فى استرخاء عميق ولم يكمل . كنت استمع إليه باستغراب شديد .. لم أكن أدرى مـاذا يريـد أن يقول بالتحديد . . هل كان يعرفنى قبل أن يلقانى ، أم ماذا ؟ .. كلمات جديدة أسمعها منه .. ألفـاظ غريبـة : شـفافة .. مجرمة .. متهمة .. فاجرة .. عربيدة .. مومس .. ماذا يريد أن يقول بالتحديد ؟ . كانت نظراتى المتحيرة إليه تـنم عـن أسئلة كثيرة ، لكننى لم أستطع أن انتظر حتى يجمع بقاياهـا التى ما أن ينطق ببعضها حتى يكف عن الحـديث ؛ ليتنهـد ببطء ويغمض عينيه فى استرخاء مرير .

قلت بلهجة سريعة :

– شاكر.. ماذا تريد أن تقول..هل كنت تعرفنى من قبل أن نفتتح الملهى سويا ؟؟

فأجاب : ـ لقد رأيتك قبل هذا بكثير

– قبل ذلك .. متى ؟

– منذ سنين عديدة يوم كنت صغيرة .

– يوم كنتُ صغيرة ؟! تقصد أنت .. ؟ هل أنت أبن جارنا الذى كنت .. لا.. لا.. لست أنت .. أننى منذ رأيتك لأول مرة وذاكرتى تقول إننى رأيتك قبل ذلك .. وجهك ليس غريبا عنى ولكن كلماتك الثابتة وتجاهلك لنظراتى يومها جعلنى أكف عن البحث .. إذن من أنت ، وصرخت فيه بأعلى صوتى .. من أنت .. من أنت .. ؟

قال بتلعثم : ـ شاكر .. شـاكر طبعـا .. شـاكر صقر .

– شاكر صقر ؟! لم يسبق لى أن عرفت صاحب هذا الاسم من قبل أن نتقابل ، أن اسمك هو الشىء الوحيد الذى لا أتذكرأننى سمعته من قبل ، لكن ملامحك كانت تقول عكس ذلك ..لاشك أنك .....

وتساءلت مع نفسى ربما يكون من أقارب ذلك الرجل الذى فقدته فى باريس عندما انفجرت القنبلة فى مبنى الفندق الذى كنا نقيم فيه .. ربما.. لكنه أراد أن يقطع حيرتى بعد أن احتدم الصراع بداخلى فسألنى ـ هل تعرفين البرنس ..؟

البرنس مرة أخرى .. إنه ذلك الرجل العجوز الـذى راودنى عن نفسى يوما واستسلمت له فى سذاجة المراهقة .. يا للكارثة المفجعة .. مرة أخرى يأتى من يذكرنى به !.

قلت بلهفة : - قد أعرفه .

قال :

– لا بل تعرفينه جيدا .
– ولكن ماذا بعد أن أعرفه ؟
– إن اسمى شاكر صقر البرنس
– ماذا تقصد هل هو جدك ؟
– لا بل هو والدى .. إن اسمى " شاكر صقر " أسم واحد مركب من اسمين ، ولعل هذا هو السبب الوحيد الذى جعلنى مجهولاً لديك .

أحسست كأننى غبت عن الوعى للحظات ثم أفقـت مرة أخرى لأتساءل بكل حروف الاستفهام : ماذا .. كيـف ..من .. لماذا .. ماذا يريد .. وعلامات اسـتفهام كثيـرة ، ودوار شديد يلفنى ووضعت يدى فوق رأسـى .. أريـد أن أدخل فى إغماءة عميقة لتبعدنى عن هـذا الكـابوس الـذى

داهمنى ، ولكنه نهض واقفاً ومال نحو أذنى وقال بصـوت هامس :

– هل عرفتى الآن لماذا لم أتزوجك ؟

– ماذا تقصد ؟.. إننى لست قاتله والدك ! .

– قلت ذلك بصوت صارخ وعيناى تكادان تتصلبان من شدة التحديق ، فقال بصوت هادئ :

– أعرف ذلك .. ولكنك وليدة القاتلة .

– وهل جئت الآن لتنتقم ..؟!

وتلفت حولى من شدة الخوف المسيطر على أعماقى .. إن الخوف المسيطر على مشاعرى ليس له مبرر سـوى تلك المفاجأة المذهلة ، إذن كيف بعد كـل تلـك السـنوات الماضية يأتى من ينقب من جديد فى ماضٍ اعتبرتـه مـات بأسراره ومآسيه .. كيف ؟!

قال شاكر مهدئًا من روعى :

– كنت أنوى الانتقام يوما ما .. ولكنى عندما قابلتك أردت أن أتريث بعض الوقت ؛ لأقف من جديد عند عقبات الحقيقة .

– حقيقة ماذا ؟ .

– حقيقة موت أبى..أبى الذى تركنى لأعيش وحدى وأختار العيش معكما ، أنتِ ووالدتك

– الحقيقة التى تود معرفتها ....

فقاطعنى قائلاً :

– لقد عرفت الحقيقة كاملة .. لقد فهمت شخصيتك ، ولم أجدك كما تخيلتك : تلك الفتاة العابثة الداهية اللئيمة ، عرفت أنك كنت سببا غير مباشر فيما حدث ، وقرأت خطاب والدتك التى ماتت فى السجن ، ولم أكن أتوقع ذلك اليوم الذى أتيت فيه لتسألى عنها . إن والدتك أيضا لم تكن مجرمة بالقدر الذى أدانوها به .. صحيح أنها سجِنت ، ولكن كان يجب ألا تسجن لو كان للقانون روح كما يدعون .. فأبى كان خائنًا ولم يكن نزيها فى زواجه بها ، ولم يكن نزيها فى زواجه بأمى من قبلها ، ولم يكن يحترم سوى نزواته ورغباته التى لازمته حتى فى كبره . إننى أعرف كل ذلك ولكنى كنت فى لهفة لأن أرى تلك الفتاة التى أغوت والدى ، حتى قابلتك ، فرأيت أنه كان معذورا

لأنه رجل كأى رجل، قلما يتعفف أمام امرأة يمكن أن تتهاون فى جسدها .

– ولكن لا تنس أن والدك هو الذى علمنى كيف أتهاون ، هو الذى وضعنى على حافة الانزلاق نحو الخطيئة .. لقد كنت أحلم لأن أعيش قصة أجد فيها الحب وأحس فيها بأنوثتى فى مقابل رجولة رجل يحبنى ، ويهتم بى ، ولكنى لم أكن أدرى أن كل تلك الأقدار فى انتظارى يوم وضعت كل أحلامى وآمالى عند عتبات رجل عجوز .. إنه والدك .. والدك هو السبب .

ونهضت من جلستى وصرخت بأعلى صوتى :

– لا أريد أن أتزوجك .. لا أحبك .. لقد نسيت كل شىء .. أرجوك أن تنسى معى كل شىء .

ونهضت واقفة استعدادا للذهاب وتقدم نحوى بخطوات بطيئة قائلاً :

– إننى بالفعل تناسيت ذلك ، ولكنى جئت اليوم فقط لأقول لك : إننى لا أستطيع أن ألبى رغبتك فى

الزواج بى ، وأنا أعرف كل ذلك عنك ، وأعتقد أنك أيضا لا تريدين زوجا يعرف كل ماضيكِ .. إننى أشفق عليك الآن ولكنى سمعت منك كلمة جئت اليوم على أمل أن أسمعها ، وقد قلتيها : لا أحبك .. لا أريد الزواج بك ، وقد قلتِ ذلك وعليك الآن أن تنسى كل شىء .

قال هذا وهو ينظر بعمق إلى عينى نظرات شـعرت معها بالشفقة ، فما أقسى الظروف التعيسة .. ما حسبته يوما مستترا تكشفه الأيام أمامى بلا مواراة .. لقد عشت أتظـاهر بعكس ما بداخلى ، وإن كنت قد تعمدت بعض الصراحة مع شاكر فذلك لأنى تمنيت يوما أن أعيش له ، وكم تمنيـت أن يبحر فى أعماقى لأعيش معه بلا أقنعة وبـلا توريـة .. وا أسفاه .. لكم كنت حسنة الظن بالأقدار !

ومع أننى أردد عبارات الأسف إلا أننى أشعر فـى الوقت ذاته أن " شاكر" هو الشخص الوحيد الذى يفهمنى جيدا ، ربما لأنه الوحيد الذى استطاع أن يلمـس جروحـى مـن الداخل دون أن يؤلمنى ، وربما لهذا أشعر أننى أحتاج إليـه الآن ، وأتمناه أكثر من أى يوم مضى

وتسمرت فى مكانى وأنا أسدد نظرات ثابتـة إلـى عينيه ، أريد أن أحتضنه فى بهو الفندق أمام كـل النـاس ، لكنه ربت بأنامله على وجنتى وقال وهو يتأهب للانصراف :

– يجب أن تتمسكى بما قلتيه منذ لحظات : " لا أحبك .. لا أريد الزواج بك " ، وأرجو أن يكون هذا اللقاء فاتحة أيام أخرى قادمة قد تختلف .. ثقى أننا سنظل أصدقاء كما ينبغى أن يكون الحال .

* * * * * * * *

أحس أن الأيام ليست أمينة بقدر ما هى فاضحة ، لقد أتى شاكر بعد كل تلك السنين الماضـية ليقـول لـى أننـى مفضوحة منذ أن تركت الحى الذى كنت أعيش فيه مع أمـى إلا أن وصلت إلى الملهى الليلى لكم حاولت كثيرا الهرب من الأيام بقدر ما حاولت الهرب من نفسى بحثـاً عـن شـىء مجهول وكان الزمن يجرى نحو مجهول لا أدريه ، ونحـو مستقبل حمل مزيدا من الفضائح و الضياع .

لقد كان شاكر أذكى مما كنت أتصور ، وكنـت أنـا تلك الغبية الساذجة التى كانت تقول له فى كل ليلـة " أنـت

دنيتى " فى الوقت الذى كان هو يحاول جاهدا الهروب مـن حياتها ، لقد كان يفهم كل شىء عنى بقدر ما كنت استسـلم لأحاسيسه المستفحلة كل مساء .

وأخيرا رفض الزواج بى ، ليس لأننى لا أصـلح أن أكون زوجة ، ولكن لأننى كنت بالنسبة له مجرمة يبحث لها عن البراءة ، ونجح أخيرا فى مواجهتى ، وفشلت أنـا فـى مواجهة نفسى التى أفضل الهروب منها ، وكأننى خلقت لكى أهرب وأهرب .. لست أدرى إلى أين ؟ غير أنى لم أسـتطع السيطرة على مشاعرى يوما ، ولم أستطع أن أحدد ما أريده بالضبط .. فتارة أحب الرقص والثراء والشـهرة ، وتـارة أرفض كل شىء وأكره كل شىء حتى نفسى ، ومرة أحلـم بالزواج والاستقرار والعزوف عن التبرج وحيـاة اللهـو ، ومرة أخرى أضرب بكل شىء عرض الحائط أمام سـاعات المجون والعبث . مرة احتقر سهير وتصـرفاتها وسـلوكها المفضوح ومرة أخرى أذهب إليها بنفسـى لأقضـى معهـا الساعات الطوال وكأنها صديقتى الحميمة ، ورفيقـة دربـى المخلصة ، إلا أننى أعرف ماذا أريد الآن .. أعـرف أننـى كرهت كل شىء ولا بد أن أعيش بقية عمرى حياة متواضعة

هادئة وكفانى عبثًا بقصد وبلا قصد ، لماذا أدع نفسى لعبـة فى يد الأيام لتسخر منها وتلهو بها ، لماذا لا أتحصن ضدها .. لماذا لا أنسى سهير وكل رفيقات السوء ؟ لماذا لا أعتزل الرقص وحياة الليل .. لماذا لا أتزوج برجل .. أى رجـل ؛ لنحيا معا حياة شريفة ملؤها الاحترام .. أتعلـم منـه العفـة والفضيلة ؟

أعترف بأننى مخطئة ، ولكن عزائى الوحيد أننى لم أصنع الماضى ولا الحاضر ، هذا ما أشعر به الآن فى قرارة نفسى ، وهذا هو جوابى على كل التساؤلات .

وبعد عناء التفكير الدائب ومحاولة البحث عن ثغـرة نافذة للخروج من حصار ذلك الكابوس الجاثم فوق صـدرى الذى يقول لى دائما : أنتِ فاشلة .. داعرة .. مومس .. أنت لا تستحقين الحياة ، كان الحل الوحيد أن أسير كما يتـراءى لى فى صميمى ، وكما يملى على ضميرى الذى يئن ويعلن الرفض مع كل خطوة .. يتملكنى شعور بأننى أسـير ضـد الحياة وليس معها .. إننى أتلاشى كل يوم من الـداخل كمـا يتلاشى الزمن من حولى .. كل يوم يتهدم جزء من كيـانى النفسى ومن ملكوتى الداخلى كما يتهدم الجدار القديم بفعـل

الرياح والشمس والمطر مع فارق التشبيه ؛ فالريح والشمس والمطر خير ، وأنا لم أتعرض إلا لكل ما هو شر ، قد أكون مسئولة أو شريكة على نحو ما ، هذا لا أنكره ، ولكن قد لا يجدى الآن البكاء على اللبن المسكوب . وربما لهذا قـررت الخروج إلى الحياة بثوب جديد .. قررت بداية أن أغادر هذا الفندق بلا أدنى ندم أو تردد ، فما أروع أن أغـادر أجهـزة التكييف والابتسامات المرتسـمة بـلا روح !.. قـررت أن أعيش حياة أخرى تحت الشمس والهواء بعيدا عـن زيـف العلاقات والحياة المعلبة هذه .

وكانت خطواتى البطيئة إلى الخارج .. سأخرج إلى الحياة وسط الشارع العريض .. هنا حيث أتأمل الـدنيا مـن جديد ؛ لأحبها من جديد . وتوقفت أخيرا أمام مكتب المعلـم سليمان السمسار ، إنه اليوم الذى يجب أن أؤرخ به لحيـاتى القادمة .. يوم استلامى الشقة التى سأعيش فيها بعيـدا عـن الفندق وعن أصدقاء اللعنة ، غير أن هاتفًا فى نفسـى بـدأ يتصاعد بالسؤال : لماذا لا تبيعين الملهى ؟

* * * * * * * *

لم أكن حريصة على لقاء شاكر ، وكان هو كـ ذلك ، وكأنه لا يعرف عنى غير اسمى ، وكنت أنا كـ ذلك .. لقـ د أراد أن يبتعد عنى وينسى معرفته لى فأعلن عن بيع الملهى ، ففجأته أنا أيضا بالموافقة ، وهكذا اتفقت إرادتانا على بيعه ،أو لنقل اتفقت قلوبنا على الفراق ، ولتبقَ الذكريات وإن شئنا فلتذهب الذكريات ، فليس كل الماضى جميل ، وليس كل ما فيه من جمال يخلو من الندم .

وتحدد يوم المزاد .. لنبع هذا الملهى كما اشتريناه ، وليتجل الفراق فى أعظم صورة له . . إنها لحظة للوداع كما أنها للبيع .

اقتربت من شاكر الـ ذى يتخـ ذ لـ ه مجلسـ ا بـ ين الحاضرين ، وسألته بصوت خفيض يؤثرالصمت على الكلام :

– لماذا أعلنت عن بيع الملهى ؟

التفت إلى ، والتقت عيناى بعينيه وسادت بيننا لحظة صمت قصيرة قطعها بنفس التساؤل:

– ولماذا وافقتِ على البيع ؟

- وهل تجيب عن السؤال بسؤال آخر ؟
- قد يجوز أن أسأل الراقصة لماذا اعتزلت الرقص ، وأعلنت عن بيع الملهى ، مثلما أنها تريد أن تسألنى : لماذا لم تتزوج من الراقصة وتُدر الملهى ؟
- أنت تود الدخول فى الماضى !
- الماضى شىء رائع وجميل.
- قد يكون كذلك بالنسبة لك .
- وبالنسبة لكِ ؟
- بالنسبة لى شىء مختلف تماما .. شىء محزن يجب أن أنساه ، وربما لذلك وافقت على بيع الملهى .. أريد أن أحيا حياة جديدة أخرى تختلف .
- لست أفهم ما تقصدين .
- أقصد الحياة العادية .. الحياة خلف جدران تسترنى مع رجل أحبه ويحبنى .. إننى أتوق شوقًا إلى إنجاب طفل يأخذ منى كل ما لم آخذه من الحياة .. طفل أعطيه الـ ....
- تقولين: طفل . . تقولين : أعطيه ؟!
- ألم تتأخرى ؟!

– ما دام هناك أمل فقد يستجيب القدر .

– ولكنكِ .... أقصد ماذا ستعطينه .. إن فاقد الشىء لا يعطيه .. أنت راقصة لا تعطين سوى الإثارة والمتعة المرذولة ، والطفل يحتاج إلى أشياء أخرى .

– إنك تتحدث كما لو كنت قديسا .. إنك تعرف جيدا أن ظاهرى يختلف عن باطنى ، وقصتى ليست غريبة عنك .

– أعرف ذلك تماما ، وأعرف أيضا بعيدا عن كل الأحداث التى مرت بها حياتك أنك لو لم تَكُنِى راقصة لتمنيتى أن تكونى راقصة .. كل شىء فيكِ خُلِقَ من أجل الرقص والعبث : جسدك المثير هذا .. جمالك الأخاذ .. أحاسيسك ورغباتك المتأججة .. أحلامك وأمانيك الدفينة منذ أن كنت طفلة فى العاشرة ، وصبوتك إلى دنيا غير التى عشتِ فيها ، وعليك أن تعودى إلى الوراء بذاكرتك ؛ لتتذكرى كيف كنتِ تقضين ليلتك ، وكيف كانت أمانيك؟.

لا شك أن تمردك هذا ونكرانـك لحياتـك الهادئـة البسيطة كان معناه أن تتحولى بقدرة قادر إلى راقصـة لهـا

مطلق الحرية فى التبرج والخلاعة والعبث والفجور والتعرى .. ولها فى مقابل هذا الدنيا الحمراء التى تريدها .. إنك يـا عزيزتى لم تتوصلى بعد لفهم نفسك .. إن طبيعتك الحمراء ، وتركيبتك النفسية وتكوينك الجسدى ، كل ذلك لا يتفق إلا مع الرقص والسهر والدعارة ، ولأن تربيتك غير ذلك ،ولأنـك نشأت فى بيئة لا تعرف كل ذلك ، فقد عشـت تصـارعين الواقع حتى كانت الفرصة للصعود نحو ما تريدين فصعدت ، ولكنك رجعت أخيرا تفسرين الصعود على إنه محض انحدار .. لماذا.. ربما لأن نشأتك الأولى وبيئتك هما اللذان ربيا فيك الضمير الحى الذى يئن الآن ، وأخيرا .. أخيرا تريدين أن تنجى وتريدين أن تعطى .. لست أدرى أى عطاء ذلـك مـا تقولين ..؟!

- إنك تهيننى يا شاكر .. إنك تقسو على كثيرا .. لست أدرى أعدو أنت أم صديق ؟!
- هى هكذا الحقيقة دائما مؤلمة .

لقد كانت كلماته قاسية مؤلمة ولكنهـا كانـت عـين الحقيقة التى لم تتحملها مشاعرى ، فبكيت والدموع سحت من عينى بغزارة ، وامتدت ذاكرتى إلى الوراء قرابـة خمسـة

وعشرين عاما مضت ، عندما أنجبت طفل الخطيئـة داخـل المصحة النفسية وتذكرت كيف تخلصت منه ، وعند كل عتبة من عتبات الذكريات كانت دموعى تفيض بغزارة بينما شاكر كان يتأمل دموعى .

لست أدرى كيف قست نفسى علـى ذاك الطفـل ، ومجته بعيدا ، ولم تعطيه قدر أنملة من الحـب والحنـان .. لست أدرى كيف تحولت وقتها إلى شىء جامد بليد يختلـف تماما عن الإنسان ، شىء يكره الأطفال ويود خنقهـا ، لقـد نَمتْ تلك المشاعر الطائشة بداخلى آنذاك ولأننى لم أستطيع قتله يومها آثرت الخروج بعيدا عن الدوامـة وفشـلت فـى مواجهه الموقف المتنافى مع مشاعرى ورغباتى ، وآثـرت الهروب إلى اللاشعور وانفصلت عن ذاكرتى .

اليوم أفصح عن رغبة جديدة تولدت منذ وقت قصير .. رغبة أشعر بها لأول مرة .. إنها رغبة حفظ النوع كمـا يسمونها .. إنها الرغبة فى أن أصبح أماً .. الأمومة بداخلى تريد أن تخرج من قمقمها إلى دنيا الطفولة البريئة .

قهقه شاكر وهو ينظر إلى دموعى المنهمرة وشهقاتى المتقطعة ، وانفرجت شفتاه على أخرهما وهو ينظـر إلـى بسخرية وقال :

- ولماذا كل هذا الزهد وذلك العزوف ، لقد تغيرتِ كثيرا .. من يصدق أن الراقصة صاحبة الملهى الليلى الشهير ، النجمة الشهيرة التى تحلم أن تحلق عالية فى سماء الفن تريد الآن أن تغلق نفسها خلف حوائط شقتها الجديدة لتعيش لرجل واحد ؟!.

- إنه لن يكون رجلاً واحدًا .. إنه سيكون بالنسبة لى كل الرجال .. رجل تتجمع فيه كل صفات الرجولة بحيث لا أرى بجانبه من الرجال أحدا . إنها سعادتى يا شاكر ، ولابد أن أسعى نحوها ؛ فالعمر يمضى سريعا والأيام تتكسر والثوانى تذوب ، وأنا كما أنا بلا خطوات ، كل الأمانى صفر ، والعمر صفر ، الذكريات صفر ولا معنى لأن أعيش .. أن أكل .. أن اشرب .. أن أتلذذ ، يجب أن يكون خلف كل ذلك هدف .. هدف أعيش من أجله .. لاشك إنها الأسرة والأمومة والاستقرار .

– لقد تغيرتِ كثيرا ، إنك تحاولين المضى فى اتجاه جديد . ولكن هل ستنجحين ؟

– أعرف أنه شىء صعب . ولكن لماذا لا أحاول ، ربما أنجح ، وطالما أننى سأجد السعادة فى هذا الطريق فذلك حافز على السير .

– إن ما أسمعه الآن منك شىء يختلف تماما عما سمعته منك فى الماضى عندما كنت ترقدين بين ذراعى لتوقظين أحاسيسى الشتائية كل مساء وتستسلمين فى سكرة عارمة كأنك تتخدرين برائحة العرق المتصبب من خلايا جسدى .. لاشك أنك امرأة أخرى تختلف عن تلك التى عرفتها .

– إنها الظروف هى التى تجعل من الإنسان ألعوبة أحياناً ، وأحياناً أخرى قديساً أو ملاك يتهادى فى خشوع نحو النور والحق والخير .

– لا .. ليست الظروف هى التى تشكل الإنسان ، إنها قد تؤثر على خطواته فقط ، ولكن يبقى الإنسان .. الجوهر الحر الذى يختار دون أدنى تأثير على إرادته .

وقطع علينا حديثنا دخول سهير التـى تـدب أولـى خطواتهـــا نحـــو الجلســـة ، ومـــا أن رآهـــا شاكر حتى أشار إليها بيده محييا .

لقد حضرت سهير جلسة المزاد ، ولكن هل سـتكون من المضاربين ؟ ، هذا مالم أكن أعرفه وقتهـا .. ومـا أن أرتفع صوت المنادى وافتتح المزاد حتى تقدمت سهير وتقدم آخرون.

– يا لسهير .. إنها قملة الأثرياء ، قد زحفت نحو الثراء حتى وصلت إليه .. ربما تكون المضاربة باسم صديقتها الثرى " أنور شلبى " .؟ .

عندما ارتفع الثمن إلى مليون جنيه وقفت سهير فجأة وصاحت بصوت عال : اثنين مليون . وتوقـف بعـد ذلـك المزاد .. رحم ا أمك يا سهير لقد عاشت وماتت وهـى لا تملك أكثر من مسرح خشب متجول كانت تقدم فيه رقصـات الغوازى والمنولوجات الخليعة ، التى تفتقد الأدب والحيـاء ، لقد جاء اليوم الذى تشترين فيه ملها ليليا فخما فـى شـارع الهرم .. لقد آن لجسدك أن يشْتَرى بالـذهب ، وآن لـكِ أن تربحى الكثير .

وأُغْلِقَتْ الجلسة ، وأغمضت عينى اللتين تتحفـزان للدموع ، وارتعش جسدى رعشة غريبة .. يبدو أنه نفـض غبار الآثام والرذائل عنه ، وفتحت عينى أخيـرا ، لأمسـح دمعة فاضت تتلصص على خدى .

وتقدمت نحو سهير لأهنئها :

– مبروك يا سهير

ابتسمت سهير وهى تتأمل عينىَ الدامعتين وقالت :

لم أكن لأسمح لشخص غريب أن يمتلك الملهـى ، فاشتريته مناصفة بينى وبـين صـديقى " أنـور شـلبى " وابتسمتْ ابتسامة أخرى وقالت :

– يبدو أن هذا الملهى كُتِب عليه أن يكون من نصيب رجل وامرأة على الدوام .

قلت سهير وأنا أمسح دموعى :

– لم تكن المفاجأة أن تشترى الملهى أو يشتريه أنور شلبى أو تشترياه سويا ، فأنتما الإثنان ثريان وتمتلكان المال .. ولكن المفاجأة التى لم أكن أتوقعها هى موافقة شريكى عن بيع الملهى فى نفس الوقت الذى أردت أنا بيعه .. ذلك التوافق يجعلنى أفكر كثيرا فى الأمر .. فهل كان ذلك التوافق مجرد صدفة ؟ أم ماذا يكون ؟

ومطت سهير شفتيها دلالة على عدم فهمها لما أريـد أن أفهمه ، أو كأنها أرادت أن تقول وما دخلى أنا بما بينكما من أمور .

وانصرفت سهير من أمامى بتراقص واضح مغتبطة ، فرحة ، وتركتنى فى حيرتى وتساؤلاتى ، لـتجلس أخيـرا بجوار أنور شلبى الذى كان قد حضر منـذ قليـل وتبـادلا التهنئة .

لم يبقَ إلا أن أنصرف بعد ختمت قصـة صـراع مرير .. قصة حمراء تقطر خمرا وفسقًا ..

قصة ذُقْت فيها شظف العيش تارة ، وتـارة أخـرى كنت فى نعيم وبزخ .

إنها قصة غريبة تنازلت فيها عن الشـهرة بمحـض إرادتى ؛ لأعـيش كملكـة بـلا عـرش .. تـرى – هـل سأكون سعيدة ؟!

الشعور بالوحدة شىء رهيب .. ليس من جديد سوى التسكع بين الأزقة ، وإطلاق النظرات المنكسرة من خلـف زجاج نظارتى المعتم .

لحظات الشرود تكاد تقتلنى .. شرود إلى لا شـىء وفى اللا شىء .. لم تعد هناك أحلام جديدة .. لقـد تحولـت الأحلام إلى كوابيس مزعجة ومؤلمة .. لم أعد كما كنت فى

صباى أتلذذ بالكتب والأحلام ، ولم أعد كما كنت فى دوامـة الشباب أتلذذ بالرقص والعربدة والثراء .

أنا الآن مسخ أخر .. امرأة عارية تقف أمام المـرآة تتفحص جسدها جيدا ثم تشير بإصبعها إلـى ذلـك الجـزء الوحيد الذى يعترف بصراحة بـالزمن ، رغـم المسـاحيق والألوان .. جميعها لم تفلح فى إخفاء آثار أقدام الزمن الـذى يحطم بمشيئته خلايا الوجه ، ويمحـو نضـارته ، ويحـول حمرته إلى لون أخر يختلف تمامـا تغلـب عليـه الصـفرة الشاحبة .

ووقفة أخرى .. كنت أرتدى فيها ملابسى ، وابتسامة جافة ترتسم على شفتى وأنا أتصفح أوراق إحدى المجـلات الفنية .. إنها سهير .. تحاول من جديد لتقـول إننـى فنانـه موهوبة .. تحاول العودة بى إلى الوراء والأضـواء التـى رحلت عن دنياى .. تأملت الصورة وتـذكرت الماضـى عندما كنت أمضى بين الكؤوس والأضـواء والعـن مقـدم الصباح ، وأتمنى أن تخسف الشمس بقية عمرى لأعيش فى أحضان ليل دائم .. كل الأيام .. كـل الراقصـات .. كـل

ضحكة بغنج والتواء .. كلها تختصرها كلمات المجلـة إلـى عبارات رنانة ومانشيتات صارخة وحكايات منمقة .

– جزاك ا يا سهير .. ماذا تريد منى تلك المناضلة على طريق الفن ؟ ، وانطلقت منى ضحكة مكتومة كادت تتحول إلى سعال وتساءلت :

– أحقاً أنا فنانة الجيل ؟!.. وهذه الصورة الفاضحة! .. يا لهولى .. فخذى يكاد يتعرى عن آخره ، ونهداى يكادان ينبلجان من فتحة واسعة فى أعلى القميص .. شعر أسود استرسل حتى الخصر.. كل ذلك ؟! .. ماذا يكون ؟ إنه استعراض جسدى مثير .. والكلمات أكثر إثارة .. أشهد أننى لم أقل كلمة واحد منها .. كلمات لم أصل بعد إلى مستوى تنميقها وتلاوينها !.

ومرة أخرى أعاود الضحك ، ففى مدينتى كل إنسان فنان ، وكل بدعة فن ، وكل شذوذ ونشـوز فـن .. حتـى الخرافة فن !. والفنان فى مدينتى شىء خارق غير مـألوف وغير مقيد ، تراه يتشكل حسب الموقف فتارة تراه راهبـا قديسا وتارة أخرى عابثًا عربيدا ، يؤمن بكل القيم ، ويكسـر

أيضا كل القيم . لقد سئمت الكلمة وأحس بالرياء والنفاق بين أنياب من يلقبوننى بها .. فأنا لست فنانه بل راقصـة تهتـز طرباً كأى إنسان يتمايل حين يطربه الغناء والموسيقى .. أنا لست فنانة بل بائعة هوى وتاجره جسد ، كل ما كان يحـدث خلف الستائر المسدلة من عربدة جسدية وكل ما فعلتـه مـن إغراءات حين أعرى عن جسدى وكل ما قمـت بـه مـن حركات بهلوانية حينما كنت أرقص .. كل ذلك إنمـا هـو الاندثار بعينه .. لقد كنت أبيع نفسى قبل جسدى ، لقد خلعت الحياء بعيدا من زمن ، لقد بـدأت التحلـل الانسـلاخ مـن إنسانيتى ، حيث عشت لأجنى كل يوم ثمن تحللى وخلاعتى ومجونى كنت أشعر كل لحظة بأننى لست أنا وهـاتف فـى أعماقى يرحل بى نحو الماضى عندما كنت أعـيش خلـف جدران مقفلة أحلم وأحلم بفارس أبيض سيأتى ليخطفنى فوق صهوة جواده .

عزائى أننى لم أصنع خط حياتى ولم أتمن يومـا أن أصبح هكذا فأنا لم أختر أمى ولا أبى ولا طبقتى ، ولم أختر فقرى أو ثرائى ، ولم أحكم على أبى بالموت .. ولـم أُمِـتْ

والدتى ، ولم أفرض على رجل مثل زوج أمى أن يقع فـى غرامى .

كل ما فعلته كان تحصيلاً لحاصل ، فأنا مفعول بهـا وفيها ولست فاعلة .. إننى بطلة فى رواية كتبتها يد الأقـدار .. مَسخرة لأن أعيش حياة رسِمتْ هكذا .

لقد كانت وقفة عصيبة تلك أمام صورى المرتسـمة فوق صفحات تلك المجلة التى تحدثت سهير إليها ، وقالـت بعميها ونفاقها وكذبها المكشـوف إننـى فنانـه موهوبـة ، وراقصة محترفة ، ومليونيرة تخطو نحو الإنتـاج ، وقالـت أيضا إن ثقافتى فرنسية .. يالك يا سهير من خادعة مضللة ، فيا ليتك حقًا عرفت من أنا ؟! أتساءل من أنا ؟.. لست أدرى ، ولا أملك الإجابة على هذا السؤال .. فلكى أجيـب علـى السؤال يجب أن أكون فاعلة ولست مفعول بها وفيها ، فأنـا لست متحكمة ولا مسيطرة على شىء ، منذ ولادتى .. فكيف أدرى حقيقة من أنا ؟!

ربما أنا شىء متقلب .. غير ثابت وغير مستقر ، قد أقول إننى شبح .. يتراقص يوما ويعربد يوما ، ويلبس ثوب العفة يوما آخر ، فقد أقول إننى شبح بلا ظل وبلا امتـداد ،

عزائى أن المقابل كان مزيدا من الأموال تدفقت على من كل جانب .. فى كل هزة خصر .. وعند كل ضحكة بغنج وفى كل نظرة ساهية .. عندما يتراقص نهداى ويتعـرى سـاقاى كان المقابل أكثر وأكثر .

أستطيع أن أحسب الآن كم كانت تساوى الدقيقة مـن حياتى . كل ذلك العاد هو ظلى وامتدادى لكنـه ظِـلٌ فـانٍ وامتداد خادع ، ماذا لو أنفقت كل تلك الأموال علـى البـذخ والترف أو دبرتها إلى الغد الآتى ؟ بالطبع لن أصبح شـيا أفضل فى الحالتين .. ما أتفه ذلك المقابل وما أبخس الثمن ، أتساءل كثيرا بينى وبين نفسى :

– لماذا لا أتوقف عند هذا الحد ؟

لكنى أجهل الإجابة ولا أعرف لها سبيلاً ، فأنا لست أنا .. أنا مسخ جديد ، وغدا مسخ آخر ، وأنـا دائمـا فـى انتظار المسخ ، فأنا لم أصنع نفسى كبقية البشر .

كل ما أعرفه أننى فقدت الحب وما زلت أبحث عنه ، وعلى أية صورة ؛ حتى وإن كانت صورة شاذة وغريبـة ومشوهة ، المهم أن يستقى الجسد ، وتنطفئ الشهوة المكبوتة

بانطلاقها من معاقلها عندما يتعانق الجسد بالجسد ، وليبقَ لى الحب فى صورته المشوهة، ولتلتقِ الأجساد طالما لم تلتـقِ الأرواح ولم تتعانق .

قد أنسى الأسئلة عندما أنطلق بسيارتى بين الـدروب بحثًا عن شاب يافع يلعق بقايا أنوثتى ويدغدغ أطراف الجسد المتراخى بين أحضانه ، ولأبقَ أنا كما لا أريد أن أكون ، فقد تقلبت الأهواء على نفسى وتملكتها منذ الطفولة منذ أن كنـت أرتمى على فراشى لأتمنى أشواك رجل خشن يجلِسنى فـوق حِجرِه ويقبلنى ، وأحلم كثيرا بشىء أعمق من القبلات .

حتى عندما حاولت أن أجرب الفضيلة وتحصنتُ ضد مكارهى وثروتى وأهوائى فى شقتى هذه التى أعيش فيهـا الآن .. بلا رقص وبلا ملهى ، وتحصنت واعتزلت الجميع ، وجدت نفسى أفشل فى التجربة ؛ لأبحث عنهم من جديد بين شوارع مدينتى المزدحمة فى صورة شاب أتعرف عليه لأول مرة ، لا لشىء إلا لأقضى ليلتى بين ذراعيه .

* * * * * * *

لم اكن أتوقع أن تصل سهير إلى سكنى يوما ولكـن بعد أن قرأت المعروض فى المجلة الفنية عنـى عرفـت أن سهير وراءه ، وتوقعت لقاءها فى أى وقت .

حتى فاجأتنى يوما بزيارتها فى شقتى .. تـرى مـا الذى أتى بها اليوم .. ترى كيف عرفت عنوانى .. يا لك من داهية يا سهير !.. أسئلة كثيرة كانت تدور فى رأسى ، وأنـا أنظر إليها خلف شراعة الباب .. نعم إنها هى سهير بلحمهـا وشحمها وأخاديد جسدها المثير .

وفتحت لها الباب وخطت نحو الداخل دون أن تنطق ببنت شفة ، لقد كانت منهمكة فى قراءة علامـات الدهشـة والمفاجأة على وجهى ودون كلمة أيضا احتضـنت سـهير، وتلامس جسدانا فى عناق طويل وكأننى انتظر مجيئها منـذ زمن طويل ، أحسست بالفرحة تعم أجواء نفسى المهشـمة . أيكون هو نفسه ذلك الشعور الذى يشرئب نحو الماضى فـى هفوة وحنين ؟.. لاشك أنه نفس الشعور ذلك الـذى أشـاع البهجة فى نفسى عندما رأيت إحدى علامات الماضى .. إنها سهير تلك التى كنت أكره دنياها ومعاشها ، هى نفسها التـى أشعر بالشوق إلى مجالستها بعد ذلك الفراق الطويل . لقـد

تغيرت سهير كثيرا كأنها "برنسيسة " عصرها تضـع فـوق صفحة وجهها ألوانا كثيرة من المساحيق الحمراء والصفراء والخضراء ، ولم تكن سهير تهتم كثيرا فى الماضى بأن تلون صفحة وجهها بهذه الدرجة ، فلقد كانت تخشى دائمـا حـر الصيف وحبات العرق من أن تخلط تلك الألوان على وجهها؛ فتبدو كأنها لوحة زيتية سالت فوقها الألوان فى غفلة الفنان ، لكنها الآن تهتم كثيرا بأن تثبت للجميع أنها فنانة عظيمة حين تضع على وجهها ضوان زوقها وحسها المنسجم ، فلم تعـد تخشى الآن حر الصيف ولا سيولة العرق بعد اقتنائها سيارة مكيفة . همست فى نفسى وأنا أتأمل وجه سهير: ـ رحم ا أمك يا سهير لقد طافت بك كل الأحياء الشعبية لتعرض ألوانًا من فنها الرخيص على مسرحها سهير لقد طافت بـك كـل الأحياء الشعبية لتعرض ألوانًا مـن فنهـا الـرخيص علـى مسرحها الخشبى المتنقل .

بعد أن تعانقنا جلست سهير فى تيه وعظمة كعظمـة السلاطين وأشعلت سجارتها المستوردة؛ فقالـت لهـا وكلـى إعجاب بتلك الهالة التى تلف نفسها بها : ـ إنك أنيقة جدا يا سهير . فردت وهى تنتزع سيجارتها من بين شفتيها:

- وماذا كنت تتوقعين غير ذلك ؟
- آسفة لم أقصد ذلك ، لكنى أردت أن أبدى إعجابى بزينتك وفستانك.
- فضحكت سهير وقالت بصوت كله كبرياء :
- إنه من لندن .
- لندن مرة واحدة ..؟
- وهل سمعت قبل ذلك عن لندن على مرتين ؟
- فضحكت من مزاجها وتساءلت مرة أخرى :
- و لماذا لندن بالذات ؟
- هه مجرد زيارة للتسوق والسياحة .
- وأى الأماكن زرت فى لندن ؟
- لقد زرت أماكن كثيرة .. يكفى فى لندن الحدائق الفسيحة الخضراء .. إننى لا أنسى ما دمت

حية حديقة " الهايد بارك " .

- هل كنت لوحدك يا سهير فى زيارة لندن ؟
- نو.. نو.. لقد كان معى صديقى " أنور شلبى" .
- أما تزالان على صداقتكما ..؟
- ماذا تقصدين ؟!

- أقصد ألم تتزوجا بعد ؟
- ولماذا نتزوج ؟ .. إننا أكثر من زوجين .
- أوه .. وهل يقاسمك الفراش ؟
- ولما لا ؟.
- أوه .. نسيت إنك سهير !!

فردت سهير بضحكة ساهية طويلة أحمر على أثرها خداها ، وقالت بعد أن هدأت من ضحكتها:

- وهل نسيتِ أيضا أننى لم أعد سهير التى عرفتيها فى الماضى ؟
- لا .. بل أقصد إننى خاصمتُ الرجال .
- يا خسارة ولماذا تلك القسوة والعنف ؟
- إنك تسخرين منى يا ....
- لا بل هى كلماتك المتناقضة " كيف تقولين إن أنور شلبى يقاسمك الفراش .. ثم تقولين إنك خاصمتِ الرجال ؟

فردت سهير بقسوة :

- أنور شلبى يا هانم هو كل شىء فى حياتى .
- إذن لماذا لم تتزوجا ؟

- لأنه لا يريدنى زوجة .
- إذن كيف يريدك ؟
- يريدنى هكذا .. كما نحن.. صديقين .. عاشقين .. شريكين فى العمل ، آه يا هيام ..إنك تثقلينى بسخريتك تلك وبأسئلتك الكثيرة ... وهل نسيت أنت أنك عشت مع " شاكر " بلا زواج فى شقة من قبل ؟
- معك حق ولكن عشت معه على أمل الزواج .
- لا يا حبيبتى .. أنا لا أحب الزواج .. ورغم ذلك فأنا أحب أنور شلبى كثيرا
- وهو... ألم يحدثك يوما فى الزواج ؟
- بل حدثنى ..
- وكيف كان حديثة ..؟
- إنه يريدك أنت يا هيام .
- ماذا تقولين ؟ !
- أقول إنه حدثنى كثيرا عنك .. رغم أنه لم يرك سوى مرات معدودة ، ولكنه يتمنى أن تقبلينه زوجاً لك .

- كيف هذا ؟.. يبدو أنه لا يقدر الأمور جيدا .. كذلك أنت يا سهير .. ألا تعرفين إنه أصغر منى سناً بفارق كبير .. ألا تعرفين إننى لا احب هذا ال "شلبى " ولا أريد رؤيته ولا أحب طريقته المبتذلة فى الغناء ، ولا طريقته فى الحديث .. إنه شخص سوقى أكثر من اللازم يا سهير .
- معنى هذا أنك لا ترفضين فكرة الزواج ، ولكن ترفضين المتقدم للزواج منك .
- آه يا سهير إنك تضغطين زرا كَتَبتُ عليه منذ زمن عبارة "ممنوع اللمس " .. الزواج يبدو لى كأنه شيئ خرافي .. شيئ مستحيل بعد أن وصلتُ إلى هذا الحد من الفشل والإحباط .
- فشل .. فشل .. إحباط .. لماذا تقولين هكذا يا هيام ..؟
- إنى أقول الحقيقة
- يبدو أنك لم تقرئى مجلة " النجوم اللامعة " فى عددها الماضى ؟

– بل قرأتها وقرأت أيضا " الريبورتاج " الكاذب الذى كتب عنى وعرفت بعد قراءته كيف أن الحقائق يمكن أن تختفى خلف جدران التضليل والنفاق .

– كيف تقولين هذا يا هيام .. وقد كان هدفى أن أقدم لك خدمة عظيمة بقدر تلك الصداقة التى نشأت بيننا يوم ما ، وما زالت حتى الآن تشع المحبة فى صدرى نحوك .

– إن الخدمة التى على الكذب والتضليل هى فى الحقيقة نقمة .

– أوه يبدو إنك لم تفهمينى يا هيام كما إنك لن تفهمين حقيقة العصر الذى نعيشه .

– ماذا تقصدين..؟

– أقصد أننى عندما طلبت من المجلة أن تكتب عنك كان قصدى مساعدتك على أن تجدى لك طريقًا وسط زحام البشر.

– يبدو أنك نسيت يا سهير أننى اعتزلت ذلك الزحام منذ زمن

- لا .. إنك لم تعتزلى بل هربتى .. وهربتى بعد أن فشلت .. فشلت فى الحب والزواج والرقص
- أنا لم أفشل فى الرقص يا سهير .. ولكنى كرهت أن ارقص كل ليلة لأتلوى بجسدى كغزالة شاردة تثير غرائز الحيوانات اللاحمة .
- أنا لم أقصد أنك فشلت فى الرقص بهذا المعنى .. وإنما قصدت إنك كنت متواضعة جدا عندما أكتفيتى بشهرتك الضئيلة وثراءك المتواضع ، ولم تحاولى أن تقدمى نفسك لأبناء جيلك بصورة واسعة .
- وماذا كنت تنتظرين منى أكثر مما فعلت ؟
- كنت أنتظر منك القفز إلى السينما .. إلى الأفلام يا عزيزتى .. إلى الشهرة التامة ..لا الشهرة المحصورة بين زوار الملاهى وأبناء الطبقات المعربدة .

كنت أعرف ما ترمى إليه سهير .. إنها تريـد لـى الرجوع إلى حياة الفن مرة أخرى والـرقص والموسـيقى والطرب بعد أن امتلكت هى الملهى ، لاشك أنها تريـد لـى الرجوع عن طريق ملهاها .. تريـدنى بضـاعة مربحـة ،

تريدنى أن أبيع نفسى فى ملهاها كما فعلت هى فى الماضـى عندما كانت تأتى كل ليلة لتعمل ساقية فى ملهاى وفى نهايـة السهرة كانت تصطاد من زبائن الملهى أحد الأثرياء ؛ لتبيـع له جسدها لبضع ساعات فى شقتها التى تشبة الوكر .

ولاشك أن سهير بمجيئها إلى مرة أخرى تعرف أنها تشترى لملهاها امرأة مثلى بخبرتهـا العريقـة فـى سـلوك الملاهى .. ولكن هل ستنجح سهير أن تجعل منـى امـرأة أخرى .. امرأة تبدأ من جديد بعد منتصف عمر الانحدار ؟.

وتسمرت عيناى فى شرود وأنا أنظر إلـى سـهير شيطانة الملاهى والكباريهات والفنادق التى تقدم قائمة الجنس قبل قائمة الطعام .. تريد الآن أن تغتال بقية إرادتى ورغباتى لتقطع كل نسيج حياتى وتعيد حياكتها من جديد .

وعادت سهير إلى خط سيرها وهى تتأمـل صـمتى وشرودى ، فأخرجت من حقيبة يدها مجلة جديدة فـاخرة .. ورمتها فى حجرى وقالت بصوت كله ثبات وثقة :

– هل تعرفين إننى وصلت إلى السينما فى أوربا ؟

وربحت أتصفح المجلة الجنسية التى تصـور سـهير عارية كما ولدتها أمها مع بعض العراة من الرجال والنسـاء فى أوضاع جنسية مثيرة .

ـ قاتل ا   شيطانك يا سهير.. كيف وصل بـك الحال إلى هذا الحد ؟!!

فردت سهير باستهزاء :

ـ يبدو أنك بلهاء يا هيام .. ألا تعـرفين أن هـذه المجلة هى إعلان عن فيلم سينمائى قمت بتصـويره فـى أوربا مع هؤلاء الممثلين الأجانب . ـ ولكن .. كيف .. إنه فيلم جنسى ؟

ـ تقولين كيف ولماذا .. وما ومن ..لا أحب سـماع تلك الأسئلة يا هيام .. يبدو أنك نسيت أننى سهير التى كانت تتعرى كل ليلة لترقد تحت جسد رجل عارى يتكوم فوقهـا ليقلب معالم جسدها رأسا على عقب ، كل هذا من أجل ملاليم .

ـ تقولين الآن ملاليم ؟!

ـ نعم فهى بالفعل ملاليم إذا ما قورنت بما حصـلت عليه مقابل تصوير هذا الفيلم الذى   ـ تتحدث عنه المجلـة التى بين يديك .

ـ معنى هذا أن أنور شلبى صديقك قد أشترك هـو الآخر فى فيلم ، طالما أن الأمر مربح لهفه الدرجة ؟

– نعم لقد عمل فى فيلم آخر .

– ولماذا آخر .. لماذا لم تعملا معا فى فيلم واحد ؟

– لأنه أراد أن يتذوق طعم الأجساد الأوربية بعيدا عنى .. لقد .. تأخرت كثيرا يا هيام .. يجب أن أذهب الآن .. وأعدك بأننى سوف أحضر مرة أخرى .. أوه .. لقد نسيت أسألك يا هيام عن عيد ميلادك

– إنه بعد شهر من الآن .

– إذن سأحضر حفلة عيد ميلادك القادم ..وسوف يكون معى أنور شلبى ليغنى بعضا من أغانيه التى لا تعجبك .

وانصرفت سهير وهى تضحك بصوت مسموع .

* * * * * * *

كانت اللافتة الكبيرة التى تغطيها الأضـواء تلفـت الأنظار .. " البرنس للطباعة والنشر " فكرت كثيرا قبـل أن أنزل من سيارتى : – كيف سيكون اللقاء ؟ .. إننى لم أنـس

بعد أن ذلك الذى يقف بالباب يعرف عنى أكثر ما أعرفه عن نفسى ، ولم أنس أيضا أننى تمنيته يوما شريكًا لحياتى ، ولم أنس كذلك أنه شاركنى الفراش لأيام كثيرة . كانت ذكريـات أيامه على وشك أن يغطيها الحاضر الذى أعيشـه ، ولكـن المصادفة قد لعبت دورها فى هذا اللقاء .. وقع بصرى عليه فجأة فركت يدى جيدا وسرتْ فى جسدى حرارة عارمـة .. إننى مازلت أتمنى أن أعود .. ويـداى لا تـزالان تحلمـان بالعودة إلى لمس يديه . وخرجت من سيارتى وبمجـرد أن لمحنى هم ناحيتى .. والتقينا فى منتصف الشارع ، ولم أشعر بنفسى وأنا أطوق عنقه بذراعى وتعانقنا أمام أنظار الجميع ، ودعانى إلى دخول المكتبة بعد أن خلع يدى من حول عنقه ، ومسح أثر شفتى عن وجهه .

قال شاكر بعد أن دخلنا إلى مكتبته الفسيحة :

– لا تزالين كما أنت على شقاوتك،لا تعبئين بنظرات الآخرين ولا تلقين بالاً لنقدهم اللاذع.

فقلت وقد فهمت أنه يلومنى على معانقتى لـه فـى وسط الشارع :

- هكذا وجدت نفسى منذ البداية .. لم يحاسبنى أحد ولم أحاسب أحداً .
- كيف..؟
- أقصد أننى نشأت وحيدة .. لا أعرف الروابط ولا الضوابط سوى التلقائية فى اتخاذ الخطوة.

ضحك شاكر وهو ينظر إلى عينى بتأمل ، وتحولت الضحكة إلى ابتسامة ، وتحولت البسمة إلى علامات مرتسمة فوق وجهه وشفتيه ، وتسمرت نظراته إلى عينى وهم إلـى مداعبة يدى ، فقلت وأنا ألتفت يمينًا ويسارا لأتأكد أن المكان لا يشار كنى فيه أحد :

- أنتَ كما أنتَ ماتزال على حيوانيتك .

فقال شاكر وهو يحاول أن يخفى آثار رغبتـه مـن على وجهه :

- ألم تتعلمى بعد كيف تخاطبيننى يا راقصتى الجميلة ؟
- لقد كنت يوما ما راقصة ، وقد اعتزلت . وأنت كما أنت لا تزال على تجاهلك لتوبتى .. قد يكون ذلك .. ربما لأنك لا تؤمن بالتوبة كمفهوم عام .

- لا .. بل على العكس .. إن إيمانى بالتوبة وفهمى لها هما ما جعلانى أقول ذلك .. أقول ذلك يا راقصتى الجميلة لإيماني بأنك لن تكونى من التوابين إلا لفظًا .
- هكذا عهدى بك يا شاكر .. لا تؤمن بخطواتى ولا تقيم وزنًا لرأيى ولا تتفهم مشاعرى .
- أنا لا أتفهم شيئا عنك سوى أنك راقصة منذ ولادتك .. يوم ولدتك أمك كنت راقصة ويوم تموتين ستموتين راقصة ، ويوم تتصنعين العفة والطهارة فلا بد أنك ترتدين ثوب الرقص تحت ثوب العفة .
- إنك تتجاوز الحدود يا شاكر .. لا تنس أننى ضيفة عليك .
- أنا لا أقصد إهانتك ، ولا يوجد سبب عندى لإهانتك ، ولكننى أردت أن نقف معا على

حقائقنا المتردية .

- معنى ذلك .. أنك تفهم حقيقتك جيدا ؟
- لا أدعى ذلك .. ولكنى أحاول جاهدا أن أفهم حقيقتى

– وهل تفهم أنك ما تزال على حيواناتك المعهودة .. ما تزال عابدا فى محراب جسدى وتتمنى اللقاء ، ولكنك ترفض الاعتراف وتصر على صلافتك ، ولم تجرب يوما أن تعيش كإنسان .

– وهل جئت اليوم لكى تسبينى يا راقصتى الجميلة ؟

– لا .. ولكنها الحقيقة .. لقد رفضت أن أضع فى يدك قيداً واحدا باسم الشرائع والشهود ، وتأبى إلا أن تعيش فى الظلام ، تخطف فريستك وتسلبها ذاتها وترفض الاعتراف بها فى النهاية .. يالها من قسوة .

– آه .. لقد رجعتِ إلى الماضى .

– أنا لم أرجع إليه .. ولكنها القافية تفرض علينا أحيانًا ردودا معينة .. وقد أردت فقط أن أشرح لك حقيقتك التى ترفض الاعتراف بها .

– ألم نكتفِ بكل ما قلناه فى الماضى عن هذا الموضوع ؟!

وأضاف وهو يداعب أرنبة أذنى بأنامله :

- أنا على استعداد لأن أوقع لك على ورقة أعترف فيها بأننى مجرم فى حقك وأننى ظلمتك كثيرا. وأضاف مستهزئا:

- ولكنك تستحقين الظلم والإهانة ..لأنك ..

- لأنى استسلمت بسهوله ؟!

- لا .. بل لأنك ظالمة .

- كيف ..؟

- إن هذا الجسد الذى عذب الكثيرين ، لا يعرف الرحمة .

- ألا تكف عن الغزل يا شاكر ؟

- وكيف أكف عن الغزل وأنا أجلس مع فاتنة مثلك ؟

وضغط على يدى بقوة وأضاف :

- هل تقبلين دعوتى هذا المساء ؛ لنسهر سويا ؟

- لا .. كفاك سخفًا .. لن أبالى بكلماتك المعسولة ولن أقع مرة أخرى فى شِراكك.

- معنى هذا أنك تحصنتى ضد الرجال ؟

- لا بل على العكس من ذلك ، ولكنى أتحصن ضدك أنت بالذات .

– يا لهذه القسوة .. إنك تمازحين .. أنا على ثقة بأنك سوف تسهرين معى الليلة

– من خطئك أنك تظن أننى سهلة المنال ، وأننى لقمة سائغة فى أى وقت .

– نعم .. أنا أراك كذلك ، وأرى أيضا أنك تتمنين ذلك ، ولكنك تتمنعين ؛ لأنك تريدين قتلى بسهام عينيك الخنجريتين

– عجبا لك يا شاكر .. ما تزال على شقاوتك المعهودة ، رغم أنك تسير الآن فى طريق جديد يفرض عليك أن تعيش حياة جادة مختلفة عن تلك التى عشتها فى السابق ، فأنت تعيش الآن مع خلاصة أفكار العلماء والشعراء والأدباء .. تعيش فى محراب طاهر لا يعرف معارك الجسد ونزواته إلا لكى يحاربها ويفلسفها ويضعها حيث توضع بين أمراض النفس البشرية.

– عجبا لك يا هيام إنك تتحدثين بلغة الحكماء

– لا .. بل أنت الذى تتكلم بلغة السكارى وأصحاب النزوات .

ورأيت قسمات وجهه تتغير ، وتتحول إلى قسـمات الجد ، وانتصب من جلسته والتقط كتابا مـن بـين الكتـب المتزاحمة فوق الأرفف ، وقذف به بين يدى ، وقال بصوت منكسرٍ جاد :

– عندما تقرئين هذا الكتاب ستدركين لماذا أنا هكذا .

وقبل أن يعطينى فرصة كافية للتعرف على الكتـاب أضاف يقول :

– ستعرفين لماذا أرتدى ثوب القديس ، ولماذا أنا مضرب عن الزواج ، ولماذا أكسر كل التقاليد وكل القيم وكل الحواجز.. لماذا ولماذا ؟

أشفق على نفسك يا شاكر ؛ فأنت تصور نفسك كمـا لو كنتَ شخصا معقدا ، ناقما على المجتمع. ـ نعم .. نعـم .. لقد أصبتى .. أنا كذلك بل أكثر من ذلك .

– ولماذا أنت هكذا ؟

– لأن الجميع هم المسئولون عما وصلت إليه من ضياع .

- تقول ضياع .. هل تسمى ما أنت فيه ضياع .. إنك كاتب ، مفكر ، أديب ، غير أنك صاحب دار للنشر .
- **أنا لست كما تعتقدين ، فأنا لست مفكرا ولا أديبا ، فأنا لم أدرس الأدب ، ولم أمتهن الكتابة، كما أننى لا أحمل سمات المفكرين .**
- ولكن عهدى بك تحب الكتابة والشعر والروايات ، كما أن كتاباتك لها طابعها الخاص
- إن كل ما رأيته وما سترينه من كتابات هى محاولات لتصوير المعاناة التى عشتها ، ومازلت أعيشها ، وما ترتب عليها من عقد نفسية تأصلت فى نفسى ، إننى وجدت فى الكتابة المخرج والمتنفس من كل معاناتى .
- تقصد أنك لست أديبا ؟!
- بل أنا بقايا إنسان معقد ، مهشم .. أنا بقايا رجل يصرخ ويصرخ ، يريد أن يعلن احتجاجه على كل شىء ؛ لأن كل الأشياء مقلوبة وغير منطقية وتسير

فى الاتجاه الخاطئ .. إن كتاباتى هى صرخات فى وجه الجميع .

– وما فائدة الصراخ ؟

– لأنه لابد أن أصرخ ؛ حتى لا يقتلنى انحباس الصرخات بداخلى ، ولأنى لا أملك وسيلة سواها .

– ولماذا أنت بقايا رجل يصرخ ؟!.

– لأنى كالبناء الذى بنى بغير أساس ، حتى إذا ما اكتمل بناؤه انهار على نفسه ، ولم يعد صالحا لشىء ، لقد تحول إلى أطلال خربة .

– إنك لا تهين نفسك فقط ، بل تدين جميع الأدباء والشعراء الذين يكتبون من خلال معاناتهم، وتصورهم كأشخاص معقدين يصرخون فى وجه الجميع ، ولا يملكون سوى الصراخ .

– لا .. لا .. الأمر مختلف عندى .. الأدباء والشعراء خُلِقوا هكذا بمواهبهم وتحولوا بالدراسة والدربة إلى مفكرين وفلاسفة وشعراء ، والمعاناة التى يمرون بها هى ميلاد قصائدهم وكتاباتهم ، حيث لا حياة بلا معاناة ، أما أنا فإننى عندما أستجمع بقاياى المتحللة

وألملم أشلائى المبعثرة وأتماك بعض قواى ، أرانى أُخرج صرخة معبرة ، يكون القلم وسيلتها .. أنا بقايا رجل يصرخ .. يبحث عن بقاياه ، ويبحث عن اللصوص .. ويتهم الجميع .. لماذا .. ؟ ؛ لأنى تهشمت أمام أعينهم وسرقت من بينهم .

– إنك تتحدث عن السرقة واللصوص والتهشيم ، ألا تجد لنا مخرجا من الحوار العصيب هذا ؟

– نعم .. قد يبدو حوارا عصيبا ، وقد لا يروق لكِ سماع مثل هذا الحوار .. فأنت معذورة إلى حد ما لأنكِ لم تكتشفى بعد صراخ الكلمات وأبواق الأقلام ، وأسرار الحروف .. أنتِ امرأة مهضومة رضخت لمصيرها ، واندثرت بين أنيابه ، ولم تبلغ أحدا عن وفاتها .

– وهل يبلغ المتوفى عن نفسه ؟

– نعم .. عندما يترك قصاصة صغيرة بجوار جثته ، يذكر فيها أسماء قاتليه .

- إنك تبدو حزينًا جدا يا شاكر .. إن عينيك تكادان ترميان جمرا ، وإن نظراتك الثابتة ولهجتك الحادة لتخيفنى .. إنى على وشك أن أتعقد مثلك .
- أنت لست معقدة فقط ، بل أنت مثلى بالضبط .
- ياه .. يا شاكر .. إنك تبالغ فى حمقك اليوم . هل نسيت أننى فى ضيافتك ؟
- هى دائما الحقيقة مزعجة للجميع ، ولكنى أبلغك أسفى على أية حالة إذا كان ذلك يرضيك ، ولكن لا تنسى أنك بقايا امرأة .
- ماذا تقصد .. هل تقصد أنك بقايا رجل وأننى بقايا امرأة ؟
- بالضبط ..
- معنى هذا أننا أنسب اثنين لتكوين خلية بشرية .
- لا .. إننا لا نصلح خلية ؛ لأننا بقايا .. ولن ننجب إلا طللاً صغيرا ، سنقول إنه طفل ، ما يلبث أن يتحول إلى طلل كبير ملىء بالبوم والعقبان والعنكبوت .
- معنى كلامك هذا أن نظل هكذا بلا زواج ؟

- **هذا أفضل بكثير من أن نزود البشرية بمولود يقول : " هذا ما جناه على أبى " .**
- **يا ليتك تحمل أباك المسؤلية بل أنت تدين الجميع .**
- **نعم ؛ فكل البشر مسؤلون عن ضياعى ؛ ربما لأن كل البشر أنجبوا أبى وأعطوه حرية الإنجاب ونسوا أن يعلموه كيف يربى صغاره .. إنى لأرى الدودة أفضل بكثير من أبى ، بل وأجدر بالحياة منه ؛ ربما لأنها فور أن تنجب صغارها تعكف على تعليمهم فن الحياة ، وهى تأخذ بهم رويدا رويدا نحو معرفة سلوك مجتمع الديدان .**
- **أراك تتجه إلى الفلسفة يا شاكر !!.. ماذا دهاك اليوم ؟.**
- أسف يا هيام .. فقد رأيت فيكِ الصديقة المتفهمة فأردت أن أصرخ فى وجهك إحدى صرخاتى التى سجلتها فى هذا الكتاب الذى بين يديكِ .. إنه كتاب حافل بالصراخ ، سوف
- **يعجبك يا هيام .**

وضغط على يدى ضغطة حانية وعاد إلى هدوئه .. لقد كان شاكر أمام محكمة الزمن ، يحاكم شخصا ليس له وجود .. إنها المرة الأولى التى أسمع منه هذه العبارات لقد عاهدته دائما عربيدا سكيرا شاردا ، يستسلم لنزوات الليل وأهواء الشبيبة ، لكنى الآن فقط أدرك أنه كالعصفور الذبيح الذى يرقص من شدة ألمه .

ونظرت أخيرا إلى وجهه فأحسست بالإشفاق عليه ، وقرأت فى عينيه أسى دفين ، ونظرات استغاثة .. إنها المرة الأولى التى أحس فيها أننى أفهمه ، وأقف على عتبات شخصيته المتناقضة الغريبة .. إننى الآن فقط ألتمس له الأعذار، وأتمنى لو أهب حياتى من أجله ؛ لينسى مآسيه وجروحه ، وتمنيت من جديد لو أترك نفسى بين ذراعيه لنصبح جسدا واحدا .

لقد حاولت كثيرا مع شاكر أن نصبح زوجين ، حتى لأنه أشعرنى بأنى بلا كرامة عندما تركنى أكرر إلحاحى .. حقًا لقد كنت كذبابة تتهافت على العسل ، ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل ، وأى درب كان على أن أسلك .. إننى أحببته لدرجة المغالاة ، ولكنه كان دائما يخلق الأسباب

والأعذار ، ويقنعتى بأننى لست المرأة التى يبحـث عنهـا ، ومرة أخرى يقنعنى بأن زواجنا سوف يذكره بمآسى أبيـه ، ومرة أخرى لأننا لن نكون أكثر من بقايا مهشمة لن ننجـب سوى أطلال خربة .. ولكن .. إلى متى سنظل على موعـد مع الأحزان ؟ واقتربت منه وهو لا يزال يتأمـل نظراتـى المتقلبة إليه ، وأخيرا وجدته يداعب خصلات شـعرى بيـده ويقول بصوت متهدج : ـ لكم يبدو هذا الشعر الأسود مثيرا يا هيام .. إننى أنسى أحيانًا كثيرة أننى أجالس أنثى يطـيش جمالها بأروع العقول .

فضحكت كثيرا وتعجبت من قدرته الفذة على تحويل أعتى المواقف صعوبة إلى مواقف رقيقة حالمة .. إنه فعـلاً لا يصلح إلا أن يكون أديبا ، وعدت لأتمنى من جديد لو أقفز فى أحضانه ، فهمست فى أذنه :

– هل نسيت فى أول لقائنا أنك قلت أنك تريد أن تسهر معى الليلة ؟

وكانت قبلة طويلة هممنا بعدها إلى الخروج ولكنـى قلت له قبل أن نبدأ فى مشوار سهرتنا :

– إننى أشترط عليك من الآن أن لا نسهر بعيدا عن غرفة نومك .

– فابتسم ابتسامة عريضة وكانت قبلة أخرى .

* * * * * * *

كان عيد ميلادى .. لم أطفئ الشموع ولـم أتنـاول الحلوى .. إلا أن الحاضرين تناولوها بكثرة .. فلم تكن أيـام عمرى مثل حلاوة " التورتة " التى اعتاد الناس تناولها فـى أعياد ميلادهم تعبيرا عن حلاوة أيـامهم .. ومـا أن فـرغ المدعوون من تناول " التورتـة " حتـى بـدأت موسـيقى الرقص .

لم أرقص أيضا .. وجلست على حافة أحد المقاعـد أتأمل الحاضرين وأسترجع شريط حياتى التى بـدأت مـرة أخرى تتجه نحو الاختلاط والاندماج بمن تركتهم يومـا مـا على أمل ألا أعود ، ولكنهم عادوا إلى ولم يتركوا لى حرية الانفصال .. أراهم اليوم .. جميعهم فى بيتى يتراقصـون ،

ويشربون ، ويحتفلون بمولدى .. ويتمنون مـع كـل نخـب يعبونه لو يلتهمون بقاياى .. كل بطريقته الخاصة .. فتلـك " سهير " صديقتى تبحث عن طريقة ما لتسـتولى بهـا علـى إرادتى ، لكى أعود إلى الملاهى والليل والرقص ، وعنـدما أعود ستكون سهير هى " ست الكل " .. هى المسـيطرة ، هى المديرة ، هى الرابحة ، ولن أكون إلا كما كانت سـهير عندما كانت تعمل فى ملهاى فى السابق .. عندما كانت تقدم " المشروبات " للزبائن .. مجرد ساقية .. تمـد يـدها إلـى البقشيش فى ذلة وانكسار .. تتودد إلى أحد السكارى بكلمات معسولة وتنظر إليه بعينين يملؤهما الطمع فـى اصـطياده ، وعندما تنتهى السهرة تأخذ أجرها الزهيـد وتنصـرف فـى فرحة عارمة .. أما اليوم وقد أصبحت صاحبة الملهى فإنها تطمع فى أن ترد الصاع صاعين بأن تجعلنى أنتظرها كـل مساء أمام باب مكتبها لكى تعطينى أجرى الزهيـد .. إنهـا أحقاد الماضى .. مازالت تستولى على نفسها ، ولن يمحقهـا سوى أن ترانى تحت يدها ساقطة من ساقطات الليل .. وأى ساقطة ؟ .. إننى هيام .. الراقصة السابقة التى يعرفها كـل زبائن سهير ويقدرون رقصها .

أما وقد دفعت سهير للمجلة الفنية لكى تقدمنى إلـى الجماهير فلاشك أنها أرادت أن تتوجنى تاجا سوف يدر على ملهاها الكثير .. إن سهير لا تزال ترانـى مجـرد راقصـة ساذجة بلهاء جميلة ، يمكن أن تنقاد ، لتجنى مـن ورائهـا الكثير .

وهذا أنور شلبى .. يتصور لسذاجته وبلهـه أيضـا أننى دمية جميلة يمكنه أن يستولى عليها بمجـرد أن يرسـل سهير للوساطة بينى وبينه لكى أقبله زوجا .. وبـالطبع لـن أكون زوجة له فى البيت .. لأنه لا يحتاج إلى ربة بيت بقدر احتياجه إلى ربة ملاهى .. أية زواج ذلك الذى يريـده ؟ .. أية أطفال تلك التى سننجبها ؟.لاشك أنهم سـيكونون قططـاً سيامية تنتشر فى أركان الملهى وخلف ستائره وأبوابه . وهذا .. شاكر .. ذلك الذى يدعى الفضيلة ولا يؤتيها .. لا يتورع عن اتهامى بالسقوط والتردى فى الرذيلة .. وينادينى " هيام " ويتجاهل اسمى الحقيقى ، وذلك حتى لا يفصلنى عن الرقص .. وبدلاً من دفعى إلى الفضيلة أراه يشعرنى داما بأنى لـن أكون سوى راقصة ، وراقصة فاشلة .. إنه يريدنى هكذا .. بلا إرادة ، وبلا رأى ؛ حتى أكون دائما بين يديه ؛ ليستولى

على جسدى وقتما يشاء ، وبعدها يلعننى ، ويلعن معرفتى ، ويتهمنى بأنى شيطانة أغوت الملاك القابع فى صدره !.. لكم أنا مظلومة من الجميع ولعبة بين أياديهم ، قد أكون ساذجة فعلاً .. قد أكون بلا إرادة .. ربما .. لست أدرى ..، حتى بقية المدعوين الذين جاءوا ليحتفلوا اليوم بعيد ميلادى ، جميعهم منافقون .. إنما جاءوا ليرقصوا ويشربوا الأنخاب و ...... جاءوا ليعربدوا ويسهروا ، ولم يأتوا لكى يباركوا ويفرحوا بيوم مولدى .. ومن منهم يعرف مولدى .. ويا ليتهم يعرفون قصة مولدى وما جره لى ذلك المولد من ضياع فى دروب الحياة ، ومشقة تحت ثقلها ، ليتهم عرفوا حتى ما جاءوا ولا احتفلوا .

اليوم عيد ميلادى والجميع يرقصون ويمرحون احتفالاً بمولدى .. أنا فقط ألعن مولدى ، وأتمنى لو لم يكن .

كان أنور شلبى يرمقنى بنظرات متقطعة وقد لاحظ شرودى وانطوائى ، بينما كان شاكر مشغولاً بمراقصة فتاة جميلة ، وقد بدأ يندمج معها كما لو كان يعرفها منذ سنوات ، رغم أنه لم يسبق له أن رآها ، فهى إحدى جاراتى اللاتى تعرفت عليهن مؤخرا ، لكن سهير لا تفوتها فائتة .. فقد أتت

من ورائى فجأة ، وربتت على كتفى برفق .. فأفقـت مـن شرودى المطبق ونظرت إليها ، فبادرتنى على عجل بالسؤال :

ـ لماذا لا ترقصين فى عيـد مـيلادك .. لمـاذا لا ترقصين وقد أتى " أنور شلبى " من أجلك ؟ .. جاء يراقصك ويشرب نخب سعادتك ، ولتكن فرصة كى تتعارفا أكثر .

ونادت أنور شلبى الذى أتى على عجل وجذبنى من يدى وهو يبتسم ابتسـامة عريضـة ، واتجـه بـى وسـط المتراقصين ، ورأيت نفسى بين يديه أراقصه علـى أنغـام حالمة ، والتصق جسدانا فجأة ، واتجه بشفتيه نحو وجنتـى وهم إلى تقبيلى ، ولكنى لم أستجب لشفتيه وقلـت بصـوت خفيت :

– يكفى أن نتراقص معا .

فقال وهو يضمنى إليه بقوة وعنفوان :

– لا معنى للرقص مع امرأة جميلة مثلك بلا تقبيل .

وأضاف بصوت هامس :

– لم أكن أعرف أنك دافئة إلى هذه الدرجة .

فقلت له لا مبالية .

– دافئة فقط ؟

– لا .. بل ناعمة وجذابة وجميلة وجذابة وساحرة .

– فقلت باستهزاء :

– وماذا بعد تلك الديباجة ؟

– ليس من شىء سوى أننى أردت أن أقول الحقيقة .

– وهل أنت واثق أنه ليس ثمة شىء غير الحقيقة ؟

– نعم .. ليس من شىء سوى الحقيقة .

– ولكنى سمعت أنك تريد الزواج بى !

– ذلك حلمى ، بيد أنى لا أدرى كيف أبدأ فى تحويل الحلم إلى واقع ؟.

– لماذا تريد الزواج بى ؟

– الأسباب كثيرة .. يكفى أن أقول إننى أريد أن أتزوجك لمجرد أننى أرغب فى هذا

– وهل تعرف أننى أكبرك بما يقرب من عشرين عاما ؟

– ليس مهما السن .. المهم أنى أحبك .

ومرت فترة صمت قصيرة ونحن فى عناق راقـص دون أن نتكلم ، ولاحظت شرودا باديا على وجهه ، ثم عاود همسه من جديد :

- هل تعرفين أننى أحلم منذ أن عرفت معنى الزواج بامرأة تكبرنى ؛ لتكون لى الزوجة والأم .. الأم التى حرمت منها منذ ولادتى .
- أفهم من ذلك أنك وجدت ضالتك فى ؟
- نعم .. إننى أشعر كأن شيئًا يربطنى بك .. أشعر كأن حياتى هنا .. هنا .

وارتاح برأسه على صدرى، حتى لأننـى أحسسـت بخشونة لحيته وكأنها تحفر لها موضعا بين نهدى ، ولم أشـأ أن أدعه يرعى فى جسدى بشفتيه فحاولت إزاحة رأسه عـن صدرى برفق ، وابتسمت ليس لأنى كنت راضية عما يفعل ، ولكن لأنى رأيته فعلاً يتصرف كطفل كبير لـه شـوارب ، وعينان تستجديان العطف وتنزفان الحرمان ؛ فشعرت نحوه بعطف خافت ، ولكن ما لبث أن طـوقنى مـرة أخـرى ، وضمنى إليه وعيناه تذرفان الدمع ، فاستجمعت كل خبراتـى النسائية وكل فراسة الأنثى الرومانسية ، ولـم أنهـره ، وإن

كنت قد حاولت فقط فهم أسباب هاتيك الدموع التى تـذرفها عيناه ، وتساءلت مع نفسى عن علاقـة الحـب والـزواج بالدموع .

ولم يخرجنى من حيرتى وتساؤلاتى هذه سوى شاكر الذى جاء ليستأذن فى مراقصتى .. خلصت جسدى من بـين أحضان أنور شلبى ليضمنى شاكر إلى صدره بلطف ، ثم ما لبث أن مال إلى وكأنه يريد تقبيلى ، فاستسلمت لـه ، فكـم كنت أتوق شوقًا إلى قبلة منه لأمحو تطفل أنور شلبى ، ولكن شاكر لم يقبلنى ولم يكن ينتوى ذلـك .. إنـه أراد فقـط أن يهمس فى أذنى :

- يجب أن نجلس على انفراد ؛ لأتحدث إليك .
- فى ماذا ؟
- فى موضوع مهم
- وهل أهم من القبلات ؟
- نعم ، بل وأخطر .

إذن فلنجلس على انفراد .

وانزوينا إلى ركن فى الصالة حيث تحدثنا بصـوت هامس خفيض.. تحدث شاكر ليلتها بصراحة ، وبلا مقدمات ، وأخبرنى بالحقيقة المفزعة : أنور شلبى هو ابنى المفقود ! .. هو ابن الخطيئة .. ذلك الابن الذى تركته ذات يـوم فـى المستشفى .. ويا لسخرية القدر .. شاب يتقدم لأمه طالبا منها الزواج .. يا للسخرية والمفارقة العجيبة !! .

ترى ماذا لو تم زواج أنور شلبى بـى ؟!.. ولكـن ماذا كان على الأقدار أن ترسل لامرأة بدأت حياتها بالعبـث والفجور والرقص .. امرأة تكسرت كل مبادئ الأخلاق على يديها .. امرأة راقصت مئات الرجال ، وباعدت بين سـاقيها لعشرات آخرين ؟.. لكم كنت أواجه ليلتها مفاجأة الأيام ومكر القدر ، وأى مكر ذلك الذى يجعل امرأة مثلى تقـف علـى مقربة من ابنها وهو يلهث وراء جسدها يود اعتصاره علـى فراش الزوجية باسم الحب دون أن يدرك أن هذا الجسد الذى يلهث وراءه هو نفسه الذى نبتت بداخله بذرته الأولى ! .

انتصبتُ واقفةً بعيدا عن وجه شاكر الذى ألقى إلـى بهذا الخبر الذى أصابنى فى معقلى ، وهو متسمر القسـمات يريد أن يقرأ كيف يكون وقع الخبر على نفسى .. تحيـرت

كثيرا كيف يكون التصرف ، وماذا أفعل ، بل ماذا أقول ؟ .. فهل أهم لاحتضان ابنى لأقبله كما تقبل أى أم ابنها ، وأجلس إلى جواره لأحكى له عن أيام عمـرى الماضـية . وكيـف وصل به الحال إلى هذا المآل .. أم أتركه على ما هو عليـه من جهل بمعرفة الحقيقة ..؟؟

وكأى مشكلة أخرى وضعنى فيها شاكر كان عليه أن يخرجنى منها بعد أن استولت على كليـة ؛ فقلـت لشـاكر بصوت مبحوح متقطع :

– كيف أعرف أنه ابنى ؟

– هذا موضوع يطول شرحه .. المهم أننى أعرف عنه كل شىء ، كما كنت أعرف عنك كل شىء، قبل أن أبوح لك بحقيقتى .. هل نسيتى يا هيام ..إننى أعرف تاريخه منذ أن تركتية بمستشفى ؟.

دهشت كثيرا: - كيف عرف ذلك الماضى الغـاطس فى بحر الأيام .. إنه أشبه بالغواصين الباحثين عـن السـفن الغارقة فى قاع المحيط .

ولكن ما مدى صدق شاكر .. لماذا لا يكون شـاكر كاذبا ..لماذا لا تكون تلك أقصوصـة كاذبـة ألقاهـا علـى مسامعى حتى لا يتزوجنى شلبى ، وأظل ملكه وحـده إلـى نهاية العمر ؟ .

ورأيت أن أتأكد من صدقه فيما قال وهمست نحـو أنور شلبى الذى كان ما يزال يراقص سهير، بهدوء أُحسـد عليه استأذنت سهير فى مراقصته ، وما أن وضع يده حـول خصرى حتى وضعت رأسى فوق أحد كتفيه وسألته بصوت خفيض :

– هل لك أن تحكى لى عن نفسك .. قبل أن تتكلم فى موضوع إعجابك بى ؟

إنه ليس إعجابا

بل ماذا ؟

إنه أكبر من ذلك بكثير

إنه حب .. هيام .

ولنفترض أنه حب .. فأنا لا أقدر أن أعطـى قلبـى لشخص لا أعرف عنه **شيئا** .

ماذا تريدين إذن حتى تبادلينى شعورى نحوك ؟

أريد أن أعرف كل شىء عنك .. قصة حياتـك كاملة .. طموحاتك .. أسرتك

– سأجيبك على كل شىء ..ولكن ليس الآن .. فأنا لا أفكر جيدا وأنا أراقص امرأة تملك على

عقلى .. يجب أن نترك النقاش والسـؤال والجـدال لأوقات أخرى .. لماذا لا تفكرين معـى الآن فـى اللمـس والهمس والقبلات .. لماذا لا نغترف معا اللذة بدءا من هـذه اللحظة ؟.

وراح يرعى بشفتيه فوق وجنتى وعنقـى ، ولكنـى كنت متسمرة بين يديه ، شاردة البصر .. لم أرتخ بين يديـه .. ولم أنساب بين أحضانه ولم أدع حرارة شفتيه تسرى فى جسدى ، حتى أحس بأننى لا أبادلـه أحاسيسـه الممزوجـة بالرغبة فى اللقاء الجسدى ، فكف عـن الـرقص ، وخلـع ذراعيه عن خصرى ، فقلت له وأنـا أتجـه بعيـدا عـن المرقص :

– يجب أن نجلس قليلاً لتحكى لى عن نفسك .. أرجوك .

وابتسمت له ابتسامه خفيفة .. وجلسنا نتبادل الحوار .. ولكنى كنت أسمع أكثر وأتأمل أكثر وأتساءل أكثر.

* * * * * *

أستطيع أن أقول أنه كان صادقًا جدا فيمـا قـال .. فالرجل لا يكذب أبدا ولو أراد وهو يجلس أمام امرأة يحبهـا مسلوب العقل ؛ كان يتكلم بلا حذر وهو يقلب بصـره تـارة نحو سقف المكان وكأنما يسترجع الماضى ، وتارة أخـرى ينظر إلى وجهى فى شرود واضح فكأنمـا يسـتوحى منـه الحديث ، ليعترف بكل شىء .. لقد كانـت خلـف واجهتـه البراقة طفولة بائسة وتشرد ممضٍ سلمه فى النهايـة لـدنيا الضياع .

لقد أودعته المستشفى أحد الملاجئ التى تكفلـت بـه حتى وصل السابعة ، بعدها تبناه أحد الأثريـاء المصـابين بالعقم وكان رجلاً لا يقيم وزنًا للمال فما أن وصـل أنـور للثانية عشر حتى كان الرجل مفلسا ، وعندما توفى لم يترك

له إرثا يذكر ، ولم يشأ " أنور " أن يعود إلى الملجـأ مـرة أخرى وآثر العمل بائعا فى إحدى محلات " بيـع الأشـرطة المسجلة " ظهرت عليه موهبة تقليد المطـربين ، وعـرف بأنور شلبى نسبة إلى أبيه الذى تبناه " حسين شلبى " الـذى أورثه الفقر ولم يورثه شيئًا سواه ، لتبدأ رحلة معاناته التـى تغلب عليها أخيرا باحتراف الغناء والطرب وعرف طريقـة إلى الأفراح والموالد وحفلات المناسبات ، وهكذا أصبح أنور شلبى مطربا شعبيا .

نظرت إلى" أنور شلبى " وهو يتحدث عن نفسه وعن ماضيه بأسى بالغ ، فكانت الكلمات تخرج من فمـه بتثاقـل واضح ، إلا أنه ابتسم أخيرا وهو يقول :

– إننى قد أنسى الماضى بكل مآسيه .. قد أنسى ما جناه على والدى .. ولن أذرف الدموع كالنساء وأنا أتذكر حقيقتى المخزية .. سأمحق الدموع وسأحطم كل الزجاج المعتم الذى أنظر من خلاله إلى الماضى التليد .. قد أنسى كل ذلك لأبدأ رحلة جديدة بين عينيك ، عندما تقولين " نعم " وتباركين حبى لك ، وتهبين لى قلبك بعد أن تفتحين لى كل نوافذه .

ومرت فترة صمت قصيرة وهو ممسـك بإحـدى يدى بكلتا يديه وتسمرت أعيننا فى نظرات ثابتة تحكى عـن قصص عديدة وأشواق دفينة ، يريد كل منا أن يبثها للآخر .

كم وددت أن أحتضنه بكل ما أوتيت من قوة وأضمه إلى صدرى ليبدأ رحلة طفولته من جديد ، كم وددت يومهـا أن أنقب له فى قواميس اللغات عن معان أخرى جديدة وعن تعبيرات بليغة ؛ لأعبر له عن الأسف والندم على ما فعلته به ، ولكنى كنت أدرك وأنا أتمنى ذلك أننـى لـن أسـتطيع أن أعترف له بالحقيقة ، إن كل كلمة حب قالها لى كانت تحـز فى صدرى كأنها مدية مسنونة ، وكم كنت أود لو يكرهنـى كرها أعمى لا يعرف التراجع ، حتى يريح نفسه من لوعـة الهوى وقسوة الصدود ، ورأيته يقول بعـد فتـرة الصـمت وشفتاه ترتعشان وقد تراخت يداه لأحرر يـدى بعيـدا عـن يديه :

– إننى ساكن هنا .. هنا بين عينيك .. العالم كله يتحرك .. يضحك .. يبكى .. ينام .. يأكل .. يحتضر .. يموت .. وأنا .. أنا فقط .. ساكن بلا حراك .. كأنى مخلوق آخر ليس له مأوى بين

الخلائق سوى تلك المساحة التى بين عينيك .. إنها عالمى المحدود الذى أرنو من خلاله إلى عالم عينيك اللامحدود.. واللا منتهى .. أنه عالم آخر ساخر لا يخضع لزمان ولا مكان ولا يبدأ إلا من حيث ينتهى من تلك النقط المضيئة الغائرة فى عينيك .

ليتك تبقينى كما أنا بين عينيك لأرنو عن قرب إلـى ابتسامتك الساحرة وأستمع إلى كلماتك الرقيقـة الحانيـة .. دعينى أتساءل كثيرا .. من أنت ؟ .. من أنـا ..؟؟ دعينـى أيضا أنكر السؤال وأهمل الإجابة لأقرر حقيقـة واحـدة .. أحس بها وأعيشها .. حقيقة الروح الواحدة والجسد الواحد .. أنا وأنت .. إننا جسد واحد بل روح واحدة قسمتها يد الأقدار إلى جسدين وروح واحدة .. لأبقى أنا كما أنا الآن أحن إليك .. وأحن كثيرا منذ أن فرقتنا يد القدر .

- إنك تفيض فى رومانسيتك يا " أنور " .. غريب جدا أن أجد فيك كل تلك الأحاسيس العاطفية الرقيقة ، وأنت.. أنت ذلك الشاب العابث الذى لا يقيم وزنا لخفقان القلوب ولا يعترف إلا باللذة العابرة والانتماء المؤقت ، إننى ما تخيلتك واقفًا فى محطة امرأة إلا

لتستقل امرأة أخرى ، فكيف أراك الآن تتحول عن طباعك وتقع فى شراك الرومانسية الحالمة بلا مبرر ومع من ؟ مع امرأة تكبرك بعشرين عاما !.

- آه .. إن السر هنا .. فى هذه العشرين .. لست أدرى سر شعورى هذا .. كل ما أعرفه الآن أن بك حنانا فياضا يختلف عن أى حنان آخر .. شعور غريب يد فعنى إليك يجعلنى أكره كل النساء سواك .
- حتى سهير.. صديقتك الحميمة ؟
- **علاقتى بسهير علاقة عمل .. فنحن أصدقاء .. وصداقتنا أساسها العمل والسفر والسهر .**
- **ماذا تقول ..؟ أو ليس بينك وبينها علاقة جسدية ؟**
- **لا أنكر ذلك ، ولكنها لحظات عابرة عندما تجمعنا الظروف معا فى خلوة واحدة كأى امرأة أخرى تجمعنى بها الظروف لأقاسمها الفراش .**

وأشعلتُ سيجارة وانصرفت للتدقيق فـى ملامحـه الظاهرة ؛ لأتبين ذلك الشبه الكبير بين ملامح وجهه وملامح وجه أبيه وعدت لأسأله من جديد :

- وما الذى دفعك يا عزيزي لاتخاذ مثل هذا القرار المفاجئ ؟.
- إنه ليس مفاجئًا ولا مرتجلاً وإنما هو وليد تفكير غزير وعميق .
- وإلى أى حد قادك ذلك التفكير ؟
- إلى شخصيتك الحانية وابتسامتك العذبة ، وأنوثتك الطاغية .
- وهل تعرف قبل كل شىء من أنا ..؟
- أعرف بالطبع من أنت .. أنت امرأة أرادها قلبى ، وأحبها، وهذا يكفينى .
- وهل تعرف شيئًا عن ماضى .؟
- أعرف أن لك ماضيا غير عادى ، وأن حياتك مليئة بالأسرار والأشواك .
- وماذا بعد .. ؟ ورأيته ينظر إلى عينى فى توجس وكان واضحا أنه متردد فى الإفصاح عما يريد أن يقول ، وأخيرا قالها مترددا :
- أعرف أنكِ لست عذراء .
- وكيف عرفت ذلك ؟

- عرفت من سهير .. وعرفت أكثر من ذلك .. عرفت أن الرجل الأول الذى نقلك من حديقة العذارى إلى فردوس النساء هو ذلك الرجل الذى يمصمص بقايا قطرات زجاجة الشمبانيا ، وأشار بيده نحو شاكر ، وأضاف :

- وأعرف كذلك أنه رفض الزواج منك .

وهنا انتصبت من جلستى وقلت له :

- إذا كان الأمر كذلك .. فكيف تسمح لنفسك بالزواج من عروس ليست من العذارى وليست من المتزوجات ؟

- إننى لا أتوقف عند واقع تافه كهذا ؛ فأنت عندما عشقت هذا الرجل أو ذاك كنت حرة طليقة .. غير مقيدة برجل آخر ، لم تكونى مقيدة بى مثلاً حتى أتهمك بالخيانة .. أما ما شجعنى على طلب يدك فهو انعتاقكِ نهائيا منه ومن غيره ، غير أن هناك شيئًا آخر لم أستطع مقاومته .

قلت له فى تلهف :

– ما هو ؟

– الحب

ثم اقترب منى وطوق وجهى بيديه الرقيقتين وقـال لى :

– يا حياتى .. للمرة الثانية أسألك :

– هل تقبلين الزواج بى ؟

وأطرقت قليلاً ثم قلت له :

– الحقيقة يا أنور .. أنا لا أستطيع إلا أن أحمد شعورك الطيب نحوى وحبك الزائد لى .. ولكن دعنى أفكر قليلاً فى مسألة الزواج هذه ، لنؤجل البت فيها إلى لقاء آخر .

– متى ..؟ إننى متلهف ، فليكن غدا .. غدا سأزورك ؛ لنشرب كأسا هنا فى منزلك .

– اقتراح معقول .. على الرحب والسعة .

انتهى حوارنا معا إلى هذا الحد .. انتهى الحوار وقد قال ما أراد أن يقول ، وأفضى بما فى جعبته من مشـاعر ، وأحاسيس جياشة .. انتهى الحوار وقد أخذ ما أراد أن يأخـذ

.. أخذ الأمل والوعد ، وذهب وهو يهنئ نفسه بمـوافقتى ، ولكن الحقيقة كل الحقيقة أننى كنت أفكر وقتها فـى شـىء واحد هو الخلاص مما أنا فيه .. فهل يعقل أن أتزوج ابنـى ..؟ والذى لا يعقل أكثر هو أن أعرفه بحقيقتى؛ فكيف لامرأة مثلى ظلت تعبث طيلة حياتها ظنا منها أنها فى سـتر مـن الزمن ، وفجأة يظهر لها ابن زوج أمها ليفضى إليها بقصـة حياتها كاملة وكأنه عاشها هو وليست هى .. وفجأة يظهر لها ابنها الذى كثيرا ما رآها بعينى سهير التـى قصـت عليـه بالطبع كل ماض وحاضرى .. رآها راقصة وعربيدة لاهثة وراء شهوات الجسد والثراء والسكرة والمتعة ، رآها فاسـقة وتاجرة جسد وبائعة هوى .. رآنى وإن لم يكن قـد رآنـى حقيقة ؛ لأن على عينيه غشاوة الحب الذى يقولون عنه أنـه يعمى البصر والبصيرة ؛ لذلك فالأمر سيختلف تمامـا لـو عرف أننى أمه .. لا شك أنه سيعيد تقييم مشاعره من جديد ، والـذى لا شـك فيـه أننـى لـن أسـتطيع مواجهتـه بالحقيقة المفزعة .

أما وقد انفض السامر ، فكان لا بد من جلسة أخرى مع شاكر الذى أصر ليلتها على البقاء معى ، وإذا كان للعفة

فى حياتى تاريخًا فإنى أذكر تلك الليلة التى عشت فيها مع شاكر تحت سقف واحد دون أن تهفهف حولى نوازع العبث الجسدى ، لقد حاولت ليلتها بكل إخلاص أن أكون عفيفة ، بل حاولت أيضا أن أجد شعورا بالاشمئزاز من نفسى ، وأن أحكم عليها بشدة . أما وقد كان ما كان فلابد من مخرج من ذلك المأزق .. أأصارح ابنى بالحقيقة .. هل ستواتينى الشجاعة الكافية للاعتراف ، وبماذا سأعترف ؟ .. هل أعترف بكل التفاصيل المخزية ، أم أن الحل فى نكران كل ذلك ، لأبقى كما أنا بالنسبة له : تلك المحبوبة التى يلح عليها فى تلهف لكى ينتزع منها الموافقة على الزواج .. أيكون الاعتراف هو الحل ؟ .

أتذكر الآن جيدا أننى ما نمت ليلتها ، وأتذكر أيضا أننى فقدت الوجود حولى حتى الصباح ، وما عشت إلا كطيف هائم ، مشتتة الفكر ، حائرة الفؤاد ، فلم أقترب من شاكر ، وتركته ينام وحيدا ، وآثرت الخلود إلى نفسى فى حجرة مجاورة .

فى الصباح كان لابد من حل قبل أن يحل المساء الجديد ، ويأتى إلى أنورشلبى وكله أمل فى الموافقة على

زواجى به . عندما استيقظ شاكر من نومه أدرك أننى لم أنم ، ولاحظ علامات الإجهاد على وجهى ؛ ذهب إلى المطـبخ وأعد الإفطار بنفسه ، وبعد أن تناوله لوحده جلست إليه فـى سكينة ودون أن أنطق بكلمة واحدة ؛ فقد كنت لا أقوى على الكلام ، كما أننى لم أكن أقوى على التفكيـر ، وقـد أدرك شاكر ذلك ، وعرف من نظراتى إليه أننى أعقد عليه أمـلاً كبيرا فى حل مشكلتى .

كلمة واحدة قالها شاكر وهو يرشف بقايا قهوته دون أن يبدى اهتماما واضحا :

– الهروب

– الهروب من جديد إلى حياة أخرى جديدة .. إلى مسكن آخر، وحى آخر، وأشخاص آخرين .؟!

قلت لشاكر الذى ألقى بكلمته دون اكتراث واضح :

– وهل الهروب هو الحل ؟

– الهروب ما كان حلاً أبدا .

– إذن لماذا تنصحنى به ؟

– لأنك لاتجيدين سواه .. إنها عادتك المتأصلة منذ صباك .. الهروب من واقع مفزع إلى واقع مفزع آخر وتلك حالتك .

– وهل أنت مقتنع بفكرة الهروب تلك ؟

– أنا لست مقتنعا بالهروب .. ولكن ماذا أقول لكِ وقد تعودتِ على ذلك ..بل ماذا أقول لك وقد أُحكِم الخناق حول عنقك ؟ .. إنك لا تستطيعى الاعتراف أمام ابنك ، كما أن زواجك به مرفوض ، ولن تقدرى على تقديم مبررات رفضك له .. إذن ما بقى لك ..هل تستمرين فى دس الحقيقة عنه ، وتتركينه يمارس لعبة الحب والغزل والهيام معك حتى تأتى الساعة التى تجدينه يطلبك فيها للفراش ؟ وستراوغين وسيستمر فى مطاردتك ، وسوف تسببين له شقاء ليس بالهين برفضك له وتملصك من رغباته . أتودين شقاءه وحيرته ؟ أتودين أن تسوقى له التعاسة والنكبة فى حياته أكثر مما سقت إليه منذ ولادته؟

ولكن هل تعتقد يا شاكر أن هروبـى مـن حياتـه سوف يجعله فى مأمن من كل ذلك ؟

– بالطبع ستكون صدمة له ثم ما يلبث أن ينصرف عن التفكير فيك ، إن ابنك يعيش حياة صاخبة مليئة بالغناء والطرب والنساء ، ولن تكونى بالنسبة له سوى ذكرى أليمة تبلى مع الأيام وتفنى مع الزمن .

لا أقول إننى اخترت الهروب .. بل أقول إننى مـا وجدت غير الهروب مسلكاً . إن الهروب مسلكى وقد صدق شاكر فيما قال ؛ فأنا امرأة لم تسـتطع مواجهـة أى شـىء ..امرأة هاربة دائما .. نحو ماذا ؟.. لست أدرى لكنى هاربة ، وقبل كل شىء فأنا أهرب من نفسى بعـد أن أفشـل فـى مواجهتها ، وأفشل فى حصار نزواتها ورغباتها . فقد هربت كثيرا فى الماضى بعد أن فشلت فى مواجهة أدنى المواقف .. إننى ما زلت أتذكر جيدا كيف فشلت فـى مواجهـة نفسـى وتحجيمها يوم أردت أن أتخطـى جـدار عـذريتى، ويـوم وضعت جسدى تحت تصرف رجل متصابٍ ؛ ليعبث به ، بل فشلت فى مواجهة أمى ، ولم أستطع البقاء بعد تلك الفعلـة التى اقترفتها، كما أننى فشلت فى تقبل الأمومة المفاجئة يوم

أفزعنى خبر الحمل ، وفضلت الهروب إلى الجنون .. ويوم مالت نفسى إلى ذلك الرجل الذى سافر بى إلـى بـاريس ، ويوم اكتشفت أننى سلعة اتفق الآخرون على بيعها لم أحاول يومها أن أقف من نفسى موقفًا صلبا، ورحبت بالانزلاق إلى الرذائل .. لقد كانت الرذائل أفضـل فـى ممارسـتها مـن الفضائل ، لقد فشلت يومها فى مواجهة نفسى ، وأقفلت نوافذ الضمير بكؤوس الخمر ، وجنحت نحو السكرة المميتة .

إننى دائما هاربة إلى المجهول .. إلـى الضـياع .. إننى أشبه بامرأة ضلت الطريق ولم تسأل أحدا النصـيحة ، ولم يلقِ لها أحد بالاً ، فآثرت المضى إلى حيث لا تـدرى ، وانتقلت من ضياع إلى ضياع ، وعندما نظرتْ أخيرا إلـى الدنيا حولها وجدت مدنًا أخرى وطرقًا أخرى، وعالما آخـر وكان عليها أن تعيش فيه ، وأن تجوب طرقاته المتشابكة بلا أدنى أمل فى العودة نحو البدء وقد تغيرت الـدنيا وتبـدلت الأحوال ، وعنت وجوه مختلفة ، تختلف عمـا أَلِفَـتْ فـى الماضى ، فتوجستْ منهم خيفة ، وآثرت الهروب والهـروب رغم الضياع ، ورغم الخطر ، وفى كل طريق كانت تتعثـر وتنزلق وتصطدم ، وأحيانًا تُصدم عندما تدرك أنها تسير فى

نفس الطريق لمرات عديدة ، وهكذا حياتى ، وهكذا أنا ، لابد من الهروب ، ولكن إلى أين هذه المرة ؟ .

سألت شاكر الذى يلهو بحشو غليونه الأسمر :

– لقد قلتها كلمة (الهروب) .. ولكن لم تقل إلى أين .... إلى الفندق ؟! وهل الفندق بعيد على سهير وعن أنور شلبى ؟ إنهم بالطبع سيسألون عنى فى كل الفنادق ، وسيجوبون كل الطرقات بحثًا عنى .

وأضفت بغيظ :

– ألا تعلم أنهم يريدون لوى عنقى من جديد ، لأتحول إلى طريق الفن والطرب والرقص والدعارة .

قال شاكر مستهزئًا كعادته :

– وهل أنت الآن أفضل حالاً .. لقد هربتِ من كل ذلك وتعففتِ عن الرقص والعبث الليلى ولكن إلى أين ..؟ إلى ممارسة كل ذلك فى الخفاء وكأن التخفى هو الغاية .. أو يعقل يا هيام أن امرأة مثلك مرت بكل ما مرت من تجارب حمراء تعيش الآن بلا رجال ؟!.. لا أتصور ذلك ، لا أتصور أبدا أنك امرأة

تختلف كثيرا عن تلك العابثة العربيدة .. قد يكون التغير فى الأسلوب الذى تمارسين به كل ذلك .. ولكنك أنت كما أنت لم تتغيرى .

- إنك دائما يا شاكر تنظر إلى تلك النظرة القاسية التى لا تعرف الرحمة ، ورغم ذلك فهى نظرة صائبة .. إلا أننى لا أستطيع تحملها .

- نعم .. أعرف ذلك .. هى الحقيقة دائما مؤلمة .. إن أفظع شىء عند ذى عاهة أن تذكره بعاهته .. وأنت يا هيام مصابة بعاهة مستديمة ..عاهتك فى نفسك متأصلة ومتمركزة فى أعماقك وليس لها شفاء .

- وطالما أنك تعرف ذلك فلا داعى أن تذكرنى بعاهتى وتعيرنى بها .

- يا صديقتى كلنا مصابون بعاهات متأصلة .. كلنا ذوو أمراض .. تعرفين لماذا ..؟

وأطرق شاكر بفكره وهـو يـنفس الـدخان بكثـرة وأضاف بعد أن ضغط عضلات وجهه بشدة .

لأننا يا صديقتى كسلالة الأسماك الصغيرة التى قذفوا بها فجأة فى بركة عفنة .. ترى هل ستخاف البركة أسـماكًا كتلك التى عاشت فى البحر الواسع النظيف ؟.

ورأيته يتحول عن هدوئه إلى العصبية وأضاف وهو يحرك كلتا يديه بشدة :

– أنا لا ألومك .. كما أننى لا أعيركِ بعاهتك أو أذكرك بها .. كل ما فى الأمر أننى أحاول ولو قليلاً أن أدافع عن نفسى ، إننى مريض مثلك يا هيام وقد تكون عاهتى أكبر ، ولكن فى لحظات كثيرة أحاول أن أدافع عن نفسى ضد العاهة .. أحاول عبثًا أن أقنع نفسى أننى أفضل من الآخرين وذلك بنقدى إياهم وتذكيرهم بعوراتهم ، وتقديم النصح لهم .. ولكن الحقيقة التى أنساها دائما أننى مريضة .. إننى وليد البركة مثلك .. وهل يعيش فى البركة سوى البعوض والضفادع والديدان ؟.. إننى سمكة قذرة عاشت مع القاذورات وتشبعت بها .. وأنت أيضا يا هيام .. أنت أيضا قذرة .. وأنور شلبى ابنك قذر وسهير كذلك قذرة ، كلنا يا صديقتى عشنا فى البركة

.. كلنا أسماك محكوم عليها بالحياة فى العفونة والقذارة والنجاسة ، ولا نملك سوى الاستمرار حتى النهاية .. وأية سمكة تستطيع أن ترحل من البركة إلى البحر وهى محاصرة بجوانبها ؟.

– **قال شاكر ذلك ثم طأطأ رأسه وكف فجأة عن الكلام وكأنما قد مات .. نظرت إليه فإذا بدموع غزيرة تفيض من عينيه وشهقات متقطعة . إنها المرة الأولى التى أرى فيها شاكر يبكى .. ذلك الرجل الذى رأيت فيه القوة الثبات ، رأيت فيه المثل القوى الذى يلعب بالأيام دون أن تلعب به.. ذلك ما كنت أظنه عنه .. رجل أقوى من الظروف والمحن أراه الآن يبكى كالأطفال بشهيق متقطع ؛ فشعرت بالعطف نحوه وتملكنى حب البكاء مثله ؛ فاتكأت برأسى على كتفه وبكيت مثله وبادلته نفس الشهقات المتقطعة دون أن أعرف لبكائى سببا ، إلا أننى بعد أن فرغت من بكائى أحسست بالارتياح ومسحت دموعى ودموع شاكر أيضا وقلت له وأنا أمسح بيدى على رأسه :**

ليس هذا وقت الدموع يا شاكر.. أتبكى فى مثل هـذا اليوم الذى أريدك فيه بكل قوتك وصلابتك التى اعتدتها منك وعهدتها فيك ؟.

قال مقاطعا:

لا .. بل أنت مخطئة .. لم يكن الأمر صلابة ولا قوة .. بل كان بلادة ولامبالاة .. إنه برود يا صـديقتى ، وهـو طريقى ونهجى فى الحياة .. مثلك تمامـا عنـدما تـواجهين مشاكلك بالهروب .

ولكنى أريدك اليوم يا شاكر لكى تقف بجانبى .. كى تدلنى على المخرج .

وصحت فيه بقوة :

إننى غريقة .. ألا تنتشلنى ؟!

بل أنتشلك .

قال هذا بسخرية وأضاف :

سأنتشلك إلى بركتى .. أعدى حقائبك وأمتعتك لتذهبى معى .

إلى أين ..؟

إلى بيتى .

وقلت بفرحة عارمة :

ماذا تقول .. سنعيش معا فى بيت واحد ؟!

نعم كصديقين فقط

وانطفأت فرحتى مرة أخرى ، وانصرفت إلى إعداد حقائبى ، وربط أمتعتى بينما ذهب شاكر ليحضر عربة لنقل الأثاث .

* * * * * * * *

كل شىء كان يقول إن هذا المنزل لا بد أن يكـون لفنان عظيم : الكتب المرتبة على أرفف المكتبة .. الألـواح الزيتية المعلقة على الحوائط .. الأضواء الخافتـة الموزعـة بانتظام .. السماعات التى تنشر الموسيقى الحالمة فـى كـل أرجاء المكان .. كل شىء كان يقول ـ أيضا ـ إن كثيرات مررن من هنا : الزجاج اللامع .. الملابس النظيفة المعلقـة فى شماعاتها .. الستائر المزركشة التى تغطـى النوافـذ .. الأساس المرتب بذوق فى أركان المكان .

إننى أعرف شاكر جيدا ، لا يعيش بلا نسـاء ، ولا يهتم كثيرا بنظافة مسكنه وترتيب أساسه ، مالم تفعـل ذلـك امرأة ما ، ولكن ما كان يحيرنى وقتها ذلك الدافع الذى جعل شاكر يدعونى للإقامة معه .. هل هى الشهامة التى يلتزم بها الرجال عادة مع المرأة التى يحسون بضعفها ..؟ أم أن شاكر أحس بعواطفى نحوه فأراد أن يكون مجاملاً ، وتساءلت بينى وبين نفسى : ـ هل سأكون آخر من يأتى إلى بيته من نساء ؟ .. إن كل تصرفاته معى منذ أن أقمت معه تقول إن شاكر قد تغير نحوى .. قد تحول إلى إنسان آخر .. إنسان متعفف عن العبث .. لم أره كما عهدته فى الماضـى يعـب مـن الخمور بكثرة ، ولا يبيت ليلة إلا وبـين أحضـانه إحـدى محظياته .. بل لم يختل بى مرة إلا ودعانى إلـى فـراش ، لكننى أراه الآن متعففًا تجاهى .. لم يحاول دعوتى إلى فراش ، ولم يعد يهتم كثيرا بمغازلتى ومحاصرتى بكلماته المعسولة .. لقد رأيته رجلاً يختلف تماما .. رجلاً سوي الخلق يميـل إلى الهدوء والسكينة .. عندما يدخل إلى حجرة مكتبه يضىء المصابيح الخافتة ، ويستمع إلى الموسيقى الحالمة ويخلد إلى كتبه وكأنى لا أقيم معه فى مسكن واحد .. كنت أدخل إلـى

حجرة نومى ، فلا أراه إلا فى الصباح عندما نجلس إلى الإفطار .

فرق شاسع بين شاكر الذى أراه اليوم وشاكر الذى عشت معه فى الماضى .. يوم كان يأتى بعد منتصف الليل إلى منزله مترنحا ؛ فيلقى بجسده فوق سريره الوحيد بالغرفة ؛ ليدخن السجائر بكثرة ، ويتأمل المكان من خلال الدخان .. كان كل شىء مبعثرأ وملقًا بإهمال شديد .. كل شىء بعيد عن مكانه الطبيعى كأنما تلك طبيعة الحياة وحكمة الوجود . الحذاء فوق المقعد ، والجاكتة فوق الدولاب ، وأكواب الشاى الفارغة على الأرض ، والمنضدة ازدحمت على آخرها بالكتب والمجلات .

كان يتأمل ما حوله بعين ساخطة وتنتابه فى كل ليلة فى نفس الميعاد رغبة قاتلة لحوح فى التغيير .. فى التنظيم .. فى البدء من جديد ، ولكنه سرعان ما كان يستسلم للنعاس بعد أن يكون قد وجد لكل مشكلة حلاً ، وحينما يصحو فى الصباح يكون قد نسى كل شىء .

أتذكر الحوار الذى دار بينى وبينه يوم ذهبـت إلى مسكنه لأول مرة بعد ليلة سهر فى الملهى .. سألته يومها :

ـ كيف لرجل مثلك يرضى بالعيش فى مسكن كهذا ، تفوح من بين جوانبه رائحة الرطوبة ، وتتناثر قطع الأثاث فى أركانه كأنه إحدى مقابر الفراعنة ؟

قال يومها بلا اكتراث :

ـ لا فرق أن نُدفن فوق الأرض ، أو تحتها .. طالما نحن ميتون .

ولكنى تعجبت من فلسفته الخاصة عن الحياة والموت ؛ فسألته :

ـ ولكن قلبك لا يزال ينبض بالحياة ، فكيف تـدعى أنك ميت ؟

ـ الموت ليس معناه أن تفارق الروح الجسد ، بـل الموت أن تصبح الحياة بلا معنى .. وما فائدة قلب ينبض وقد استنفذ كل طاقاته بين مشاعر الأسى واليأس ، حتى أصـبح

قلبا بلا مشاعر ، وبلا إحساس .. قلب متبلد لا يرى فى الدنيا أملاً جديدا .

ـ لماذا لا تقول : " النساء مصابيح البيوت " مـنهم وبهم تتقد مشاعر الرجال وأحاسيسهم .. ومعهن يعيشون فى بيوت نظيفة مرتبة ومريحة .

فقال مازحا :

ـ وهل سأجد مصباحا غيرك ؟ عليك إذن أن تحولى بيتى إلى جنة .

أتذكر ذلك الحوار الذى دار بينى وبينه منـذ خمسـة عشرة عاما ، وأتذكر أننى قمت يومها بترتيب الأثاث وتلميع الزجاج وغسل الملابس .

أما الآن فأنا أعيش فى بيت أشبه بالجنة .. كل شىء فيه يستهوينى ، ويدفعنى إلى التمنى بأن أعـيش فيـه بقيـة عمرى ، الشىء الوحيد الذى يحيرنى هو غمـوض شـاكر وعزوفه عن الحديث معى وخلوده إلى نفسـه وكتبـه أكثـر الوقت .. أيكون شاكر قد تغير فعلاً ؟ .. أتكون الكتابـة قـد أثرت على شخصيته إلى هذا الحد ؟ لماذا أفسر عزوفه عنى

وانطواءه على نفسه على أنهما غموض .. لماذا لا يكون هذا هو سلوكه الجديد .. أتكون تلك فترة اختبار جديدة لـى ؟ .. لماذا لا يكون فى نيته الارتباط بى برباط الزواج ؟ .. ربمـا أنها فترة الصمت التى قطعها على نفسه ؛ ليعطيها فرصـة للتفكير بهدوء ، وهو يراقب حياتنا الجديدة معا .. أيكون ذلك حقا ؟.. ولم لا وقد أتى بى إلى هنا للإقامة معه دون أن ينظر إلى مقابل رخيص أو متعة عابرة ، وإلا فلماذا لم يعبأ هـذه المرة باللقاءات الجسدية التى لا يرانى إلا مـن خلالهـا ؟ .. لماذا كف عن الثرثرة والحديث معى فيما يفيد ولا يفيـد ؟ إن سلوكه هذا أعطانى إحساسا بـأنى ذات قيمـة .. ورد إلـى شخصيتى المفقودة ، لقد عهدته دائما لا يكـف عـن لـومى واتهامى بأفظع التهم ومعيرتى بماضى وسقطاتى الجسدية .

ومرت أيام تلو الأخرى ونحن على تلـك الحـال .. أكثر ما كان يجمعنا هو الجلوس إلى الطعام ، بعد ذلك يذهب كل منا إلى حاله وكأنه لا يعرف الآخر .

ولما كنت أتجنب محاولة التأثير عليه لكى يغير مـن معاملته لى ، لم أحاول أن أتساءل عـن السـر وراء تلـك المعاملة التى لم أعهدها منه ، وقد كان سبب خشـيتى هـو

الخوف من الرسوب فى الامتحان ، فقد اقتنعت بـأن شـاكر يجرب الحياة الجديدة معى بأسلوب جديد ، فأردت أن أكـون عفيفة بقدر ما أراد هو ، فعزفت عن الثرثرة وحديث اللهـو وودعت الخمر والليل واتجهت كما كنت فـى صـباى إلـى الكتب والجرائد والبقاء فى البيت ، ونسيت الشارع والحيـاة المزدحمة وأصبحت كزوجة لا هم لها سوى إعـداد الطعـام وانتظار عودة زوجها .. كل ذلك كـان يشـعرنى بوضـعى الطبيعى فى الحياة ، ويشعرنى بقيمتى كامرأة ، ورغم ذلـك فإننى كثيرا ما كنت أقع فى الحيرة عندما أجدنى عاجزة عن تفسير مشاعره نحوى ، وكثيرا ما كنت أسأل نفسى :

ـ إذا كان شاكر لا يحبنى ولا يريد الارتبـاط بـى فلماذا هذا المسلك المحترم الذى يفرض علينا معـا الالتـزام والعفة واحترام الواجب .. إنها المرة الأولى التى أرتدى فيها مثل هذا الثوب ، وإنه ليستهوينى أن أستمر فى لبسه ، ولكنى أبحث عن السبب وراء ذلك .

أذكر مرة تعمدت فيها أن أجلس إلـى شـاكر وأن أتحدث إليه علنى أفهم شيئا يساعدنى على كشـف اللثـام .. دخلت إلى مكتبه الفخم فى إحدى حجرات الشقة .. شـعرت

يومها أننى دخلت إلى مكتب أحد العظماء ، وتأملتـه وهـو يجلس على كرسيه مرتديا " روب " المسـاء وعلـى رأسـه طاقيته البيضاء وفى يده قلم ، ويضع على عينيه نظارة طبية وعيناه على الكتاب المفتوح أمامه .

وتملكنى شعور غريب لأول وهلة بأننى لـن أكـون زوجة هذا الرجل العظيم . نظر إلى شاكر بينما كنت جالسـة أتأمل ملامحه التى بدت لى فى غاية الجد والوقـار. وعينـاه اللتان تبدوان خلف نظارته كانتا تقتلان الحديث فـى نفسـى .. لست أدرى كيف تحول حبى الكبير إلى خشـية رهيبـة ، وتحول صمتى إلى وجوم ونظرات شاردة ؟.

قال شاكر فى محاولة لكسر الصمت :

ـ أعرف أن وجودك هنا يا هيام سبب لـك بعـض الضيق .. ربما لأنك لم تألفى الهدوء بعـد .. ربمـا لأنـك تعودت الاختلاط أكثر من اللازم .

وأضاف بعد فترة صمت قصيرة :

ـ ولكنى أعدك بأنى لن أدعك صريعة هذا الضيق .

فقلت بصوت متلعثم :

ـ ولكن .. من قال إننى فى ضيق ؟

ضحك شاكر وقال بثقة :

ـ يا هيام .. أعرف تماما وأجزم أنك كنت متيقنـة تماما وأنت آتية إلى هنا أن حياتنا لن تتجاوز غرفة النـوم ، وأن عربدتنا الجسدية وسهراتنا الحمراء ستكون كـل همنـا وشغلنا .. صحيح أنك عاقلة ولكنك لم تتعودى على مثل هذه الحياة الملتزمة الهادئة ، التى فرضتها على نفسـى منـذ أن فتحت دار النشر ، بل منذ نشرت كتابى الأول .

وأضاف وهو يزفر بشدة :

ـ صدقينى إن السقطة الوحيدة التى وقعت فيها منـذ ذلك الوقت كانت تلك الليلة التى قضيناها معا يوم أتيتِ إلـى مكتبى بعد طول افتراق .. أحسست يومها أن كل مسـاحات الأرض كأنما اختصرت وتكورت فوق مسـاحة جسـدك ، وكان لابد أن أسير عليه ، وأنام عليه ،وأمارس الحياة فوقه ، فدعوته لقضاء تلك الليلة .. لست أدرى سر شعورى ذلـك الذى ينتابنى أحيانًا فيدفعنى دفعا نحوك .. قد يكون ذلك لأنى عشت معك كثيرا فى الماضى ، وعاشـرتك كمـا يعاشـر

الأزواج زوجاتهم ، بل أكثر من ذلك فقد مارست معك كـل أنواع الطيش والحمق والعبث ، وتحملتى كـل ذلـك ، بـل تمنيتى أن يتوج ذلك بالزواج فى الوقت الذى كنت أفتقد فيه

ذاتى وهويتى ، ولكنى على أية حالـة لا أتمنـى أن يراودنى ذلك الإحساس الآن وأنت معى .

ـ هل معنى ذلك أنك وجدت ذاتك الضائعة ؟

ـ ليس تماما .. ولكنى على أية حالة أسـير نحـو الأفضل .. لقد وجدت ذاتى من خلال العمل .. إحساسى بأنى أفعل شيئًا .

ومرت فترة صمت قصيرة بدا فيها شاكر كأنه مسافر نحو ماضٍ بعيد :

ـ لن تصدقى يا فتحية أننى يوم كنت أملـك المـال الكثير ويوم فتحنا الملهى الليلى كنت أشعر بفقـدان الـذات وكنت أعانى كثيرا من ذلك ، كنت متيقنًا أن كل ذلك يدفعنى نحو الإثم والرذيلة .. يدفعنى لأن أسير ضد الفطرة النقيـة ، فلم يخلف لى ذلك سوى الشقاء .. من هنا أستطيع أن أجـزم أن المال ليس فقط وسيلتى للسعادة ، كما أن الحرية الزائـدة

التى أعطيتها لنفسى لم تكن تخاف سوى تأنيـب الضـمير، وكانت الآلام التى تنتابنى تذيب تحت وطأتها أى لذة أخـرى كنت أتصيدها ، كنت أشعر بأننى شىء تافه ، وحقير ، وهذا الشعور بالتفاهة كان يكتنفنى ويعذبنى فى الوقت الذى كـان الآخرون يعتبروننى فى منتهى السعادة وقمة النجاح ، ربمـا لأنهم كانوا لا يرون سوى الثياب البيضاء التى كنت أرتديها ، وسيارتى الفارهة التى اقتنيها ، ودفتر شيكاتى الذى ألـوح به وعند أدنى مناسبة .

لقد أنسانى شاكر ما كنت أريد السؤال عنه ، الحقيقة أنه تغير كثيرا لدرجة أننى شعرت بأنه ليس هو ذلك الإنسان التائه العابث العربيد ، صياد الملـذات وعابـد المظـاهر ، أحسست أنه فيلسوف عظيم .

حقيقة أن شاكر أقـرب إلـى الشـعراء والحكمـاء والفلاسفة .. معاناته .. حياته الخاصـة .. ثقتـه بنفسـه .. شروده البالغ .. نظرته إلى الأشياء .. ثورته على كل شىء .. رغبته فى التغيير أحلامه الوردية .. تطلعه إلى المثاليـة كل ذلك كان يقول إنه مشروع رجل عظيم . ورجعت أخيرا إلى القول :

ـ لقد توقفت لأول وهلة يوم حضرت إلى بيتك أمام روعة بيتك وسألت نفسى لابد أن يكون وراء نظافته وترتيبه امرأة ما ، بل قلت فى نفســى لابـد أن كثيـراتٍ مـررن من هنا .

قهقه شاكر بعمق وقال:

ـ هه .. حقيقة أن وراء ذلك امرأة .

ـ امرأة ..!! هل أنت متزوج دون علمى ؟

ـ لا .. بل هى أم سيد الشغالة التى تأتى إلى هنـا كل يوم ؛ لتعيد ترتيب البيت وتنظيفه ، ثم تعد الطعام . أمـا تنظيف الملابس وكيها فذلك على المصبغة .

ـ حقا يا شاكر .. إن حياتك هادئة ، ويبدو عليـك الرضا والارتياح ، ولكن .. ألا ينقصك الزواج ؟

ابتسم شاكر وهو ينظر إلى بفراسة :

ـ أعرف مـا تـرمين إليـه يـا فتحيـة .. أنـا لن أتزوجك .

ـ لا أقصد ذلك .

ـ بل تقصدين ، ولكنى على أية حال لـن أتـزوج غيرك .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد لا أنت ولا غيرك .. فأنا لن أتزوج .

ـ ولماذا ..؟

ـ أكبر دليل على فشل نظام الزواج ما حـدث مـع والدى ومعنا جميعا .

لقد ذكرنى شاكر بوالده .. ذلك الرجل الذى حـول حياتى بعصا سحرية إلى مجرى آخر لمجرد أنه اشـتهانى ، ولمجرد أننى مثيرة وجميلة على حد قوله .. لكأنـه أراد أن يعاقبنى لكونى جميلة ؟! .

وأعود مرة أخرى إلى الإصغاء لشاكر الذى ما يزال يتحدث عن الزواج :

ـ ها..

ـ لابد أن يلغى هذا النظام ، وهى مسـألة وقـت لا أكثر ولا أقل ، فالأجيال القادمة ستكتشـف قصـوره ولـن ترضى به أبدا .

ولم أشأ أن أقطع أفكاره المسترسلة ، ولكنى بـذلت مجهودا خارقًا لمسايرته ، غير أن سؤالاً واحدا كان يلح على :

ـ طيب والعيال ؟

ـ لن أقول مثلما قال أفلاطون فى مدينته الفاضلة : " تتبناهم الدولة " ؛ فالدولة لن تتبنى أحدا .

ـ كيف ..؟

ـ الدولة ..!! المفروض أننا جميعا أبناء الدولة ولكن الحقيقة أننا خدام الدولة ومرؤسيها .. عبيدها ليس إلا .. ليس لنا حق الحياة إلا إذا دفعنا ثمن حياتنا شقاءنا ومعاناتنا .

وأضاف بشىء من السخرية :

ـ بذمتك يا فتحية ألم يسئ إليك والداك حينما أنجباك فى تلك الظروف السيئة التعسة ؟

ـ هه..؟!

ـ ما جدوى أن يتعلق الأبناء بآبائهم فى عالم يفـر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه .. عالم لا يعرف قدسية الحياة ولا يهتم بالمبادئ والأعراف ولا يحترم القانون .. ثـم مـا جدوى أن تنجب الأم وليدها لمجرد أنهـا ارتبطـت بربـاط يحرره المأذون ، ثم يأتى وليدها فتقول له مع أولى صرخاته : " آسفة يا طفلى العزيز لم يكن بوسعى أن أنجبك فى عـالم أفضل ، وعليك أن تواجه المشاكل " .

ـ مشاكل ..؟!

ـ نعم مشاكل .. مشاكل الاقتصاد .. إنهـا مشـكلة المشاكل .. إنها وراء كل مشكلة .. سواء التغذية ، المرض ، الفقر ، الجهل ، التشرد ، التشـرزم ، البطالـة ، الجـوع ، الضياع .. ثم التمرد ، والمصيبة الكبـرى عنـدما يحاسـبنا القانون على تمردنا دون النظر إلى تلك القامة الطويلة مـن المآسى .

خبطت على صدرى فجأة :

ـ أعوذ با .. هات لنا سيرة غير السيرة هذه .

ـ لا تكونى بهذه السذاجة .

قلت مازحة :

ـ أنت تريد أن تنكد على بأية طريقة .

وعدت إلى سؤالى الذى لم يجب عنه :

ـ طيب والعيال ..؟!

قال بسرعة وكأنه يتوقع السؤال مرة أخرى :

ـ يجب ألا يكون هناك عيال من الأصل .

ـ كيف ..؟

ـ ألا تعرفين يا فتحية أن سوء التغذية أهون بكثير من سوء التربية .. لذلك يجب ألا ننجب

.. يجب أن نعلم النساء فنون منع الحمل طالما أننا لن نستطع أن نعلم الأباء فنون التربية .

ـ ماذا تقول ..؟

ـ أقول إن " أنديراغاندى " كانت على حق عنـدما أجرت عمليات التعقيم على كثير من رجال الهند . وماذا كان بوسعها غير ذلك ؟

ـ أعوذ با الإضراب عن الزواج أفضل .

ـ آه .. لقد قلتيها بنفسك ، وهذا ما أفعله أنا الآن .. الإضراب عن الزواج .. أتدرين يا فتحية لو أضـرب كـل شباب وشابات بلادنا عن الزواج .. أتـدرين مـاذا سـتكون النتيجة ؟.. بالطبع ستحل الإشكالات الكبيرة .

ـ الإضراب عن الزواج .. منع الحمل .. معنى هذا أنك تبيح ممارسة الجنس بلا زواج ؟!

ـ إن ممارسة الجنس تمارس فى الخفاء وبعيدا عـن الشرائع واللوائح ، وللأسف هى بين المتزوجين أكثـر مـن غير المتزوجين .. ومن من المتزوجين الآن يقف عند حدوده

المشروعة .. وأمامك الأمثلة كثيرة .. ثم أننى لم أتكلم عـن الجنس فتلك مسألة مفروغ منها .. أنا ضد الزواج كنظام وما يترتب عليه من إنجاب .

ـ ماذا تقصد ؟ إننى لم أعد أفهم مـا ترمـى إليـه بالضبط .

ـ أقول أننا نهتم كثيرا بممارسة حريتنا فى الزواج ، ولكننا لم نقف أبدا عند حرية الإنجاب .

ـ تقصد أن نتزوج بشرط أن نحدد النسل ؟

ـ لم تفهمى قصدى بعد يا فتحية

ـ أنا ضد الزواج وضد النسل حتى ولو كان فـردا واحدا .. لأننا لم نتعلم بعد كيف نربى النشء ولم نعد نفهـم معنى الأسرة ومعنى أن يوجد فى كل بيت نظام تربوى يوائم النظام العام للدولة ككل .. وطالما أن الزوجين لم يرقيا بعـد إلى فهم ذلك النظام ، وطالما أن الدولة عاجزة عـن تبنـى الأسر مجتمعة بحيث تنشئ منها مجتمعا له نظمه الموحـدة الراقية فإن فكرة إنشاء الأسرة لا تبدو ذات قيمة ولـم تعـد ضرورة.

ـ معنى ذلك أنك تدعونا للهمجية .

ـ وهل نحن الآن فى شىء مختلف ؟! .. خذى أمثلة .. أنا .. أنت .. سهير.. أنور شلبى .. ارجعى بذاكرتك إلى الوراء وانظرى ماذا قدم لنا والدانا . بل ماذا قدمت لنا الدولة .. آه يا فتحية .. كم نحن مظلومون ومهانون ومحاكمون بلا ذنب .

ـ إنك تذكر " أنور شلبى " مع أنه مختلـف عنـا جميعا لقد تربى فى مؤسسة تربوية .

ـ إن أنور شلبى هذا هو الوحيد بيننا الذى يوضـح إلى أى مدى يمكن للدولة أن تتبنى الأبناء .. أنت تعرفين أنه نشأ فى الأسرة الكبيرة بين أحضان الدولة ماذا كانت النتيجة ؟ هه .. مواطن متحلل .. شبه ضائع .. لم يعرف هويته بعد .. وفى المقابل لم يقدم لها سوى الخلاعة والمجون والعبـث .. إنه إنسان معربد ، يفتقد الحب ، ولا يقيم وزنا لشىء ولا يعرف الحكمة وراء حياته .. إنه إنسان رخيص مبتذل ، لـم يقدم سوى أغانٍ هابطة خليعة عارية .. إنه يحتاج إلى فرقـة من بوليس الآداب كـى تسـير وراءه ؛ لترصـد حركاتـه وسكناته .

مرة ثانية أرانى أمتد بفكرى إلى الوراء .. لقد كـان أنور شلبى ضحية .. تذكرت الآن قصة مجيئه إلى الـدنيا .. وسرحت بعيدا عن شاكر وعصبيته البادية على لهجته فـى الحديث ، وشَخَص أمامى أنور شلبى .. الطفل العارى الذى كان يصرخ أمامى أولى صرخاته فى الحياة وكأنه يصـرخ قائلاً : ـ من أنا .. من أنا ؟!.. لَكَم كنت متجنيـة وغيـر متحفظة ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسى وأغمضت عينـى فى ألم وحسرة .. ولم أفق إلا على صوت شاكر الـذى مـا زال يلقى كلماته فى عصبية : أنا مثلاً .. من حاسـب أبـى على إهماله فى تربيتى .. لقد كان يتصور أن التربية هى أن يوفر لى الطعام فقط .. وللأسف .. تلك نظـرة الكثيـرين . ورأيت أن أسأل شاكر عن نفسه طالما أنه بدأ الحديث عنهـا فسألته :

ـ لماذا أنت غامض .. لماذا أنـت نـاقم ، تكـرر عبارات السخط والفجيعة .. لماذا تبدو مبهما .. لماذا تدعنى أجهلك رغم أنك تعرف كل حياتى ؟؟

فقال وقد هدأت ثورته :

ـ أتذكرين يا فتحية ذلك الكتاب الذى قلت لكِ إنـه يحكى قصة حياتى .. لماذا لم تحاولى قراءته ؟

ـ أذكر ذلك .. ولكنى نسيت الكتاب فـوق مكتبـك يومها .

ـ إذن فلتقرئيه .. وستعرفين عنى الكثير، ولمـاذا أنا هكذا ، رغم كل ما وصلت إليه .. لمـاذا مازلـت أتهـم الجميع بالتقصير ، رغم كل تلك السنين التى توارت خلفهـا أيام طفولتى وشبابى؟.

* * * * * * * *

أتذكر جيدا أننى آويت إلى الفراش بعد ذلك الحوار العصيب وفى رأسى تساؤلات كثيرة .. وشعرت بخيبة أمـل كبيرة وقد عرفت أن شاكر لا يحبذ فكرة الزواج ، معنى ذلك أنه لن يفكر فى الارتباط بى ، غير أنه قال : " لـن أدعـك صريعة هذا الضيق الذى بلغك " وذلك معناه أن إقامتى معـه مؤقتة .. نعم مؤقتة .. ذلك هو التفسير الوحيد ، فهـو لـن يتزوجنى ، ولن يتزوج غيرى .. إذن إلى أين سأذهب .. هل سأبقى معه هنا .. لا .. لا .. إنه لا ينـوى ذلـك .. هـل

سيبحث لى عن رجل آخر يتزوجنى ؟ ! .. معقول هذا ؟ .. إنه لا يعترف بالزواج ، فكيف يـدفعنى إليـه ؟ وتشـعبت الأفكار فى رأسى وتزاحمت التساؤلات ، بـل وودع النـوم عينى ، وأحسست أنه لن يزورنى تلك الليلـة .. وانتـابتنى حالة من التمرد ، ورحت أقلب الفراش ؛ لأحوله إلى أكوام ، ورأيتنى أغادر السرير لأخرج من الحجرة .. أتمشى بضـع خطوات فى الصالة .. أتساءل بعمق :

ـ كيف لرجل أن يبقى مع امرأة فى بيت واحد دون أن يفكر فى اللقاء الجسدى بها ؟ .

نظرت إلى حجرة شاكر .. ما زال الضـوء منبعثـًا منها ، نظرت من فتحة ضيقة فى الباب .. إنه ما زال يتسمع الموسيقى الخافتة منهمكًا فى الكتابة .

تراجعت قليلاً عن الباب وهمست فى نفسى : ـ هل هذا هو شاكر ذلك الذى لم يكن يدع ليلة واحـدة مـن تلـك الليالى التى عشتها معه دون أن يعبث فيها ما راق له العبث ؟ .. أتذكر جيدا أنه كان يمزق كل قمصان النوم التى كنـت أرتديها ؛ لأنه لا يحب أن يرانى متوارية عن أنظاره خلـف قماش .

لا شك أنه تغير .. وتغير كثيرا .. ويا لهذه الملائكية التى تكتنفه .. إنه رجل آخر لم أتعرف عليه بعد .. حالـة واحدة ما زالت تسيطر عليه وما زالت تحتفظ بها نفسه ، تلك هى حالة التمرد وعدم الرضا على كل شىء حوله ، وما عدا ذلك فهو إنسان آخر أهابه وأحترمه .. إنه كالعابد القابع فـى خلوته ، و لقد كان جديرا باحترامى .

ورغم أنى شعرت بذلك نحوه إلا أننى شعرت أيضا أننى محمومة إلى لقائه على فراش ، وتمنيت لو يخرج مـن حجرته ؛ لأهمس إليه ، وأدعـوه إلـى فراشـى .. لكننـى تراجعت قليلاً عن تلك الفكرة ، وقلت لنفسى :

ـ كيف لى أن أكون – كما قال فى الماضى – ذلك الشيطان الذى يخرجه من ملائكيته ؟ .. ألا أحترم نفسى قليلاً ؟! .

وعدت إلى غرفتى مرة أخـرى إلا أننـى حولـت الفراش إلى أكوام ، وألقيت بجسدى فوقـه أصـارع الأرق والأوهام ، ثم ما لبثت تلك النوبة الشيطانية أن هدأت حتـى وقع بصرى على كتابه الذى أدسه بين الفراش المتكوم تحتى ، فعدت إلى ترتيب الفراش وبدأت قراءة الكتاب:

" العبث " .. ذلك عنوان الكتاب .. والإهـداء إلـى القتلة والجناة ، إلى الذين أُعطُوا حريـة التكـاثر والتناسـل وأهملوا النبت .. إليهم .. أولئك الذين قلبوا الدنيا فوق رأسى ، وجردونى الهوية .. إليهم من تحت الأنقاض ، إننـى مـا زلت قادرا على العطاء غير أنى لن أثق مرة أخـرى فـى القلوب والعقول .. كلها جوفاء .. كلها جوفاء .

لا شك أنه إهداء غريب : إلى القتلة والجناة .. وأى شىء يمكن أن يهدى إلى القتلة والجناة؟!.

* * * * * * * *

عندما ولد شاكر كان أبوه فقيرا لا يملك من حطـام الدنيا سوى مرتبه الضئيل ، وبيته المتواضع فى إحدى قرى الريف ، وعندما دخل شاكر المدرسة الابتدائية تحول والـده من رجل بائس الحال إلى رجل ثرى يجرى المال بين يديـه .. لقد توفى والداه وورث من كـل منهمـا أفدنـة عديـدة وعقارات لم تكن ذات قيمة فى البداية ، ولكن بعد أن زحف العمران على الأراضى الزراعية أصبحت تلـك الأراضـى بقيمة الذهب ، وباع الأستاذ البـرنس الموظـف بالجمعيـة الزراعية كل تلك الأراضى والعقارات وودع الريف إلى غير

رجعة بعد أن استقال من وظيفته ؛ ليعيش فى المدينة . وفى المدينة تحول إلى تاجر عقارات وأراضٍ ، ثم مـا لبـث أن تحول إلى تجارة السيارات .

مشكلة شاكر فى ذلك الوقت أنه لم يكن يرى أباه إلا قليلاً .. لقد تحول أبوه إلى حافظة تحمل الأرقام ، لا يعرف من الحياة سوى حسابات الربح والخسارة ، أما بيته وأسرته فلم يكن ليهتم بهما أبدا ، لدرجة أنه لم يكن يعـرف فـى أى صف دراسى ابنه ، ورغم ذلك فلم يكن بخيلاً علـى بيتـه ، فعاش شاكر فى بحبوحة من النعيم والترف ، إلا أنه عـاش بلا أب ، ولما كانت أم شاكر قروية ساذجة فقد رأى والـده أنها لم تعد تلك الزوجة التى يرضـى بهـا رجـل مثلـه ؛ فخصص شقة واسعة فى إحدى العمائر الفخمة ، وراح يقـيم علاقات نسائية متعددة مع نساء صغيرات ، وصارت شـقته وكرا لنزواته ، وأهوائه المختلفة بعد أن أدمن الخمر والقمار ، ونسى أن له ابنًا وزوجة .. ورغم كل ذلك فإن شاكر يذكر حسنة واحدة لأبيه أنه لم يكن بخيلاً عليهما ، بل كان كريمـا معطاء إلا أنه لم يكن يعطى سوى المال .

وهكذا عاش شاكر وهو يرى كل معانى الأبوة تنتحر يوما بعد يوم فى أبيه ؛ لتقتل بذلك كل معانى الطفولة والصبا فى نفسه ، غير أن معاناته فى ذلك الوقت لم تكن كذلك فقط ، بل كانت هناك معاناة أخرى تسببها له والدته .

فقد عاشت والدته الساذجة التى لا تعرف عن ألاعيب زوجها شيئًا صريعة أمرين أولهما هجر زوجهـا وثانيهمـا داؤها العضال الذى لازمها منذ صباها فقد كانت تعانى مـن الآم المفاصل والتهاب الغضاريف وهشاشة العظام ، أما وقد هجرها زوجها وهى صريعة ذلك المرض اللعين فقد عكفت قدر استطاعتها على تربية شاكر الذى كـان يتـألم كثيـرا لمرض والدته وضعفها عن القيام بكل واجبات المنزل ، فكان كثيرا ما يقوم بدلاً منها بغسل الملابس وطهى الطعام وعندما كان يشتد أنين أمه كان يسهر على راحتها ويجوب معها كل عيادات الأطباء وذلك ما كان يضيف عبئًا جديدا على عبء شاكر بينما كان والده يعب عن متع الربح والجنس وسـكرة الخمور الزائلة .

وهكذا عاش شاكر آلامه وأحزانه إلـى أن توفيـت والدته ؛ فازدادت أحزانه وآلامه ، ليعيش وحيدا بلا أم أو أب

حبيس البيت لا يبرحه للذهاب إلى المدرسة التى كان مواظبا على حضورها على أمل أن ينهى دراسته ليشق طريقه فـى الحياة بعيدا عن طريق أبيه .

وعندما وصل شاكر إلى السنة النهائية بالثانوى شعر بحاجته إلى والده ، وتمنى لو يقف بجواره لكى يتخطى تلـك السنة الشاقة الوعرة ، ولكن والده الذى لم يكن يدرى فى أى صف دراسى ابنه لم يلق له بالاً ، ولم يوافق على عيشه معه ، بل أن شاكر نفسه لم يكن ليعيش معه وهو يعرف أن والده لا يعرف سوى الكأس والزجاجة والنساء .

ولكنه يذكر أنه عندما ذهب إليه ليشكو همه ووحدته عرض عليه الزواج ، واقترح عليه ترك الدراسة والاشتغال بالتجارة معه ، ولما كانت أحلام شاكر متعلقة بالدراسة والعلم رفض اقتراح أبيه ، وآثر الاعتماد على نفسه ، ولجأ إلى أحد زملائه ليستذكر دروسه معه فى بيته ، ولكن أباه ما لبث أن أحضر له خادمة لتقوم بخدمته فى البيت ، وهنا يتوقف شاكر قليلاً ؛ ليتساءل :

ـ أى شاب ذلك الذى يقف من نفسه موقفًـا صـلبا صامدا فى محراب العفة وهو يرى كل يوم خادمـة رشـيقة

نابضة بيضاء يسترسل شعرها تحت أطراف منديلها ليتـدلى إلى ما فوق فخذيها .. أى شاب ذلك الذى ينْتَظـر منـه أن يعصم نفسه من الارتماء فى أحضان الرذيلة ، وقد استبدلت الأقدار أمه المريضة بتلك الخادمة الجميلة لتعيش معه أكثـر ساعات يومه ، عندما تتحـرك أمامـه يتـراقص ردفاهـا المستديران ، ويهتز ثدياها النافران ، وعندما تلتقى عيناهـا بعينيه تنفرج شفتاها المسعورتان بابتسامة واسعة .

لم يكن بدا أمامى مـن إبـدال الكتـاب بالخادمـة ، وأصبحت لا أنتظر سوى عودتها ، وأمسيت لا هم لى سوى مغازلتها وتعرية جسدها فوق فراش أمى التى رحلـت عـن الدار .

وانتهى ذلك العام ولم يرسب شاكر بل نجح ، ولكـن درجاته لم تكن لتؤهله لدخول الجامعة ، فلم يكن بـدا مـن إعادة دراسة السنة مرة أخرى ، وكان لابد أن يستغنى عـن الخادمة .

ولما كانت قد تربعت على عرش رجولته واسـتولت على بقايا قلبه وجد نفسه شغوفًا بها حانيا إليها ، حتـى لأن وجودها فى بيته كان ضرورة لا يستغنى عنها .. فقد أعطته

الحنان المفقود والاهتمام الذى أشـعره برجولتـه وعنفوانـه وحاولت بكل جهد أن تكون له كل شىء وكانت ، وكان لابد أن تبقى الخادمة وهنا وجد نفسه أمام المعادلة الصعبة وعجز عن الحل وانزلق نحو الخادمة .. نحو أفاق أخرى صـنعتها له ، فكان الجنس والخمر والأحـلام .. ونسـى المدرسـة والكتاب وضاعت الآمال .

وفى تلك الأثناء عرض عليه أحد الأصـدقاء فكـرة السفر إلى الخارج ؛ فودع شاكر كل ذلك وسافر إلى أمريكـا بعد أن اقتنع أن الحياة تتلخص فى كلمتين اثنتين هما الحرية والثراء ، غير أن هناك دافع آخر كان أشد من ذلك الاقتناع ، فشاكر لم يكن محروما من حرية العبث فى بلاده ، ولم يكن ينقصه الثراء إلا أنه أحس بأنه بلا مأوى وبلا هدف وأصبح دائم يبحث عن هدف يعيش لأجله بعد أن تـرك دراسـته ، فكان السفر إلى الخارج وسيلة الهروب من كل معاناته .

وهناك فى أمريكا عاش شاكر فى مدينة " نيو يورك " حيث الرذيلة تتجلى فى أعظم صورها ، وحيث تنتشر عالم الليل وحياة الأضواء المتلألئة حتى الصباح . فى ليالى تلـك المدينة ، وحيث يحلو العبث عاش شاكر فى ذلـك المسـرح

الكبير ، غريبا تائها وسط خضم هائل مـن الصـراعات ، فعمل فى إحدى فرق السرك وتعلم فنونًا من مختلف الألعاب ، وظل يتنقل مع الفرقة أينما تنقلت ، ويعـيش كمـا يعـيش الآخرون ، حتى نسى بلده و شرقيته وراح يقلد من حوله فى كل شىء ، بل أنه وجد الضرورة تقتدى ذلك .

تحول شاكر الشرقى إلى شخص آخـر متـأمرك ، وعاش كما يعيش والده فى بلـده ، ولكـن علـى الطريقـة الأمريكية . ولما كانت حياة الشاب فى أمريكا لا تخلو مـن الجنس تعلق شاكر بفتاة هى إحدى أربع فتيات كن يعملن معه فى الفرقة ، أحبها شاكر وركز آماله علـى الـزواج منهـا والعيش معها أينما تريد ، وليكن ما يكون .

وهكذا تحولت الخادمة المصرية إلى فتـاة أمريكيـة شقراء ذات شعر ذهبى وعيون زرقاء .. طاف معها شـاكر كل مدن أمريكا ، وعاش معها حياة هادئـة مليئـة بالعشـق والهيام ، وعاشرها كما كان يعاشر خادمته المصرية .

ولكن " لينا " الأمريكية كانت تختلف عن " سميحة " الخادمة المصرية ، فسميحة عندما فرطت له فـى جسـدها وبادلته الغرام كانت تقدم عربونًا كثيرا مـا يقدمـه أمثالهـا

لتوريط مخدوميهم ، وإجبارهم على الزواج بهم ، أمـا لينـا الأمريكية لم تقدم ذلك إلا لأنها أرادت ذلك ، ومـن دون أن تضع فى ذهنها فكرة الزواج ، فهى لم تعطيه سوى جسدها ، واحتفظت بقلبها بعيدا عن فلك شاكر ؛ لذلك عندما عـرض عليها فكرة الزواج أبدت دهشتها ، وقالت ببساطة :- غريب جدا أن تفكر فى الزواج بمثل هذه السرعة ، فأنا لا أعتبـرك أكثر من "البوى فريند " ، غير أنى لا أتمنى أن تضـع فـى يدى قيدا اسمه الزواج .

وعندما ألح شاكر فى طلب الزواج هجرته ، وقطعت علاقتها وعاملته كزميل فى العمل ؛ وكانت صـدمة عنيفـة هزت مشاعره ، وراح من ثم يبحث عن إجابة واحدة عـن سؤال يؤرقه :- كيف ينتهى كل شىء بينهما بهذه السـهولة لمجرد أنه أرادها زوجة له ؟.

وأخيرا وجد الإجابة عندما رآها تنتقل من أحضـان شاب إلى أحضان شاب آخر ، كأنها السيجارة تنتقل من فـم إلى فم آخر .. رآها تنتقل من ملاطفة شاب إلى معانقة آخر .. رآها تسهر مع شاب وتنام فى فراش الآخر ، فـأدرك أن تلك الفتاة لا تعرف الحب الذى يعرفه هو، وعرف أنهـا لا

تهتم كثيرا بالمشاعر ؛ فكل همها اغتراف اللذة والمتعة مـع أى شخص ترغبه ، ولم يستطع شاكر تحمل ذلـك فتـرك العمل مع فرقة " السرك " وراح يبحث عن " لينـا" أخـرى تعطيه الحب والحنان والمتعة واللذة وتقبله زوجا .

ولأنه لم يكن يملك خبرة محددة فى أى من مجالات العمل ظل يتنقل من عمل إلى آخر .. فعمل مرة فـى أحـد المطاعم جرسونًا ، وعامل نظافة فى إحـدى دور السـينما وعمل فى البياض ومع الحدادين . لذلك لم يجد شاكر الفتاة التى تقبل الزواج به وهو على حالته تلك حيـث أنـه لـن يستطيع أن يعيش كما يعيش الأمريكان ، ولن يستطيع توفير احتياجات الأسرة ، وهو على تلك الحالة المتواضعة الفقيـرة ولأنه شرقى بالدرجة الأولى ؛ لـذلك كانـت الأمريكيـات يترددن كثيرا فى قبوله زوجا .

وهكذا ظل شاكر ست سنوات فى أمريكا لم يوفق فى الزواج بأمريكية ولم يجد من بيـنهن مـن تعطيـه الحـب والحنان الذى يفتقده ، إلا أنه لم يكن يعيش بلا فتـاة تبادلـه الفراش وتعطيه اللذة والمتعة وتجوب معه كل نوادى الجنس والعراة وملاهى نيويورك الساحرة المثيرة ، حيث رقصـات

العراة وحمامات " الهيلاما " اللزجة . وأخيرا عاد شـاكر إلى بلاده بعد أن توفى والده ليجد نفسه أمام لغـز عميـق .. كيف عاش والده بعد سفره وكيف مات ..؟ ومن تلك التـى دست له السم فى الطعام ؟.. ومن تلك الفتاة التى هـام بهـا والده فتزوج من أمها ليعيش بجوارها ؟.

كان الفجر ينذر بالقدوم عندما أنهيت قراءة الكتاب ، لقد تأكد لى ساعتها أننا جميعا تائهون ضـالون .. جميعنـا ضحية أنظمة تربوية خاطئة .. ضحية إهمال وغفلـة مـن القائمين على تربيتنا .. جميعنا نفتقد الحنان والحب ونبحـث عنهما ، وعندما نَكِل من البحث ، وتسأم نفوسنا نتجه نحـو الشذوذ .. شذوذ الأخلاق والسلوك والفهم .

لقد تأكد لى ذلك المفهوم بعد أن عرفت كل شىء عن شاكر ، عرفت لماذا هو كذلك .. لماذا هو ناقم .. لماذا هـو يائس .. لماذا لا ينوى الزواج .. لاشك أن عقَـد الطفولـة وأمراضها كفيلان بأن يحولا حياتنا إلى مجرد عبث وانتقام .

أما وقد هـدأت قلـيلاً وقـد أدركـت أن آخـرين يشاركوننى المعاناة والمأسـاة فقـد داعـب النـوم عينـى واستسلمت له فى ارتياح .

* * * * * * * *

" انتحار المطرب الشاب أنور شلبى " عنوان بارز فى صفحة الحوادث بإحدى الجرائد اليومية .. انخلـع قلبـى وأنا أقرأ العنوان : أنور مات ؟ ! .. دوار شـديد يلفنـى ، ويترنح الجسد للحظات ثم أقع على الأرض .. رفعت عينـى بعد لحظات على الصورة التى تعلو الخبر .. يصيبنى العمى المفاجئ لبضع دقائق ، ثم أعاود النظر إلى الصورة ودقات قلبى تتدافع فى سرعة رهيبة .. وأنا أحدق فى ذهـول فـى الصورة .. جثة ضاعت معالمها .. ورأس مـبطط غُطـى برداء أسود من الدم المتجلط .. أتمالك نفسى قليلاً وابدأ فى قراءة السطور بعينين غطتهما الدموع ، حتى لأن السـطور بدت متشابكة : لقد ألقى المطرب الشعبى أنور شلبى بنفسـه من الطابق الثامن لفندق " ماجيك بالاس " حيث كان يقيم فيه منذ خمسة شهور .. وكان المطرب الشاب يقدم بعض أغانيه فى الفندق نفسه بمصاحبة الراقصة الشرقية " سهير " التـى كانت كثيرا ما تلازمه فى كل حركاته وسكناته ، وقد انتقـل إلى مكان الحادث جمع من رجال الشرطة والنيابة والصحافة ، وقد اتضح أن المطرب الشاب أقدم على الانتحار فجر أمس

، وقد ترك ورقة وجدت فى حجرتـه كتـب فيهـا : " لأن الطبيعة ترفض الفراغ انتحرت ، بعد أن أصـبحت حيـاتى فراغًا وخواء مسيطرا على نفسى .. انتحرت لأنـى فقـدت ثقتى فى القلوب ، ولم أجد الحب بينكم .. انتحرت فاعذرونى إن فعلت ذلك ، لكم كان وجـودى خطـأً ، وقـد أردت أن أصحح الخطأ " .

كأنما سكين حادة قد مزقت قلبى .. تدور بى الـدنيا عدة دورات وأنا أتخيل المشهد كاملاً : أنـور يهـوى مـن الطابق الثامن .. يصطدم عدة مرات بالنوافذ والشـرفات .. يرتطم أخيرا بالأرض .. تتهشم رأسه وضـلوعه .. تنـزف الدماء .. تفترش الأرض .. تضيع معالم الجسد .. يتجمهـر الناس حول الجثة ويمصمص بعضهم الشفاه وقد علق بالقول :

– مسكين هذا الرجل .. لابد أنه انتحر .

ويقول آخر وقد آلمه المنظر البشع :

– لا حول ولا قوة إلا با .. من قتل نفسه كأنما قتل الناس جميعا .

ويأتى صوت آخر من وسط الزحام :

– أنور شلبى ؟! .. يآه .. إنه المطرب رخيم الصوت .. خسارة .

وبعد لحظة شرود شخص فيها المنظر أمام عينى .. رأيت نفسى أهرول كالمعتوهة على السلم ، لا أرى أمـامى سوى وجه ابنى أنور شلبى ، وكأنه مازال يرمـى بنظراتـه إلى عن قرب .. كأنه ما زال بعد مطوقًا جسدى بيديه وهـو يهمس :

ـ يا حياتى .. لكم أود أن أكون بقربك بقية عمرى .

ويأتى صوته مرة أخرى مدويا فى أذنى :

ـ هل تقبلينى زوجا ؟

نفس النظرات .. نفس الهمسات كانت تتـردد علـى أذنى مرة أخرى .. ووجهه شاخص أمامى ، فخرجت منـى صيحة مدوية رددتها فى وجه المارة فى الشارع :

ـ أنا السبب .. لقد قتلته .. أنا الجانية .

يندهش المارة ، و يعلق بعضهم تعليقات لم تلتقطهـا أذنى جيدا ، وأتوقف فجأة متذكرة أننى لا أعرف الطريق .. تحملق فى العيون للحظات وأنا واقفة أفكر كيف أذهب إلـى فندق " ماجيك بالاس " .. أتوقف لحظة أمام " فاترينة " أحـد المحلات الكبرى محاولة بكل جهد أن أتمالك أعصـابى وأن أعيد إلى نفسى هدوءها.. أخيرا تقودنى قدماى إلى بار قـديم .. لقد أدرك " البارمان " بحكم خبرته أننى فى محنة ؛ فمـلأ كأسا تلو الأخرى ، دون انتظار الإشارة منـى .. فتـذكرت فجأة أننى لا أحمل نقودا تكفى للإغراق فى الهروب ، فدفعت الحساب ، ومضيت تاركة قدمى تقودانى إلى حيـث يشـاء القدر .. أنتبه فجأة إلى نفسى وأنا جالسة فوق دكة فى حديقة مطلة على النيل وسحابة كبيرة تتجه نحو الشمس ، سـرعان ما تحتويها ، فتختفى الشمس بين الغيوم ، وتنتابنى قشعريرة حادة ؛ فأضم ذراعى إلى صدرى كـأنى أبتهـل بصـلوات صامتة ، وأتطلع إلى السماء فيطالعنى وجه ابنى الحزين وقد أطلت من عينيه نظرة استسلام وعتاب وأسى .

أجرجر قدمى أخيرا إلى بيت سهير .. تفتح سـهير الباب وهى متشحة بالسواد وفـى عينيهـا دمـوع غزيـرة وارتمت فى أحضانى وقالت : ـ دفنوه .

ـ " ابنى " .. صرخت بها صرخة مدوية انطلقـت منى فجأة .. نظرات سهير كانت تستفسر عن الكلمة ولكنـى أردفت بسرعة : ـ ابنى .. نعم .. إنه ابنى .. لقد قتلته .. قتلته بطيشى وجنونى .. ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعـل .. أأعترف له بالحقيقة .. أم أتزوجه .. ؟ ! إن كـلا الأمـرين صعب .. نعم صعب. رأيت سهير تمسـك رأسـها بيـديها وتجلس على أحد المقاعد وهى تقول : " مستحيل " .

أخيرا نهضت سهير وأمسكت بيـدى وقالـت : ـ ـ لتذهبى الآن إلى المقبرة لتلقى نظرة أخيرة على مثواه . وفى المقبرة توقفت سيارة سهير ، واتجهت بى صوب القبر الجديد ، وأشارت بيدها : ـ هذا قبر ابنك.

احتضنت القبر وقد تراخت أطرافى وانهار جسـدى حتى لامس التراب ، وانهمرت دموع غزيرة مـن عينـى ، وكلمات كثيرة هذيت بها : سامحنى يا ابنـى .. لـم يكـن بوسعى أن أجعلك أفضل من هذا .

غير أن حزنًا بالغًا كـان ينتشـر فـى صـدرى ، وإحساسا ثقيلاً طاغيا بالقهر والهزيمة . لقد تـآمرت علـى الدنيا بأسرها ووقفتُ مكتوفة اليدين .

عادت بى سهير أخيرا بعد أن ألقيت نظرة إلى القبر ، إلا أن طيفه كان لا يزال حائما حولى ، وأنا أفكـر كيـف سأتخاص من عقدة الذنب نحوه ، وكيف أقاوم الكوابيس التى ستنقض على فى ليلى ؟.

وعندما عدت إلى البيت كان شاكر راقدا بلا حـراك يحملق بعينين زائغتين فى سقف الحجرة .. أنفاسه البطيئـة التى يعلو بها صدره ويهبط بانتظام هى الدليل الوحيد علـى أنه لم يفارق الحياة بعد . لم يحس بوجودى حوله ، أو ربمـا أحس ولكنه تجاهل ذلك .. وكلمات كثيرة كان يتمـتم بهـا : الخير .. الشر .. الوجود .. العدم .. الشرف .. الفضـيلة .. التمرد .. التمرد فى صورته العظمى هو تمرد على الوجود .. لقد انتحر أنور شلبى ! .. لقد تحدى الأقدار ؛ لينهى بيديه ما بدأته الأقدار بحكمتها .. إنه الخسران المبين .

وانتصب من رقدته فجأة ، وأشعل سـيجارة وراح يقطع المكان جيئة وذهابا وهو ينفث الدخان بكثرة ، ويـردد عند كل نفس بشدة :

ـ لقد صدق سقراط حينما قال " إننى لا أعرف ماذا يكون الموت .. ربما كان أمرا طيبا ، فأنا أؤثر ما يحتمل أن يكون طيبا على ما أعرف أنه شر " .

ورأيته يمسك ذراعى ويهزنى بقـوة ويصـيح فـى وجهى :

ـ أشعر أنك قد تلقيت درسا قاسيا .. ولكن وا أسفاه .. لقد جاء الدرس متأخرا ! .. هل تعرفين أن للدرس بقيـة ..؟

وترك ذراعى بعد أن رماها رميا .. وهـو يضـيف قائلاً وهو يشير بإصبعه نحو عينى :

ـ أنت .. أنت بقية القصة .. قصة العبث ، عليـك إذن انتظار دورك .. يجب أن تتذكرى الموت .

ووكزنى بشدة فى كتفى وهو يصيح فى :

ـ تذكريه .. ربما تدركين حكمة الوجود .. تذكريه ربما ينصلح حالك .

ولكنى بالطبع لم أكن فى حالة تسمح لى بـأن ألقـى بكلمة واحدة ، بل كنت فى حالة أشبه بالإغماء ، ووجوم تام كان يسيطر على ، وكلمات شاكر تدوى فى أذنى .. ودخان سجائره يسلك طريقه نحو عينى الدامعتين .

* * * * * * *

مرت على ذلك اليوم أسابيع عديدة ولم يفارقنى فيها طيف أنور شلبى ليلة واحدة .. لم أحاول أن أغادر البيـت ، بل لم أحاول أن أغادر الفراش ، وعاودتنى حالـة مرضـية قديمة انتابتنى عندما أخبرنى الطبيب لأول مرة بأنى حامل .. إنها نفس الحالة التى انتابتنى يوم نبتت بذرته الصميمة فـى جوفى ، وتنتابنى اليوم ، وأنا أحاول أن أقتلع نفس الجـذور من ذاكرتى ، فما أقسى الأحزان على النفس وما أعتم أيـام الحداد ! لم أحاول كما كنت فى الماضى أن أخرج من تلـك الحالة باللجوء إلى الخمرة والرقصة والارتعاشة المجنونة .. لم أحاول أن اوهم نفسى كثيرا ، بل عشـت المعانـاة كمـا تحملت المأساة .

ولقد حاول شاكر جاهدا فى ذلك الوقت أن يخرجنى من تلك الحالة فكان كثيرا ما يحدق فى وجهى وقد هالة ذلك الشحوب الشديد ومظهرى الذى يشبه الأشباح فبـادرنى ذات مرة :

- إنك تنتحرين بطريقة جديدة .. إنك تقتلين نفسـك بذلك الاستسلام للأحزان .

وكثيرا ما كان يسندنى إلى كتفه وهو يربـت علـى صدرى .. ويداعب شعرى الذى تحول إلى لفائف متشـابكة ويرسل كلماته فى حنان بالغ :

- الموت سنة الحياة .. الموت أعظـم هديـة مـن الخالق ، لأنها تنقلنا إلى الراحة الأبدية .. يجـب أن نتقبـل الموت بالتهليل بدلاً من الأحزان .

ومرة أخرى كان حنانه فائقًا فقبل وجنتى وقال :

- إنك أصغر من أن تتحملى ذلك العذاب ، بل إنـك أرق من ذلك ، إن الأحزان يجب ألا تعرف طريقهـا إلـى قلوب الجميلات .. هيـا .. انهضـى واغسـلى وجهـك ؛ فسنخرج معا للتنزه.

أذكر أننا أمضينا تلك الليلة فى نزهة على النيل ثـم تناولنا عشاءنا فى أحد المطاعم السياحية.

لقد انقضت تلك الليلة وشعرت فى الصباح بأننى قـد أفرغت من جعبة الأحزان كثيرا .

تكرر خروجنا معا لمرات عديدة ، حتى لأن شـاكر كسر ذلك النمط الذى رسمه على حياته لأيامٍ كثيرة ، فكـان كثيرا ما يصحبنى إلى دور السينما والمسرح والحدائق وبدأنا نعيش لونًا آخر من الحياة .

وقد مرت شهور عديدة على وفـاة أنـور شـلبى ، وجدت نفسى أخيرا أنسى ذلك الحادث وأصبحت قصة " أنور شلبى " مجرد ذكرى أليمة تسكن هامش خاطرى .

* * * * * *

لأول مرة تتحول حياتى إلى خواء صامت .. لـيس فى الأمر من جديد .. كل الآمال و الأمانى أصبحت صـفرا .. لقد تحول كل شىء إلى ذكرى ، ونزعت إلـى السـكينة والهدوء خلف جدران البيت لا أتصور حدثًا جديدا ولم يعـد لى من حياتى مطلب .. وأى مطلب من الحياة يمكن لامـرأة

مثلى أن تطلبه وهى تقف علـى عتبـات عامهـا الخـامس والأربعين ؟!

لقد مات أنور شلبى ، وتحول إلى ذكرى ، وماتـت أمى وتحولت إلى ذكرى ، ومات زوجها العجوز وتحول إلى ذكرى .. وقبلهم مات أبى وتحـول إلـى ذكـرى .. كـل الأشخاص .. جميعهم مجرد أحداث تظهر ثم تختفى لتبقـى الذكريات التى ترف حول الخاطر ، ثم ما تلبث أن تختفى .. طالما الأمر كذلك فليس من داعٍ لأن أحزن على شىء لم أنله ، وليس من داع لأن أطمع من الحياة فى شـىء ، لأن كـل الأشياء تنتهى عند نقطة التلاشى لتتحول إلى ذكريات .. غدا عندما أموت كمن سبقونى ، وعندما يموت شاكر سـنتحول إلى ذكريات .. إذن فكل الأحداث مصيرها إلـى التلاشـى وليس من باقٍ ، فلماذا إذن أحزن على شىء لـم أمتلكـه أو على أمل لم أظفر بتحقيقه ؟ .. أيكون ذلك نوعا من الرضـا أم أنه نوع من الاستسلام ؟ .. لسـت أدرى !! .. كـل مـا أذكره أننى عشت بلا أمل جديد ، أنام لكى أصحو وأصـحو لكى أنام .. تلك حياتى التى اختارها لى القدر .. فلتكن كمـا تكون .. فقد مر الماضى بكل أحداثه ولم أكن فى يوم راضية

عنه ، رغم أنى صنعت كثيرا منه بيدى ، إلا أننى لـم أكـن أشعر بوجودى خاف كل تلك الأحداث ، وكنت دائما أتصور نفسى مفعولاً بها وفيها ولم أكن أتصور أننى فاعلة .

لقد عجزت عن مسك زمام حياتى ولـم أرث منهـا سوى الذكريات القاتمة الحزينة ، بعد أن فشلت فى أن أحقق شيئًا أفضل .. أيكون ذلك لأنى عشت بلا هدف واضـح ، أم لأننى لم أكن أفهم سر الحياة وسر الوجود ؟ الحقيقـة التـى أذكرها الآن أن وجودى ضرب من العبث .. وأى عبث أكثر مما أنا فيه : الماء والطعام ثم الفراش وماذا بعـد ذلـك ؟! أيكون ذلك إحساس بالانتهاء أم هى النهاية فعلاً .. لاشك أنها كلمات شاكر التى قالها لى يوما : " ليس الموت أن تفـارق الروح الجسد ، ولكن الموت هـو أن تصـبح الحيـاة بـلا معنى " .

صحيح .. أى معنى لحياتى ؟! أليس من العبـث أن أستمر فى حياة بلا معنى مع رجل ليس بينى وبينه من شىء سوى أن نجلس على مائدة الطعام لنتذوقه معا ، وتختفى بعد ذلك كل مظاهر الحياة لأقبع فى حجرتى مع الأوهام المعششة فى بقايا الدماغ .. وبعض الأشياء المعتادة : فهذا كتاب وتلك

جريدة ، وذاك المذياع وهذا التلفاز، وذلك الطبخ الملىء بما لذ وطاب .. وماذا بعد ؟! ما معنى أن أقرأ أحداث العالم وأنا أعيش فى عالم محصور ومحدود بحدود جدران المنزل الذى أعيش فيه .. ما معنى أن أشاهد العالم يتحرك حولى وأسمع وقع أقدامه دون أن أشارك فى حركته ؟! .. ما معنى أن أعيش مع شاكر وقد تحولت حياتى معه إلى شىء لا يطاق ؛ فلم يعد يهتم بوجودى ، ولم يعد يدعونى للخروج معه إلى أى مكان ، لقد رجعتْ علاقته بى كما كنت عند مجيئى إلى هنا ، ولم يغير من أسلوبه إلا لكى يخرجنى من حالة الحزن التى وقعت فيها بعد موت أنور شلبى ، ثم تركنى مرة أخرى أصارع الأوهام وأبحث عن معنى للحياة .. وتلك مأساة أن أبحث عن معنى الحياة ، بعد كل تلك الأحداث التى مرت بها حياتى ، فى مثل هذا السن الذى وصلت إليه .

إن امرأة مثلى كان يجب أن يكون لها بيت وزوج وأولاد .. إن أمومة المرأة فى مثل سنى هى معنى حياتها ، أن تنظر على أولادها وتراقب حياتهم وتسر لسعادتهم وتتعس لشقائهم وهى تراقب عالمها الخاص .. تعيش ككائن مؤثر..

تمارس العطاء ، وتشعر بالسكينة والاطمئنان مع أسرتها ،.. هذا هو معنى الحياة لامرأة مثلى .

لقد تحولت حياتى إلى خواء صامت .. ليس فى الأمر جديد سوى انطلاق الأحاسيس الباكية من معاقلها لتبكى أنشودة الأمل المحترق .. لم أعد أتصور حتى يوما جديدا يختلف ، غير أن إحساسا قديما قِدم عمرى بدأ يعاودنى ، ذاك هو الإحساس بأنى أريد الخروج خارج واقعى لأصنع عالما آخر أو لأصنع نفسا أخرى غير نفسى .. قد يكون ذلك لمجرد أنى أريد أن أضع نهاية لحياتى بالخروج من دائرتها .. لكم كان يعاودنى ذلك الشعور، وكثيرا ما كنت أستعذب المعاناة معه ، وكثيرا ما كان يحلو لى الخلود إلى نفسى عندما أُلْقِى بجسدى على الفراش ، وينتابنى وجوم تام لأحدق بعيون مشدوهة فى سقف الحجرة وفى رأسى شريط لا أعرف له بداية من نهاية ، وكثيرا ما كنت أفيق من سبحتى تلك وأهز رأسى بعنف وأنتبه لنفسى جيدا فى محاولة لتذكر جسدى ، وفيما كنت أعود من دوامة التفكير أجدنى دائما لا أتذكر شيئًا ، وأغرق أحيانًا دون سبب أعرفه فى دموع غزيرة مستعذَبة حتى يغلبنى النعاس .

وذات ليلة كأنما كنت أمارس أحد تمارين " اليوجا " الهندية جلست على فراشى ونكست رأسـى حتـى لامسـت الغطاء ، وظللت على هذا الوضع حتى الصباح ، لكم كنـت أحس بارتياح شديد أن أبقى هكذا ، حتى لأننى كررت ذلـك الوضع كثيرا ، وكأنى أدمنته .. فعند كل مساء كنت أجـدنى ساجدة على فراشى ، ورأسى ملامسة الفراش حتى الصباح .

وفى كل مرة كنت أنسى ذاتى وأسبح نحو عالم آخر مختلف تماما لأتحول إلى نسمة هادئة سابحة فـى ملكـوت فسيح حالم .. وكأنى على موعد دائم مع تلك السبحة بعد أن أدمنتها ، فلم تكن تنقضى ليلتى بدونها ، وكثيرا مـا كنـت أنسى جسدى وقد غلبنى النعاس ، لأكتشف فى الصباح أننى أنام ساجدة .

ولقد أصبحت تلك الحالة مألوفة لى ، إلا أن شيئًا من الرهبة كان يكتنفنى كلما هممت للدخول فيها ، وكثيـرا مـا كنت أفكر فى قوة علوية تسيطر على ، إلا أننى كنت أجهـل تلك القوة ، كما كنت أجهل تفسير حالتى تلك .

وعندما عرضت الأمر على شاكر .. رأيته يصـغى إلى جيدا وأنا أصف له حالتى وكأننى أمام أحد علماء النفس

، وبعد إطراق ووجوم قال شاكر وقد رفع رأسه إلى أعلـى قليلاً وألقى ببصره بعيدا :

- الآن فقط أستطيع أن أقول إنك وضـعت إحـدى قدميك على طريق الفضيلة .. الآن فقط أستطيع أن أقول إنك لست راقصة ، وإنك فى مأمن من براثن الإثم والرذيلة .

قلت بتلهف وقد تمالكتنى الرهبة :

- ماذا فهمت .. علام تدل تلك الحالة ؟

- إنها حالة صحية على أية حال .

- كيف .. ؟

- إن النفس الإنسانية عندما تأخذ مداها فـى حقـل العبث تجد نفسها فى النهاية أمام أحد طريقين : إما أن تضع نهاية لكل ذلك الشقاء الذى يطبق عليها كنتيجة حتمية لحرية العبث ، وذلك بالخروج من دائرة الحياة برمتها ، بأن تنتحر ، وهذا ما تفسر كثرة حالات الانتحار بـين أبنـاء الـدول المرفهة التى ترتع فى حقول العبث ما شاء لها أن ترتع .

وأما الطريق الثانية فهو أن تتبرأ من العبث وتتنكـره على نفسها وتلقى بحمل شقائها بعيدا ، عندما تقـف أولـى

خطواتها فوق عتبات الفضيلة لتبدأ فى التحول من حالة إلـى أخرى .

- تقصد أن حالتى نزعة روحية ؟

- بالضبط إنها حالة تنصل وإنكار لكـل متطلبـات الجسد الذى يشْقِى النفس ، ويثقل كاهلها .. إنها اتجـاه إلـى الشفافية التى تطلبها الروح .

وفجأة رأيت شاكر يقف ثم يبدأ التجول فى الحجـرة دونما أى كلمة وفجأة أخرى استدار نحوى وأشار بأصـبعه وقال بسرعة :

- الآن أعرف الحل .. إن ذاك الوضع المتكرر منك بلا إرادة إنما هو نفس ما يفعله المصلون .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنك ستجدين راحتك فى الصلاة ؛ لمـاذا لا تجربينها ؟

- ولكن .. ولكن ..

- أعرف .. أنك لا تعرفين أركان الصلاة .. ولكن لابأس سأعلمك .

- معنى ذلك أنك تصلى ؟!

- للأسف لا .. ولكنى على أية حال لا أنكرهـا ولا أجهلها .

وأضاف يقول بتلعثم :

- إننى مازلت بعد أنتظر تلك الحالة التى واتتـك .. لكَم يسعدنى أن تهفو روحى إلى خالقها وتتطلع إلى محبتـه ورضاه .

أتذكر جيدا أننى تعلمت يومها كيف أتوضـأ وكيـف أصلى ، لقد علمنى شاكر كل شىء ، علمنى كيف أتبرأ مـن كل شىء وألقيه خلف ظهرى وأنا ارتدى الثياب البيضاء التى تستر كل جسدى لأقف أمام ا .

وعندما بدأت الصلاة تحولت فعلاً إلى نسمة رقيقـة ونسيت وجودى وكيانى وسبحت فى عالم آخر ، لا يمت إلى عالمنا هذا بصلة ، وعندما ركعت أطلت الركوع ، وعنـدما

سجدت أطلت السجود ، ولم أشأ أن أنهى صلاتى وأنا أشعر بالراحة المتناهية وتمنيت لو أظل العمر كله فى صلاة .

وتحول يومها ليلى إلى نهار حتى الفجر ، وترامـت بى الذكريات إلى الوراء عندما كنت أقضى ليلتى مع الأوهام والأحلام والتمنيات ، وثمة ذكريات أخرى عندما كنت أقضى ليلتى مع السكرة المميتة والرقصة الخليعة والمزاج المعربد ، يوم كنت أعيش لكى أرضى نزوات الجسد وشهواته .. يـوم كنت أعيش لكى أجنى ثمار تحللى وخلاعتى ومجونى مزيدا من الأموال ، ومزيدا من تقرحات الضمير .

ولأول مرة يأتى الفجر وأنا أستقبله فى الشرفة سابحة فى ملكوت فسيح يشدنى إليه بأصابع من نور ، وقد أتت إلى مسامعى أصوات المؤذن وهو يرفع آذان الفجر .

وهناك نهضت للصلاة ، ومنذ ذلك الوقت لا أتـذكر أننى أهملت فرضا ، أو قصرت فيه .

* * * * * * * *

لم تعد الحياة ثقيلة .. وكأنما ألقيتُ عن كاهلى حمـلاً ثقيلاً ، أولكأنما قد تحولت إلى فراشة .. نسـيت آلامـى

وأحزانى ورغبات الماضى ، وهفت علـى نفسـى نسـمات الإيمان والشعور بالرضا ، وانقشع ذلك الغمام الـذى كـان يدفعنى إلى معادات النفس والحياة والوجود .

ولم أعد أسأل من أنا .. وتوقف ذلك النداء الغريـب الذى كان يهتف فى أعماقى بلا إذن ، وبلا موعد : " أنـت داعرة .. أنت راقصة .. أنت فاشلة " ولم أعد أخشى اليـوم الجديد ؛ لأنى لم أعد أنتظر مسخًا آخر يشوهنى ؛ فقد شعرت أننى أنا .. أنا فتحية .. امرأة تقف علـى مشـارف عامهـا الخامس والأربعين تتذوق طعما جديدا للحياة .. طعم حيـاة كثيرا ما حلمت بها ، ولكن أحلامى تلك لم تكن لتتحول إلـى واقع ، ربما لأنى كنت كمن يطلب الشهد من الصاب ، فقـد كنت أترنح فى أحضان الرذيلة ، فى نفس الوقت الذى كنـت أحلم فيه بحياة العفـة والطهـارة ، ولكننـى الآن وبعـد أن اعتزلت كل أنواع الموبقات ، وعرفت طريقى إلى الصـلاة أشعر براحة الضمير ، ولم تعد الرغبة فى الزواج تسـيطر على رأسى رغم أنى عشت كثيرا فى الماضى أحلم وأتمنـى لو أصبح زوجة لرجل واحد ، أتذوق طعم الحيـاة الهادئـة الشريفة معه ، لقد كنت أتمنى ذلك لأنى رأيته الطريق الوحيد

لتلك النوعية من الحياة التى أنشدها ، أما الآن فلم يعد الزواج عندى هدفًا ولم تعد لدى أدنى رغبة فيه ، رغم أنى لازالت أتمنى لو أصبح أما .

.. ترى ماذا أفعل وقد أصبحت الأمومة مطلبى الذى تهفو نفسى إليه وتطلبه من ا فى كل صلاة .. لقد حلمت كثيرا فى الماضى بالزواج والحب وبحثت عن الشهرة والمال .. أما الآن فإن أيا من ذلك لم يعد مطلبى .. فقط الأمومة .. ومهما يكن الزواج هو الوسيلة إليها إلا أننى لا أنشده كغاية .

لقد نضبت نزوات الجسد عندى ، وانطفأت الشهوات التى كانت مستعرة ومتأججة .. يقولون إن سن اليأس عند المرأة يبدأ فى الأربعين من عمرها .. أيكون ذلك هو سن اليأس عندى ؟ إن صح ذلك فإن حلمى بالأمومة أقوى من اليأس ، ولابد أن أستمر فى هذا الحلم وأن أستمر فى الدعاء : " رباه .. أتمنى أن أصبح أما " .. فى تلك الأثناء التى كنت أهمس فيها بالدعاء كانت عيناى المتحجرتان مشدودتان نحو سقف الحجرة ، بيد أن البصر الذى زاغ منى كان قد زاغ فى متاهة أخرى ، لا قدرة لى على إدراكها ، حتى أفقت أخيرا

وقد فاضت عيناى بالدموع ، وتصادف ذلك مع مرور شاكر بجوارى ، الذى راح يحدق مليا فـى وجهـى .. لقـد رأى الدموع الغزيرة التى سحتها عيناى .

اقترب منى شاكر وسمعته يقول :

ـ ما أعظم أن يتدخل القدر فى حياة امـرأة مثلـك ليجردها من كل أنواع العبث ، ويحولها إلـى امـرأة أشـبه بالنساك الذين يذرفون الدموع عندما يتطلعون إلى السـماء ، وقد هاموا بالحقيقة حبا .

لم ألتفت إلى شاكر ، فقد كنت منهمكـة فـى مسـح دموعى ، ثم قلت بعد قليل بصوت منكسر غض :

ـ ماذا فهمت ؟ .

ـ فهمت أنك تسحين دموع النـدم .. وتلـك حالـة صحية على أية حال .

ـ لقد جانبك الصواب هذه المرة .

ـ ماذا .. أتبكين إذن يا فتحية ؟

ـ نعم أبكى .

ورأيته يجلس بجوارى على سجادة الصـلاة وهـو ينظر إلى عينى بإشفاق وهمس بحنان :

ـ ماذا بك يا فتحية ؟

ـ إننى ما زلت لا أشعر بالرضا عن حياتى .

قهقه شاكر بشدة وقال :

ـ الرضا عن الحياة .. ؟! .. إنك تطلبين المستحيل يا فتحية .

فقلت وقد أجهشت بالبكاء :

ـ لا أطلب من الحياة سوى مطلب واحـد .. إننـى أتمنى أن أصبح أما كبقية النساء .

ودفنت رأسى بين يدى شاكر الذى كان لا يزال واقفًا على مقربة منى ، وقد أمسك برأسى بين يديه ورفعها قلـيلاً ونظر إلى عينى عميقًا وقال :

ـ هناك أخبار سارة كنت أنوى أن أخبرك بها اليوم .. أبشرى يا فتحية .. ستصبحين أما .

وكأنما قد غبت عن الوعى للحظـات ، ثـم أفقـت وتساءلت :

ـ ماذا قلتُ ؟! .

ـ أقول ستتزوجين قريبا .

ولم أشأ أن أفعل كالأطفال عندما يهللـون للأخبـار السارة ، فكتمت فرحتى .. ربما لأن أسئلة كثيرة كانت تدور فى رأسى ، أو ربما لأننى لم أكن قد اسـتوعبت المفاجـأة . غير أن شاكر أضاف بعد قليل :

ـ لم يعد ينقصك حقا غير أن تصبحى زوجة .

ـ لا .. بل ينقصنى أن أصبح أما .

ـ هذا يتوقف على استعدادك البيولوجى بعد الزواج .. لا تنسى يا فتحية أنك فوق الأربعين .

ونهضت على عجل وجلست على أحد المقاعد وقـد تهللت فرحا .. لقد آمن شاكر أخيرا بضرورة الزواج .. لقد قالها بعظمة لسانه " ستتزوجين قريبا " .. إذن فهو يريـد أن يضفى الشرعية على وجودنا معا فى مسكن واحد ، لقد فكر

فى الارتباط بى أخيرا .. ياللمفاجأة ورأيتنى أقـول علـى عجل :

- أخيرا.. أخيرا قلتها يا شاكر.. أخيرا فكرت فى .
- فرأيته يرد على عجل أيضا :
- لا .. لا تفهمينى خطأ يا فتحية .. إنك ستتزوجين برجل غيرى .

وكأنما قد غصت فى ماء صقيع ، انقبض وجهى بعد انفراج ، وساد صمت للحظات قطعها شاكر بالقول :

- إنه رجل كأى رجل .. ألا تريدين الزواج ؟
- لا ..لا أريد الزواج .. إنك تهيننى يا شاكر .. إنك تستخف بى .
- اسمعى يا فتحية .. أنت الآن امرأة تعرف طريقًا جديدا فى الحياة لا ينقصك فيه سوى الزواج أوهل يعقل أن نبقى معا فى مسكن واحد دون أن يكون بيننا رباط شرعى ؟
- **فهمت الآن .. إنك تريد الخلاص منى بأن تزوجنى لغيرك .**
- **يا فتحية أنا لا أريد الزواج وذلك عهدى مع نفسى .**

- عجبا لك يا شاكر .. أنت الذى لا يؤمن بالزواج ويرفضه أشد الرفض أراك الآن تسعى لإقرار ما ترفضه .

- لا يا فتحية .. أنا ضد الزواج إذا كان وسيلةً للإنجاب ، لكنه فى مثل حالتك ضرورة لا يصح إنكارها ، فأنت امرأة تتوقين شوقًا إلى الأمومة فى سن الخامسة والأربعين ، ويوم تظفرين بطفل فلا شك أنك ستسعديه وستعملين ما فى وسعك من أجل أن يصبح إنسانًا عظيما .. لذلك فإنى أرى أن مسألة زواجك ومسألة إنجاب طفل يملأ عليك حياتك مسألتان تخلوان من التجنى وتبعدان عن سوء الفهم الذى يرتع فيه المتزوجون الذين يتزوجون وليس فى رؤسهم سوى أن يعب كل منهما من عسل الآخر ، دون أن يكون وراء ذلك أدنى ثقافة عن التربية أو رغبة فى الارتقاء بمستوى المجتمع من خلال أبنائه .. هل فهمت الآن يا فتحية كيف أننى اقنعت أخيرا بأن الزواج سيحل مشكلتك ؟ .

- وهل تحل المشكلة بمشكلة أخرى ؟

- كيف .. وهل زواجك مشكلة ؟
- بالطبع لأنه زواج بلا حب .

قهقه شاكر بشدة وقال :

- كفاك سخفًا يا فتحية .. أية حب ذلك الذى تذكرين ؟
- هل هذا كلام أديب ؟!
- الحب .. هه ؟!
- ماذا أتسخر من الحب ؟
- الحب يا صديقتى بمعناه الذى ينشده الشعراء والأدباء والفلاسفة ليس له وجود بين البشر إنه مجرد فكرة مثالية تعيش فى العقول المتطلعة ، إن الحب الذى يرنو إليه هؤلاء إنما هو الطريق الوحيد للإبحار فى مياه الحقيقة .. إنهم يفهمون الحب على أنه تفوق على الذات ، وأنه القدرة على رؤية الجمال من خلال من نحب .. إن الشاعر الفرنسى لامارتين قال : " نحن نعجب بالعالم من خلال من نحب " .

وسكت قليلاً ثم بدأ يكمل :

- أما أن يتزوج المرء فلا يجب أن يربط زواجه بتلك الفكرة ، وإلا فلن يتزوج أحد .
- إذن فماذا يجب على المرء أن ينشد ممن يتزوجه ؟
- للأسف يا فتحية إننا كثيرا ما نؤمن بأن الحب والإخلاص معناهما أن يظل الرجل ينظر فى عيون المرأة ولكن الحقيقة كما قالها " سانت اكسوبرى " ليس الحب أن ينظر اثنان لبعضهما البعض ، ولكن الحب أن ينظر اثنان فى اتجاه واحد .. لذلك فنحن كثيرا ما نحتاج فى بداية زواجنا إلى التفاهم لا الحب ثم يأتى بعد ذلك الاستلطاف والتعود .
- معنى هذا أن الحب غير متوفر على الأرض إطلاقًا .
- صدقًا ما قلت .. وإليك الأمثلة .. فهل تسمى ما كان بينى وبينك يوما من ارتباطات جسدية حبا .. هه .. أية حب ذلك ..؟ لماذا لا تقولين استلطاف ، لماذا لا تقولين نزوات ورغبات ؟؟ .. يا صديقتى نحن أقوام نعتقد فى الحب كما نعتقد فى كثير من الغيبيات .. أية حب ذلك الذى ينمو بين تلك الصراعات

والإشكالات العصرية التى يئن تحت وطأتها البشر ؟.. الحب يا صديقى مطلب روحى ، ويتطلب أول ما يتطلب ممن يؤمن به أن يكون شفافًا نقيا .. أى نقاء وأى شفافية يمكن أن تتوفر فى شخص يئن تحت وطأة الحرمان والتشرزم والضياع ؟!! إن حياتنا بكل ما فيها من معاناة هى وأد للروح لدرجة أن الفرد يشعر بغيابها فيتهم نفسه بالموت رغم أنه يتنفس .

- أعوذ بالله يا أخى .. أنت دائما متشائم هكذا .. حقيقة .. إننى متحيرة فى فهمك أأنت عاقل جدا أم عبقرى جدا .. أم مجنون ؟؟

ضحك شاكر بسخرية وقال :

- على أية حالة بين الجنون العبقرية شعرة واحدة ، وأنا لست من العقلاء فى شىء ، فالعاقل يقضى عمره كله فلا يخرج قيد أنمله عما اصطلح عليه الناس فلا يلومه لائم ولا يؤاخذه قانون .

- هه .. اسبح .. اسبح أيها المجنون .

- العقلاء ليس فيهم أديب ، لأن الأدب نفسه نوع من الانحراف ، فهو قهر للملكات الإنسانية على الخضوع لمؤثر خاص هو تذوق الجمال فى المحسوسات والمعقولات ، والهيام فى الدنيا للبحث عن المثل الأعلى فى الحقائق والأشياء .
- هه .. إنك تعترف بأنك من الباحثين عن المثل والجمال والحب المطلق .
- **وهذا سر شقائى .. فأنا أبحث عن أشياء ليس لها وجود فى واقعنا المادى الذى تحول فيه إنسان العصر إلى مجرد عقل وعقل فقط .. مجرد أله حاسبة تحسب الربح والخسارة على حساب أية قيم أخرى .. المهم أن يتشبع الجسد وتنطفئ الشهوات ولتنعدم القيم والمثل ، ولتضيع الحقائق بين جاهل ومتجاهل**
- اسمع يا شاكر .. إننى أكاد أفقد عقلى من تناقضاتك وكلماتك الغريبة .. فتارة أراك تنكر الزواج وتارة أخرى تقدمه على أنه الحل والخلاص .. إننى دائما أقنع نفسى أننى أفهمك ، ثم أرجع مرة أخرى

لأكتشف أننى لم أتقدم من شخصك قيد أنملة .ـ ـ يا صاحبتى .. الأدباء مجانين لأنهم لا يثبتون على حال ، وإنهم كذلك لأنهم أحياء والحياة تستوجب التحول من رأى إلى رأى ومن إحساس إلى إحساس وأبقاهم أثرا فى الدنيا هم أصحاب الجنون الغليظ الذين يحتقرون الشرائع التقليدية التى يفرضها العرف المزيف والاصطلاح السخيف .. ألم تسمعى عن سقراط ..؟ سقراط الذى لقى حتفه بفضل خروجه عن المألوف من قوانين اليونان ، وابن رشد الذى شرب العلقم بسبب ثورته على آراء الأغبياء من معاصريه ، وقاسم أمين الذى غضب الرأى العام عليه بسبب احتقاره لحجاب النساء .

– إننى وبعد أن سمعت منك هذا الكلام لا أحكم عليك إلا بالجنون !! .

– فى كل أمة أدباء حكِم عليهم بالجنون ؛ لأنهم أفرطوا فى الدعوة إلى الحرية فى عالم السياسة أوالدين أو الاجتماع .

- إنه ليسعدنى أن أكون من غير العقلاء ؛ لأن العقل فى أغلب الأحيان من دلائل البلادة والغباوة والركود ، وقد يكون العقل نوعا من المرض ، لأنه فى جوهره ضرب من الاستسلام والخمول ، وقد صدق الشاعر العراقى "عبد الرزاق عبد الواحد " حين قال :

لا تُلْبِس القلب عقلاً كى تبرئه

قد يصبح العقل حينًا أكبر التهمِ .

- وطالما أنتَ من غير العقلاء فاسمح لى إذن أن أرفض أفكارك .. فكيف لعاقل أن يستمع إلى غير عاقل .
- أنتِ لست من العقلاء !
- معنى ذلك أننى أقرب إلى الأدباء والفلاسفة والشعراء ؟
- نعم .. أنت الآن امرأة أخرى تكاد تكون نصف عاقلة منذ أن عرفت طريقك إلى الصلاة والالتزام .
- ماذا تقول ؟

- يا صديقتى .. إننا لن نستطيع استيعاب عصرنا الذى نعيشه إلا إذا كنا مجرد عقول ..وعندما نتحول إلى عقول فقط فلا بد أننا سنقع فى متاهة لا خروج منها سوى ذهاب العقل نفسه ، لذلك فنحن فى أمس الحاجة إلى بعض الروحانيات حتى نكف عن اللهاث وراء عقولنا .. الروحانية يا صديقتى هى الشفافية ، والتعلق بالخالق والتطلع إلى رضاه .
- ولهذا السبب أنت قائل " إن عصرنا الذى نعيشه لا يعرف الحب " ؟
- لا .. بل الحب هو الذى لا يعرفه .. الحب هو البلبل المغرد الذى لا يغرد فوق أغصان الغابة اليابسة .. إنها غابة عصرنا الذى نعيشه .
- ياه .. أنت متشائم جدا يا شاكر ، إنك تصيبنى بالدوار !
- دوار .. ؟ ألم أقل لك فى السابق : " لن أتزوجك ، ولن أتزوج غيرك " ؟ ، فأى امرأة يمكنها تحمل جنونى وطيشى ؟ !

- أنا .. أنا يا شاكر .. أنا التى تحب جنونك وطيشك وحمقك .

قلت هذا ثم سادت بيننا فترة صمت رهيبة ، تركـت عينى مشدودتين إلى عينيه وأنا أتمنى لو يعدل عن رأيه قليلاً ؛ ليقول لى بكل حب سأتزوجك .. فكم أتمنى أن أعيش معه بقية عمرى بعد أن تعودت على الحياة الجديدة معه .. لكنـه نهض بعد قليل وقطع الصمت قائلاً بحزم :

- يا فتحية .. غدا فى الواحدة سيحضر إلى هنا شخص ما ، وعليك أن تقابليه بلطف .. فقد يكون من نصيبك إذا ما راق لك كزوج .. لا تسألينى من هو ذاك الرجل . . عليك أن تكتشفيه بنفسك وتقررى .

* * * * * * * *

أتى لزيارتنا رجل عجوز ، يبدو عليه الوقار للوهلة الأولى .. أيكون ذلك الرجل هـو محطتـى الأخيـرة ؟ .. تذكرت من نظرته الأولى إلى ذلك الرجل العجوز الذى كان يحمل قلبا كأنه قلب عصفور صغير .. ذلك الرجـل الـذى رمته الأقدار فى طريقى يوم كنـت لا أزال مراهقـة تحلـم

بالحب من أوسع أبوابه .. يوم كنت أحلم بفـارس يمتطـى صهوة جواد أبيض ؛ ليخطفنى إلى الجنة .. وفى غمرة الحلم كان ذلك الرجل يلعق أنوثتى ويداعب بقايـا شـعور العفـة والحياء من نفسى حتى ألقيت الحياء بعيدا ؛ لأجرب حياة ما بعد العذرية معه ، وأودع القبل المقطوعة برعشـة الخـوف والحرمان .. أليست مصادفة غريبة أن تبدأ رحلتى مع الحياة برجل عجوز لتنتهى عند عتبات رجل عجوز آخر !! .. هل كُتِب على أن أُسقَى الحب بصورته الممزوجة ببقايـا العقَـدِ المتأصلة فى نفوس رجال قد خط الشيب رؤوسهم . .؟؟ لا.. لا.. لن يكون ذلك زوجى .. لن أوافق على الـزواج منـه وليكن ما يكون .

راودنى ذلك الإحسـاس الـرافض وسـيطر علـى مشاعرى بشدة وأنا أنظر إلى صلعته التى مسحت كل جوانب رأسه وإن كان ثمة دلالة على الشـيب ، تلـك الشـعيرات البيضاء الناتئة فى ذقنه .

ياالهى !! لكم يشبه ذلك العجوز الذى كان يجلِسـنى على حِجرِه عندما كنت فى عمر الزهور .. وكأن الأيام قـد خبأته لى قرابة ثلاثين عاما لترسله لى مرة أخـرى ليلعـق

بقاياى فى هذه السن .. كيف سأعيش مع هذا الرجل ؟ بـل كيف سيتصرف معى كزوجة ؟ وتخيلتنى وقد ارتديت ثيـاب العروس ، وقد جلست على حافة سرير فى غرفة مقفلة مـع هذا الرجل العجوز الجالس أمامى .. فجأة يـنهض العجـوز بتثاقل لينتزع ملابسى عن جسدى .. وأنا العروس التى يقتلها الحياء .. أنكمش فى ملابسى وأضغط على أطرافها بيـدى ، بينما هو يحاول أن ينتزعها انتزاعا وهو يلهـث مـن شـدة الإعياء .. حتى إذا ما استسلمت أمسيت عارية تمامـا ألقـى بجسده بجوارى وأغمض عينيه ولم يفتحها حتى الصـباح .. تخيلت ذلك المنظر ، وتساءلت بينى وبين نفسى : - لمـاذا يفكر رجل مثله فى الزواج ، وهل لرجل مثله قـدرة علـى الإنجاب ؟.

سامحك ا يا شاكر .. كيف تدفعنى إلى الزواج من هذا الرجل ؟! ودخلت إلى حجرتى وتركتهما جالسـين فـى الصالة .. بعد قليل أتى شاكر إلى وعلـى وجهـه ابتسـامة صفراء فقلت ، بعصبية :

– أرجوك يا شاكر .. لا تمض فى هذه المهزلة :

– تقولين مهزلة .. هل الزواج مهزلة ؟!

- نعم مهزلة عندما يكون من رجل يقارب السبعين
- وأنت فوق الأربعين .. ماذا تنتظرين أن يكون عريسك .. هل تريدين شابا فى العشرين ؟
- لا .. بل على الأقل فى مثل سنى .
- الفارق بينكما خمسة وعشرون عاما تقريبا وهذا فارق ليس بكبير بين الرجل وزوجته .
- يا شاكر افهمنى .. أنا أريد أن أنجب طفلاً .
- وماذا فى ذلك ؟
- هل الرجل فى مثل هذا السن ينجب ؟
- نعم يا فتحية .. الرجل لا يعرف سنًا لليأس .. أنا أعرف رجالاً كثيرين أنجبوا بعد الثمانين
- آسفة يا شاكر .. لن أقبل الزواج بهذا الرجل ، وإذا كان لابد أن أتزوج بهذا الرجل فلأبقَ بلا زواج أفضل .
- يا فتحية .. هذا أنسب زوج لك .. إنه رجل وقور .. جليل .. رجل محنك يستطيع أن يتفهم امرأة فى مثل سنك .
- ولكنه .. ولكنه عجوز .. عجوز..!!

– يا فتحية لا تكونى صغيرة .. أما تزالين بعد مراهقة .. أما تزالين بعد فى العشرين ؟ ! .. أتبحثين عن فارس له قوة الجبل ووسامة الطفل يحملك بين ذراعيه إلى عش الزوجية ؟ .. أفيقى يا فتحية .

– ماذا أفهم من كلامك ..؟ أأفهم أنها دعوة لليأس ، أم أنك تدعونى لأن أدفن نفسى فى ذلك القبر القابع فى الصالة ؟ .

– لا تقولى كذلك يا فتحية .. إنه رجل وقور ستجدين عنده الحكمة والخبرة .. ستجدينه خير من يتفهمك .. إنه رغم هِرمِه ما زال محتفظًا بروح الشباب وتطلعاتهم إلى الحياة .. إنه ليس كما تتخيلين يا فتحية .. لماذا لا تحاولين الجلوس معه لتكتشفيه بنفسك ؟

– أخشى أن يكون وقاره مثل وقار أبيك – رحمه ا .

– لا .. لا .. إنه رجل مختلف .. مختلف جدا .

– أخشى أن تكون عبقريتك قد خانتك هذه المرة .

– لا .. إنه صديقى يا فتحية .. إنه من هواة القراءة .. لقد تعرفت عليه منذ فترة ليست بالقصيرة .. إنه

يأتى دائما إلى مكتبتى ؛ ليقضى معى الساعات الطوال فى تناول الحديث والنقاش والآراء .

ومال نحو أذنى وهمس ببطء :

- إنه رجل من كبار رجالات الدولة .
- كيف ..؟
- إنه وزير سابق على المعاش ، يمتلك عزبة كبيرة ، و" فيلا " وسيارة ، ورصيد كبير فى البنك .. إنه يجمع بين الثروة والخبرة والوقار .

ونظر إلى نظرة عميقة وابتسم بخبث وحرك حاجبيه وقال :

- ألم أقل لك إنه رجل مختلف ؟

ورأيته يجذبنى من يدى نحو الخارج ويقول :

- اخرجى .. اجلسى معه .. حدثيه .. اكتشفيه بنفسك .

وكأننى على موعد مع المجهول ، أو لكأننى على حافة هاوية سحيقة .. اعترانى شىء من التردد والخوف ، وأنا أتقدم نحو الصالة ، وكأى أنثى جلستُ على المقعد أمامه ، ونكست رأسى نحو الأرض قليلاً ، وقد اعترانى الخجل

والحياء والرهبة ، ورحت أنظر إليه بطرف عينى نظـرات متقطعة ، وبعد فترة صمت طويلة تقابلت نظراتنا معا .. إنه ما زال على ابتسامته المرتسمة بسذاجة على شـفتيه ، وقـد كشفت عن أسنان مكسرة تفصل بينها مساحات فارغة ، ثم ما لبث أن تراجع عن ابتسامته وقال بصوت هادئ :

ـ يحكى أن رجلاً كان على موعد مع سقراط الحكيم .. ولما كان الرجل ذاهبا لمقابلة حكيم عظيم كسقراط انتقـى أفضل ما لديه من ثياب وأجملها ، واعتنـى بمظهـره أيمـا اعتناء ، حتى لأنه عندما دخل على سقراط لاحظ أنه قد بالغ فى هندمته ، وعندما جلس بجواره سادت فترة صمت طويلة لم يحظ فيها الرجل بنظرة واحدة من سقراط ، وأخيرا نظـر سقراط إلى الرجل قائلاً : " تكلم لأراك " .. غير أن الرجـل تعجب وسأل سقراط : ألم ترنى بعد ؟ . قال سقراط : إنمـا رأيت ثيابا تَصر لحما .

استمعت إلى حكايته بشـغف وانتبـاه ، وابتسـمت ابتسامة خفيفة وقلت :

– إذن تكلم لأراك .

انطلقت منه ضحكة فجائية وقال مازحا :

– إذن فأنتِ سقراط ... لا بأس سأتكلم .

وبدأت نظراته تعرف طريقها إلى عينى وهو يعرفنى بنفسه :

– أنا رجل كأى رجل .. ماتت زوجتى فى ريعان شبابها .. حزنت عليها طويلاً .. وفى غمرة الحزن أغمضت عينى عن كل النساء ، وعشت على ذكرى امرأة تحت الأرض .. امرأة ليس لها وجود حقيقى .. إن الحب الذى عشناه معا جعلنى أنكر غيابها وأتجاهله ، ولكن ذلك الثوب الحزين الذى لبسته مبكرا كان ضد الحياة نفسها ؛ لذلك أكله الزمن . ورغم ذلك عشت وحيدا حتى وقتنا هذا .

قاطعته متسائلة :

– معنى ذلك أنك عشت بلا نساء منذ أن ماتت زوجتك ؟

نظر إلى باستغراب وقال :

ـ يا فتحية اعفينى من هذا السؤال .

- ولماذا ..؟ هل كان السؤال محرجا ؟

ورأيته وكأنما قد اعتراه شىء مـن الخجـل ، راح يمسح حبات العرق التى بدأت تتساقط على جبهتـه ، وقـال بتلعثم :

- فتحية .. كل إنسان له سقطاته .. وأنت تعلمين جيدا أن الإنسان منا ليس معصوما .
- على أية حالة كان بإمكانك أن تدعى غير ذلك ، ولأنك لم تفعل فأنت صادق إذن ، لذلك أنا مندهشة لصدقك .
- ولم الدهشة ؟
- لأن المتقدم للزواج عادة ما يكذب من أجل إظهار نفسه فى صورة البطل العفيف النزيه .

ضحك بشدة وقال :

- يا فتحية .. تلك عادة الشباب .. ولكنى رجل عجوز .

قال هذا وحدق فى عينى مليا ، ثم سأل بصوت هادئ واثق :

- والآن .. وبعد أن عرفتى عنى الكثير .. هل لى أن أسألك سؤالاً واحدا : من أنت ؟
- دعك من الأسئلة التقليدية هذه .
- أو ليس من حقى أن أعرف من أى النساء سأتزوج ؟
- لتكن امرأة كأى امرأة .
- صدقت .. أنا رجل كأى رجل ، وأنت امرأة كأية امرأة .!
- أنت تريد أن تعرف عنى كل شىء ، وأنا كذلك أريد أن أعرف عنك كل شىء ، وماذا بعد أن نعرف ؟

وسألته بإلحاح :

- هل فى نفسك رغبة للرفض ؟

فأومأ برأسه بالنفى ، فقلت له :

- وأنا كذلك ..

ورأيته ينتقل من مقعده ليجلس بجـوارى ، وأمسـك بيدى وضغط عليهما بشدة ، وهو ينظر إلى عينى طـويلاً ، وكأنه يقرأ فيهما رسالة من عالم الغيب ، ثم أنشد قائلاً :

– سنتزوج قريبا .. ولكن ليس قبل أن أعطيكِ فرصة لمراجعة نفسك .

* * * * * * *

إنها حالة جديدة أعيشها .. وكأنما كل مشاهد الكـون قد أُخْتُصِرت أمام ناظرى إلى مشهد واحد له ألـوان براقـة عسلية ، لقد تنسمت أخيرا أنسام الراحة .. أخيرا سأتزوج .. سأعيش لرجل واحد كما حلمت .. أخيرا أقول عـن قناعـة ورضا " الحمد " .. لقد جاء ذلك الرجل

ليكن أى رجل .. يعيش لى وأعيش له .. ربما تمـن علينا الأقدار بطفل نعيش له نحن الاثنـين لتكتمـل صـورة الأسرة التى طالما حلمت بها .

تلك على وجه التقريب الحالة اللازجة التـى تسـبق الزواج عندما تنام الأنثى وتصحو وكأنها بلا رأس ، و يخفق قلبها ويغيب عقلها عن الوعى وهى تتـذكر ليلـة الزفـاف كفاتحة عمر جديد .. لَكَم كنت أتمنى أن يحدث ذلـك قبـل ثلاثين سنه مضت ، عندما كنت لا أزال مراهقة .. تحلم بأن يراها أى شاب من خلف زجاج النافذة ؛ ليرسل إليها نظـرة

إعجاب أو كلمة غزل رقيقة .. أو ليس ذلك منتهى القسـوة من الأيام .. أن تؤجل تحقيق أمنيتى ثلاثين عاما ؟! وكأنمـا قد قبضت على قلبى وجمدت مشاعرى وأحاسيسى ؛ لأعيش فقط كجسد يتمرغ فى اللذائذ وإشباع الغرائز ويتلـوى فـوق رمال الشهوة الساخنة ؟!.

إنها الأيام التى لا تعطى بقدر ما تأخذ ، فإن أعطت خطوة أكلت ألف خطوة فى المقابـل .. أتكـون حقًـا هـى الأيام..؟!

لا .. ما دخل الأيام فيما أنا عليه .. صحيح أنا أعيش فى الزمن العجوز .. ذلك الزمن الذى تتراكم فيـه خبـرات البشرية منذ آدم وحتى وقتنا هذا ، ولكننى لا أنكر أن الإنسان أيضا له ذلك العقل العجوز الذى يستطيع استيعاب كل تلـك الخبرات والنتائج ؛ لهذا فنحن نعيش بعقولنا فقط ولا مجـال هنا لأن نتخلى عنها للحظة واحدة ، وربما أن هذا سر شقائنا .. نعيش لكى نفكر ، ونفكر لكى نعيش ، ونرهق أنفسنا فـى التفكير ، حتى نتصدع ثم نموت ، وقبل أن نموت ، ونحـن فى سكرة الموت نلعن الأيام !.

إن فكرى يكاد يقتلنى وأنا أطالع حياتى وأقارن بينها وبين حياتى فى الماضى .. إننى على أية حال قانعة بما أنـا فيه ، أو هكذا أصبحت قانعة .. ربمـا ليـأسٍ مـن الحيـاة استسلمت .. ربما لعزوفى عن الحياة قنعت بفنائها ..

ومرة أخرى أتناسى من أنـا وأنكـر علـى نفسـى استرسالها فى تفكير جاحد ، وأعود لأتذكر ليلة الزفاف .

إننى لم أعد أتصور أن امرأة فى مثل سنى سترتدى ثوب الزفاف لأول مرة وقد ترصـعت بـالجواهر والـدر ، ولونت صفحة وجهها بألوان الإغراء والإثارة لتتـأبط ذراع رجل عجوز ليدخل بها عش الزوجية لأول مرة .

- ترى ماذا سيقول فى ليلة الزفاف ، كيف سـتكون الكلمات والنظرات .. كيف سأستسلم له فى رقـه وانصـياع بعد أن أتصنع قليلاً من الحياء والخوف والحذر.

وتوقفت عن التفكير فجأة .. وخيم على وجهى ستار كثيف من الحيرة :

- ماذا سأقول له عندما يكتشف أننى لست عذراء ؟!

فأنا لم يسبق لى أن تزوجت أو طُلقْت .. إذن يجـب أن أكون عذراء ، وأتساءل بهدوء :

- أية عذرية تلك التى تُطْلَب من امرأة فوق الأربعين ؟ إنه لن يتوقف عند واقع تافه كهذا .

وسؤال آخر بدأ يلح :

- هل عرف شيئًا عن ماضى أيامى ؟؟

وأعود لأجد الإجابة

- لا .. لا .. إن شاكر لن يحكى له شيا عنى .. إنه لن يضع أمامى الصعوبات وهو لا هم له سـوى أن يرانـى زوجة ..لا .. لا .. إنه لن يخبره بشىء .

وتخرج منى شهقة طويلـة وأخـبط بيـدى علـى صدرى :

- معقول .. ؟! .. لا .. لا .. مستحيل .. مسـتحيل أن يكون قد عرف أنى راقصة لقد ودعت ذلك الماضى منـذ زمن .. معقول ؟.. هل سيرسل لى الزمن مرة أخرى مـن يذكرنى بأنى راقصة وعربيدة .. لا .. لا.. إنه لا يعرف عن ماضى شيئًا .ز إذن ماذا قال له شاكر عنى؟

وأمسك رأسى من كثرة الاسترسال فـى التفكيـر ، وأعود من جديد لألقى كل شىء خلف ظهـرى ، وأستسـلم لحالتى الجديدة ، وكأنما كل مشاهد الكون قد أُخْتُصِرت أمام ناظرى إلى مشاهد عسلية ذات ألوان براقة زاهية ؛ لأتخيـل أننى مازلت بعد صبية صغيرة سيخطفها الفارس النبيل على صهوة جواد أبيض إلى جنة النساء .

ومرة أخرى أتخيل نفسى وأنا واقفة فى شرفة المنزل أنتظر عودته لأفتح له الباب على مصراعيه وألقـى بنفسـى بين ذراعيه ليأخذنى فى حضنه ويلقى على وجنتـى قـبلات الشوق الساخنة .

يا إلهى .. !! أخيرا سأعيش مع زوجى .. رجلى .. أخيرا سيكون لى بيت وزوج وأطفال لاشك أننـى سـأكون سعيدة .. ولِم لا وأنا متزوجة من رجل وقور .. محنـك .. سأجد عنده الحكمة والخبرة والتفاهم .. رجل بعيد عن الطيش والتهور .. سأجد فى ظلاله الحب والتفاهم والاستقرار .

هكذا كانت دوامة التفكير .. أتوقف تـارة ، وتـارة أخرى أتوهم ، وتارة أتخيل وتارة أتساءل .. وأعود أخيـرا لأقف عند إجابات مقنعة صنعتها لنفسى وقنعت بها .

لقد ظللت فى تلك الحالة قرابة الشهر حتى أرهقنـى التفكير وسئمت الوهم والخيال ، وقررت أن أقلب الصفحة ؛ فأفضيت إلى شاكر بموافقتى على الزواج .

ابتسم شاكر عندما أخبرته بموافقتى علـى الـزواج وقال بفرحة عارمة :

- أخيرا .. أخيرا يا فتحية ستتزوجين .. سيأتى ذلك الرجل الذى يضع فى معصميك قيدا من الشرائع والشـهود لتصبحين زوجة .. وأية زوجة ؟! (تساءل شاكر وهو ينظر إلى نظرة خبيثة) وأضاف :

- وأية زوجة .. زوجة لها عمـق البحـر وبـراءة طفلة .

وكأنما قد هفت على نفسه عادته القديمة فى الاستهانة بى والسخرية منى .. فرأيته يقول بخبث شديد :

- أخيرا سيأتى المأذون لـيعلن زواجـك .. ولكـن للأسف .. سيكون أول المخدوعين .. ترى ماذا سيكتب فـى وثيقة الزواج : لقد تم زواج فتحية البنـت البكـر الراشـد ....الخ .

وأطلق ضحكة عالية ، وعاد يتساءل :

- أحقًا يا فتحية .. أحقًا أنت بكر ؟!

وكأنما قد رمانى بحجر .. وجدت نفسى أهـب مـن مقعدى فى عصبية وأصرخ فى وجهه :

- لماذا .. لماذا ذلك التجريح .. وتلك الاسـتهانة .. ارحمنى يا شاكر .. ارحمنى ، واغرورقت عيناى بالـدموع بعد أن انطفأت فجأة كل مظاهر البهجة من على وجهـى .. ولكنه عاد بعد قليل إلى جديته وهدوئه المعتاد :

- لا تكونى أكثر حساسية مع كلماتى يـا فتحيـة .. إننى أتحدث معك كما أتحدث مع نفسى .. فكلانـا مفضـوح أمام الآخر .. كلانا يعرف عن الآخر أكثر مما يعرف عـن نفسه .

وتركنى أمسح بقايا دموعى واتجه نحو الهاتف ، ثـم ما لبث أن عاد بعد قليل وقال وهو يرفع يديه عاليـا بتهلـل واستبشار :

ـ لقد نقلت إليه موافقتك على الزواج .. إنـه كـان ينتظر على أحر من الجمر ، والأكثر من ذلك أنه سيأتى غدا ليحدد موعد الزفاف .

ومال على أذنى وقال بهدوء وهو يفرك يديه :

- لنذهب غدا لنشترى جهاز العروس .. ما رأيك .. ليكن غدا .

ولم أستطع أن أجبه بسرعة كما يريد ؛ فقد كنت فى شرود واضح .. غير أن حالة من الرهبة كانت تشـملنى .. فأنا مقدمة على حياة جديدة .. فيها الكثير مـن المجهـول ، بينما شاكر كان ما يزال يتحدث على مقربة من أذنى بصوت كأنه الهمس ويلح فى طلب الإجابة :

- ماذا تقترحين بخصوص العرس .. فى أى فنـدق تريدين أن تقيم حفلة زفافكما ؟

- إننى أقترح أن يتم كل شىء فى هدوء .

* * * * * * *

سأتزوج اليوم .. لقد منتْ على الأقدار برجل أعيش معه على شرعية .. لم يسألنى عن ماضى وقِبلَ الزواج بى ،

ومن دون أن يسألنى : من أنت .. ولحسن الحظ لم يتوقـف كثيرا عن هذا السؤال لأن الإجابة عنه تبدو شائكة وخطيـرة إذا ما وزنت بموازين الزواج .

فلقد عشت حياتى عاشقة ومحبوبة منذ سن الرابعـة عشر حتى اليوم .. لقد عصفت بى رياح المال والشهرة ، ثم رياح الشهوة والسكرة ، وانتقلت من مخدع إلى مخدع ، ومن مأوى إلى مأوى ، وكأن الدنيا أبت إلا أن تستقبلنى كـامرأة شريفة عفيفة محصنة ضد الرذيلة والسقطات.

هل يمكن أن توجد بين غانيات باريس أو لنـدن أو نيويورك من محترفات العبث الجسدى من يمكن أن تفـاخر بشىء مثل هذا ؟ ولكنى على أية حالة أشعر بالرضـا الآن ؛ لأنى عرفت طريقًا هادئًا ملتزما من الحياة .. طريقًا يخلو من العبث والرذيلة ، وقد تحصنت ضـد شـرورى ونزواتـى وعرفت ا .

أما وقد منت على الأقدار برجلى الوقور الهـادئ .. رجل فيه الأصالة والمبدأ ، فأنا مطمئنة تماما ، لأنى سأقضى بقية عمرى فى دعة وسكينة ووقار ، ولابد أنى مستمرة فى توبتى إلى ا حتى النهاية .

وكما أردت تم كل شىء فى هدوء .. ولـم أشـأ أن نحتفل بزواجنا بالرقص واحتساء الخمور ، وكان ما أردت .

اليوم هو يوم زفافى .. ثمة قليل من المدعوين مـن أصدقاء شاكر ومن أصدقاء زوجى ومعارفه ، وأنا العروس .. أجلس على أحد المقاعد وبجوارى عريسـى الوقـور .. تناول الجميع الحلوى والمشروبات وبعض النسـاء أطلقـن الزغاريد ، وتأبطت ذراع عريسى وهو يتجه بى إلى خارج المنزل ، حيث السيارات المزينة بالورود فى انتظارنا .

وانطلق الموكب إلى " فـيلا " زوجـى العزيـز .. وهناك وعلى بابها توقـف الجميـع وودعونـا بالزغاريـد وتركونى وحيدة مع رجلى الوقور أدب أولى خطواتى نحـو عش الزوجية ، ولا أزال أتأبط ذراعه .. وهناك داخل الفيلا كانت الخادمة تضئ كل المصابيح فى انتظار مجيئنا .

قال زوجى وهو يتمشى ببطء فى الممر الطويل وسط الخضرة :

ـ دعينى أعرفك على منزلك الجديد .. هذه حديقـة المنزل ، لقد عنيت بزراعتها أيما عنايـة ، سـتجدين هنـا

الزهور بأنواعها ، ستجدين أقفاص العصـافير ، وأحـواض السمك ، ستجدين أشجار الفاكهة والموالح .. ستجدين الهدوء والنسيم العليل .

وعندما فتحت الخادمة الباب الداخلى للفيلا أطلقـت زغرودة مدوية ، وقبلت يدى برفـق ، وانطلقـت تتهـادى كالفراشة ، بينما زوجى راح يكمل حديثه مرة أخرى :

ـ هذه غرفة الطعام .. إنها فسيحة .. وتلك غرفـة الضيوف .

وبينما كان يتحدث كنت لا أزال متأبطـة ذراعـه ، وقدماى كانتا تغوصان فى السجاد الوثير الذى يغطـى كـل أرضية الفيلا وقد ألجمت الفرحة شفتى وأنـا أنظـر إلـى جوانب الفيلا الضخمة وأثاثها الفاخر بعيون مبهورة ، غيـر أن أذنى كانتا تلتقطان كلمات زوجى وهو لا يـزال يتحـدث بهدوء :

- هذه غرفة النوم .. لقد حرصت علـى أن تكـون ألوانها زمبقية زاهية ..أتمنى أن تعجبك .

وعند غرفة النوم توقف للحظة وقال :

- هذا هو الطابق الأول .. غدا سترين الطابق الثانى
.

قال هذا وفتح باب الغرفة ودلف إلى داخلهـا وهـو يشدنى نحو الداخل ؛ فخطوت معه خطـوات بطيئـة حتـى توارينا داخلها وأقفل الباب .

وما أن دخلنا الحجرة حتى رأيته يرتمى فوق السرير بسرعة ، وكان واضحا عليه الإعياء الشديد وأغمض عينيـه وأخرج تنهدات خفيتة متقطعة ، وبينما كان يصدر تنهداتـه هذه كانت عيناى تحدقان فى الصورة العارية المعلقة فـوق جدران الحجرة ، شعرت بقدمى وقد تعبتا مـن الوقـوف ، فجلست على حافة السرير ؛ لألقى نظرات متتالية إليه مـرة وإلى الصورة المعلقة فوق جدار الحجـرة مـرة أخـرى ، وهمست فى نفسى :

- أى وقار ذلك الـذى حـدثنى عنـه شـاكر ؟ أى وقار.؟!

وبدأت الشكوك تعرف طريقها إلى نفسـى .. فجـأة رأيته يفتح عينيه ثانية ويضغط علـى زر صـغير بجـوار

السرير .. بعد لحظة حضرت الخادمة وهى تحمل بين يديها إناء به ماء ساخن مملح ، ووضعته بجوار قدميه وانصرفت ، وأشار إلى أن أجلس على المقعد المجاور للسرير ، واعتدل من رقدته بصعوبة وهو يصدر تأوهات غامضة ، ثم وضـع قدميه فى الإناء ، وقد ظهرت على وجهه علامـات التلـذذ بسخونة الماء .. بعد قليل حضرت الخادمة ومعها المنشـفة لتجفيف قدمى مخدومها وحملت الإناء وانصرفت .

بعد أن انصرفت الخادمة رأيته يتقدم نحـوى بـبطء وأنا لا أزال جالسة على المقعد المجاور للسرير ، ثم مد يده بتثاقل نحو صدرى وضغط ضغطة أحسست أنها تـؤلمنى ، ثم ما لبث أن عاد إلى السرير ونظر إلى نظرة شَبِقَةً وقـال وهو يبتسم :

ـ ماذا رضعت فى طفولتك ؟ !

لم أجبه وقد بدأت علامات الاستغراب والدهشة تدب إلى نفسى ، غير أنى تصنعت غير ذلك ، وابتسمت ابتسـامة عابرة ، فبادرنى بقوله :

ـ لا بد أنك رضعت إسفنجا .. لا .. لا تقولى لبن " بودرة " .. إنك طرية جدا وتمتلئين صحة وعافية.

ـ تعجبت كثيرا من كلماته وهو يلهث .. لماذا هـو يلهث ؟ .. لست أدرى .. لا بد أنه كان علـى موعـد مـع الفروسية صباح اليوم !!.

عاود مرة أخرى الغط على الزر الصغير؛ فعـادت الخادمة مسرعة ومعها علبة صغيرة ، وراحت تخلع ثيـاب مخدومها عن جسده ، حتى أصبح عاريا إلا من السـروال ، ونام على بطنه ، وبدأت الخادمة تفرك البلسم علـى ظهـره وتدلك جسده بلطف .

وبينما كانت الخادمة تفـرك جسـده رحـت أتـابع النظرات إلى جسده المترهل ، الذى ظهرت عليـه تجاعيـد وأخاديد وهالات سمراء وزرقاء كانت منتشرة فوق جلـده ، ونظرات أخرى إلى الصورة المعلقة فوق سريره ، وهمست فى نفسى :

ـ إن حاجة هذا الرجل إلى التمـريض أكثـر مـن حاجته إلى الزواج !!

أخيرا خرجت الخادمة وتركته منبطحا على بطنـه فوق السرير .. بعد لحظة قصيرة رأيته يتحرك مرة أخـرى نحو درج صغير بجوار السرير، وأخرج منه بعض الحبوب .. يبدو أنها حبوبا منشطة .. تناول واحدة منها وهز جسـده يمنة ويسرة ، وتقدم نحوى .. كانت نظراته تنم عن رغبـة دفينة فى أعماقه وقال :

ـ تقدمى يا عروسى الجميلة .

قال هذا وطوقنى بيديه المرتعشتين للحظة ، ثم بـدأ ينتزع ملابسى عن جسدى قطعة قطعة ، وعند كل قطعـة كان يشدها كنت أحاول أن أمنع ذلك ، ليس حياء ولا خوفًا ، ولكن لأن شعورا بالاشمئزاز والنفور بدأ ينتابنى ، وتمنيـت لو يغمض ذلك العجوز عينيه عنى هذه الليلـة ؛ لننـام فـى هدوء ، لكن نظراته الثابتة وارتعاشة يديه جعلـونى أرحـم أحاسيسه ؛ فاستسلمت لرغباته ، وتركته يعبث كما يحلو لـه .. وكان الصمت بيننا هو أبلغ الكلمات .. لم يحاول أحدنا أن يكلم الآخر حتى أصبحت عارية تماما واتجه بى إلى السرير .

أية امرأة فى العالم أنا ؟ .. أأكون تلك المرأة التى أُعتُصِر جسدها آلاف المرات بين أحضـان أقـوى وأوسـم وأعتى الرجال ؟! .. أية امرأة فى العالم أنا .. أأكـون تلـك المرأة التى ترقد أخيرا تحت رجل تكاد الحياة تودع بقاياه ؟ .

لو كنت أنا تلك المرأة لكان الأمر صـعبا وصـعبا وصعبا ، ولكننى لست أنا .. أنا الآن امرأة أخرى .. امـرأة تخلصتْ من نفسها ألف مرة ومرة ، وعند كل طريق جديـد كانت تتخلص من نفسها وتتحلل من ذاتها لتتشكل من جديـد .. أنا الآن امرأة أخرى تمشى فى درب جديد .. أخيـرا .. أخيرا انتهت كل الدروب وانحصرت كل الخطـى ، ولأبـدأ حياتى من جديد .. حياة وِلدتُ فيها فى الأربعـين .. حيـاة تخلو من الدروب والمسالك والمتاهات .. حيـاة لا تعـرف سوى طريق واحد .. طريق العبادة والطهارة والشرائع ، يوم بدأت الصلاة والتزمت ، ويوم جلست أمام المأذون لأول مرة لأتزوج رجلاً فى الحلال .. أليست تلك حياتى التـى كـان يجب أن أسلكها منذ ولادتى ؟

تساؤلات كثيرة كانت تتصارع فى ذهنى وأنـا أنـام عارية على ظهرى وعيناى مشدودتان نحو سقف الحجـرة ، ورائحة رجل عجوز تعرف طريقها إلى أنفى .

وشهقت شهقة سـريعة وأنـا أتـألم مـن أصـابعه المغروسة فى جسدى ، غير أن شعورا بالقلق بدأ يراودنـى عندما تذكرت ذلك السؤال المحير :

ـ أين عذريتى .. أين بكارتى ؟

ولكنى سرعان ما شعرت بالارتياح وتنفست الصعداء عندما بدأت قبضة أصابعه تنفك عن جسدى ، حتـى رأيتـه أخيرا يرقد فى ذهول وارتخاء على حافة السرير ، وهنالـك عرفت أن زوجى رجل قد ودعه نبض الرجولة ، ولم يعـد قادرا على معاشرة النساء ، غير أن شعورا سوداويا بدأ يدب فى نفسى .. فأنا لن أكون أما ، ولن أنجب طفلاً .. لسـت أدرى أى حظ ذلك الذى يلازمنى .. وأية أقدار تلـك التـى تترصد خطاى ؟! .. رأيته ينتصب من رقدته ببطء ، ويمـد يده بتثاقل إلى جهاز " الكاسيت " لتنبعث موسـيقى صـاخبة راقصة ، وقال وهو يشدنى من فوق السرير :

ـ لماذا لا ترقصين ؟

قلت بسرعة وقد تملكتنى الدهشة :

ـ ولماذا الرقص بالذات ؟

قال وهو يتأمل جسدى العارى :

ـ لأنى أحب الرقص .

ـ ولكنى لا أعرف الرقص .

انطلقت منه ضحكة عالية ، وقال بصوت به كثيـر من نبرات التأكيد :

ـ لا .. بل أنت تجيدين الرقص .

وتساءل باستغراب :

ـ لماذا تنكرين ذاك على ؟

قلت وقد بدأ رأسى يتطرق إلى بعيد .. بالتحديد إلى ما قبل الزواج بليالٍ :

ـ هل قال لك شاكر شيئًا كهذا ؟

قال مبتسما :

لست فى حاجة إلى شاكر فى هـذا الشـأن .. أنـا أعرف أنك راقصة .

وتابع تأكيده بالتساؤل :- أليس كذلك يا هيام ؟

- حتى هذا الاسم تعرفه ؟!

- كيف لا يعرف وزير مثلى راقصات بلده ؟

ورأيت نفسى أخرج عن هدوئى فصحت فيه بـأعلى صوتى :

- أنا لست راقصة .

وشرعت فى ارتداء ملابسى .. وجلست على حافـة السرير ووضعت يدى على جبهتى وقد بدأت أشعر بالدوار يلفنى ، وشعور غريب كان يهز كل كيانى وهمسات كثيـرة فى نفسى .. إنها مؤامرة ...مؤامرة من الأيام .. أن ترسـل لى مرة أخرى من يذكرنى بأنى راقصة .

وتمنيت لو كان شاكر أمامى لأطبق بيدى حول عنقه لأخنق أنفاسه فى صدره .. وشعرت بأن كل الناس يتآمرون ضدى ، حتى وأنا فى ثوب جديد لا يعرف الرقص وليـالى المجون .. لقد خدعنى شاكر بكل معنى الخديعة مـرتين ..

خدعنى عندما تركنى أتزوج هذا الرجل وأنا على يقين أنـه لا يعرف عنى شيئًا سوى ما رآه منى من ثياب محتشـمة ، وسجادة للصلاة ، وخدعنى مرة أخرى عندما قال لى " إنـه رجل جليل .. ستجدين فيه الحكمة والخبرة والوقار".

.. إنه لا يختلف كثيرا عن ذلك الرجل العجوز الذى وضعنى يوما ما على أول طريق الرذيلة .. ماذا أنتظر إذن من الحياة ؟ ماذا أنتظر بعد أن رأيت حياتى محصورة بـين رجلين عابثين كان يفترض فيهما أن يكونـا سـراجا مـن الفضيلة والوقار لحياتى ؟!

رأيته يقترب منى وأنا فى غمرة تفكيرى ويربت على ظهرى قائلاً :

- لماذا لا ترقصين ؟

قلت فى غيظ شديد :

- قلتُ لك .. لا أحب الرقص .. وأنا هنـا زوجـة وليست راقصة .. أتعرف معنى كلمة زوجة؟

- ولكنى زوجك وآمرك أن ترقصى .

- وأنا أرفض تنفيذ الأمر .

- إذن أنت زوجة ناشز .

قالها ضاحكًا ساخرا وأردف :

- يا زوجتى العزيزة .. لماذا تنكرين أنك راقصة ، وترفضين الرقص ، وأنا أريدك هكذا ؟

- تريدنى هكذا ؟

- نعم يا راقصتى .. أنـا رجـل أحـب الـرقص والراقصات .

قال هذا وضغط على الزر الصغير الـذى بجـوار السرير .. بعد قليل أتت الخادمة ومعهـا زجاجـة الخمـر والكؤوس وبدأ يشرب وهو يكمل :

- أنا رجل سعيد بزواجى .. من الآن فصاعدا لـن أذهب إلى الكازينوهات والملاهى الليلية .. وما حاجتى إليها وقد تزوجت راقصة ستتحفنى كل ليلة برقصاتها المثيرة ؟!

قلت فى عصبية واضحة :

- ولكنك رجل عجوز !!

ضحك بهستريا وقال على الفور :

- أنت راقصة .

وأضاف بسخرية

- أنا وأنت " الراقصة والعجوز "

وضحك ملء شدقية

– إننى لست راقصة يازوجى العزيز .. إن مأساتى هى الراقصة !! مأساتى التى تتأرجح كبندول الساعة .. مأساتى التى تهتز فى نشوة بين الصعود والهبوط .. مأساتى الملتوية والمتعرجة .. لا .. لا .. ليست مأساتى وحدى .. بل مأساتنا جميعا .. مأساتنا أن يكون فى حياتنا أشخاص مثلى ومثلك ومثل شاكر ومثل سهير وأنور شلبى ، وقائمة طويلة من الأسماء المعربدة الماجنة الساقطة التافهة .. مأساتنا أننا تحولنا جميعا إلى ممثلين بارعين يمثل كل منا شخصية ملائكية نزيهة لامعة لكى يعيش بها بين الناس بينما القابع فى صميمة والمرتسم بدقة فى طباعه شيطان أحمق يختال ضاحكًا وفى يده شعلة

حمراء يلوح بها عند أقرب نقطة يتوارى فيها عن مدركيه ومنتقديه .

نظرت إليه وهو ينصت باهتمام وعيناه تبدوان فـى دهشة .. وأضفت وأنا أزفر زفرات الألم:

– أ فهمت الآن يا زوجى من تكون الراقصة ؟.. إنها مأساتى الراقصة ولست أنا .. وأنت يا زوجى .. لست وحدك العجوز .. فالزمن الذى نعيشه أيضا زمن عجوز .. زمن أتى إلينا شائخًا وهو يحمل فى ذراه كل صراعات البشر وشرورهم ومآسيهم ومخلفات عقولهم ، منذ نشأتهم ليرسبها فوق عقولنا .. وعلينا أن ننفض كل ذلك الغبار، ونجلو الصدأ ؛ لتبدو لنا الحياة كما لو كانت طفلة ما زالت فى المهد لا تعرف المكاره والشرور والمآسى .

كنت أتحدث إليه وأنا أتمشى بخطوات بطيئـة فـى الغرفة بينما هو كان يبدو ثملاً .. اقتربـت منـه وأزحـت الزجاجة عنه .. وصحت فيه بقوة ويدى تكاد تخـبط رأسـه الأصلع .

- أ فهمت الآن .. كم كنت صدئًا كالزمن العجوز الذى نعيشه .. أنت رجل يفترض فيه الحكمة الاتزان .. يفترض فيه الفضيلة والوقار .. ماذا أقول .. ماذا أقول ، وأنت الميزان .. ميزان لمن هم دونك عمرا .. ماذا أقول وقد اختل فى حياتى الميزان ؟!

وتساءلت وأنا أهز رأسه المنتكسة بشدة :

- لماذا .. لماذا العبث والطيش ؟

قال وهو يحاول أن يتناول الزجاجـة ثانيـة وعلـى وجهه علامات السكر :

- لماذا تصرين على رفضك .. لماذا لا ترقصين لزوجك .. ألست أنا زوجك ؟

قلت وأنا أهزه بعصبية شديدة ليفيق من سكرته :

أنا لست راقصة .. لست راقصة .

إذن من أنت

قالها بتلعثم واضح :

أنا امرأة تريد الطلاق .

ماذا ؟

وانتصب من جلسته وهو يكـاد يسـقط ، وضـحك بسخرية وتساءل :

الطلاق ؟! .. وهل تطلب العروس الطلاق فى ليلـة زفافها ؟.

لأنك لا تريدنى إلا راقصة ، وأنا لا أريدك إلا زوجا محترما ، وكلا الأمرين صعب المنال .

آه .. فهمت .

افهمنى .. افهمنى لآخر مرة .. أنا امـرأة عرفـت طريق الالتزام والشرف والفضيلة .. أنا امرأة تريد أن تعيش بعيدا عن الخمور والرقص والسهر .. أنـا امـرأة تـرفض العبث ولنتعود إليه .

جلس مرة أخرى على مقعدة وقال ببساطة واضحة :

إذن لقد خدعنى شاكر :

كيف ؟!

عندما قال لى أنك سترقصين لى كـل ليلـة حتـى الصباح .

إذن فقد خدعك .. لأنى لست راقصة ، ولن أرقص .

إذن هل لى أن أسألك مرة أخرى " من أنت " ؟

قال هذا واتجه برأسه نحوى وأنا جالسة على حافـة السرير وقد بدت عيناه محمرتين وفيهما نعاس السكرة وعاود سؤاله بصوت مخمور :

هل لى أن أعرف من أى النساء تزوجت ؟

وبدأت أحكى له قصتى من البداية ، وزجاجة الخمر مازالت فى يدى حتى أضمن أنه لن يغيب عن الوعى :

- أنا لست راقصة .. ولا أحب الرقص .. تترامى بى الذكريات إلى الوراء عندما كنت فى عمر الزهور وكأنى لست أنا أو لكأنى مسخ أخر يعيش حياة مختلفة تماما عن تلك الحياة التى بدأتها صغيرة .. ففى دروب مدينتى يمسخ الإنسان ألف مرة ومرة فى العمر الواحد .. لست أدرى من أنا .. حتى حتى

أدرى من أنا فأعاود الحيرة من جديد لأقف عند السؤال ذاته .... (البداية)

(تـمـت)

الصفحة الأخيرة

– هذه هى الرواية الأولى فى حياة مؤلفها ، وإن كانت لا تمثله الآن إلا أنه ينشرها فى صورتها الإلكترونية وفاء لها .. بدأ كتابتها عام ١٩٨٣ أثناء إقامته بالكويت وانتهى منها عام ١٩٨٥ بعد عودته إلى مصر .

– صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٨٦ عن دار الرقى بيروت / لبنان .

* كتب أخرى للمؤلف على نفس الموقع :

١. بغل المجلى (رواية)

٢. عودة الفلوص (رواية)

٣. الحذاء (رواية)

٤. استضافة النص (دراسات فـى الشـعر العربـى المعاصر)

* تعريف بالمؤلف :

مواليد ١٤ / ١٠ / ١٩٥٨م بقرية القارة بمركز أبو تشت / محافظة قنـا .

يعمل مدرسا للغة العربية بالمرحلة الثانوية بإدارة أبو تشت التعليمية .

حصل على العديد من الجوائز الأدبيـة مـن هيئـة قصور الثقافة بمصر ، ونادى القصة وجائزة إحسـان عبـد القدوس وذلك لسنوات عدة في الروايـة والقصـة والنقـد الأدبى .

ينشر أعماله فى كافة الدوريات الأدبية المتخصصـة الناطقة بالعربية وخاصة مجلة " الشعر " المصرية .